الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقـــراطية الشعبـــية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جـامعة "الإخـوة منتـوري" قسنطـينة
كلية العلـوم الإنسانـية والعلـوم الاجتماعـية
قســـــم الفلســـــفة

رقـــم التسجيل: .....
الرقم التسلسلي: .....

الموضـــوع

دور الديـــن في بنـــاء الحضـــارة
فـــي فـــلسفـــة آرنـــولـــد تـــوينـــبي
المسيـــحية أنمـــوذجـــا

رسالة مقدّمـــة لنيـــل شهادة مذكّرة الماجستـــير فـــي الفلســـفة

إعداد الطالبـة:
هـــدى بـــوفضـــة

تحت إشـراف:
الدكتور موسى معيرش

أعضاء لجنـــة المناقشـــة:

تـــاريخ المناقشـــة :2008/07/07

اللقب والاسم	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
- أ.د إسمـــاعيل زروخـــي	أستاذ التعليم العـــالي	رئيســـا	جامعة منتوري قسنطيـــنة
- د. موسى معيرش	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا	المركز الجامعي خنشلة
- د.نادية دربوش	أستاذة محاضرة	عضوا مناقشا	المركز الجامعي خنشلة
- د.رشيد دحدوح	أستاذ مكلّف بالدروس	عضوا مناقشا	جامعة منتوري قسنطيـــنة
- د.عبد اللّه بوقرن	أستاذ مكلّف بالدروس	عضوا مناقشا	جامعة منتوري قسنطيـــنة

2007- 2008م

بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم

إهداء

إلى أبي و أمي

و

جدّتي العزيزة

يمّى "مسعودة" أطال الله عمرها

و

اخوتي: محمد لمين، حكيم، نجوى وبسمة

هـــدى

شكر و عرفان

الحمد و الشكر لله

الذي أعانني على إتمام هذا العمل

ويشرّفني أن أتقدّم بالشكر والامتنان للأستاذ الفاضل:

مـــوسى معـــيرش

على متابعته الحثيثة لإثراء هذا البحث.

كما يشرّفني أن أتقدّم بالشكر الجزيل لكل الأستاذة الأجلاّء وعلى وجه الخصوص:

عبـد الله بوقـرن ، رشـيد دحدوح
و عبد الســلام مـهري

و الأستاذ الدكتور **إسماعيل زروخي** و الأستاذة الدكتورة **فريدة غيوة**

و الأستاذ القدير **رابح مراجي**

لمساعدتي وتشجيعي والذين لم يبخلوا علي بنصائحهم التي لم تنقطع طوال مدة البحث. وأخص بالشكر كذلك كل الزملاء الأساتذة الكرام خاصة: **حورية حسيني ومحمّد رضا حشاني.**

وأساتذتي وزملائي بقسم اللغة والأدب الفرنسي بالمدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية بقسنطينة خاصة الأساتذة الأجلاّء بشيري، عبد الكريم زبيري، قرام ومحفوظ بوشلوخ

و

المشرفين على كنيسة القدّيس أوغسطين *Basilique de Saint Augustin* بعنابة، والكنيسة البروتستانتية بقسنطينة.

L’église protestante d’Algérie.

مقدمـــــــة

تميّز القرن التاسع عشر دونا عن القرون التي سبقته من التاريخ الإنساني بنضوج علم التاريخ في كنف الحضارة المسيحية الغربية civilisation occidentale، وأيضا نضوج مختلف الدراسات التي عنيت ليس باستيعاب ماهية التاريخ فحسب إنما كذلك من أجل التحكّم بمساره لصالح الحضارة المسيحية الغربية. ولئن كان "ادوارد جيبون" GIBBON Edward(**1737-1794**) صاحب أول دراسة عن نهاية الإمبراطورية الرومانية، هو أول مؤرخ غربي حديث، فإنّ التفكير في معنى التاريخ وفحواه هو تقليد ألماني في العصور الجديدة، خاصة فيما يخص حركة الحضارة الإنسانية وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة أخرى جديدة، إذ ظهرت في ألمانيا مجموعة كبيرة من المؤرخين.

وليس بعيدا عن الوسط الذي احتوى هذا الزخم الثقافي الألماني خاصة، ظهر مؤرخ انجليزي متميّز هو "آرنولد جوزيف توينبي" **Arnold Joseph TOYNBEE (1889- 1975)**[*] الذي درس إلى جانب العديد من فلاسفة التاريخ ظاهرة تدهور الحضارة من زوايا مختلفة، ورغم اتفاق الجميع على وحدة الظاهرة إلا أنهم تباينوا في الإشارة للجذور والمظاهر، فتكونت لدينا أكثر من رؤية لتدهور الحضارة وتبع ذلك أكثر من تصوّر للخروج من الأزمة.

وقد اهتم توينبي بدراسة الحضارة الإنسانية عامة منذ القدم مما جعله أحد أشهر منظّريها، إذ ينظم للتيار القائل بأنّ الحضارة الراهنة- الغربية منها خاصة- هي في طريق الزوال [*][*]، لكن ليس لأنّ الحضارة تشبه الكائن الحي وليس كذلك لافتقاد الغرب لنظرية كونية، بل لأنّ دراسته لإحدى وعشرين حضارة في تاريخ البشرية قادته إلى الاكتشاف بأنّ هذه الحضارات إنما قامت لتمكنها من مواجهة التحدّي الذي اعترضها مواجهة كانت في مجملها ايجابية، ويحدث التوقف عن النمو وسلوك درب الانحدار نتيجة لعجزها عن الرد الايجابي على التحدّيات التي اعترضت طريقها بعد أن قطعت أشواطا من الرقي والازدهار.

(*) آرنولد جوزيف توينبي Arnold Joseph TOYNBEE (1889- 1975) من أبرز فلاسفة التاريخ في العالم، ومن أسرة تظم عددا غير قليل من أهل العلم والفكر ومن المؤرخين أيضا. درس توينبي في جامعة أكسفورد OXFORD التي أصبح فيها زميلا ومدرّسا من عام 1911 إلى عام1915م. اشتغل في وزارة الخارجية البريطانية إبان الحرب العالمية الأولى كما حضر مؤتمر الصلح في باريس عام 1919 (وتكرر ذلك في الحرب العالمية الثانية، حيث حضر مؤتمر الصلح الثاني في باريس في عام 1946).

كان توينبي أستاذا للغة البيزنطية واليونانية الحديثة وآدابهما وتاريخهما في جامعة لندن من عام1919 حتى 1924 ثم مديرا للدراسات في المعهد الملكي للشؤون العالمية Royal Institute for International Affairs منذ 1925 ومن ثمّ أستاذا للبحث العلمي في التاريخ العالمي في جامعة لندن حتى تقاعده سنة 1900. وقد منح توينبي عدة درجات فخرية وقام بأسفار واسعة النطاق في بلاد متعددة اعترفت بفضله ووجّهت إليه الدعوة لإلقاء محاضرات فيها.

وكانت مناقشات توينبي المشهورة مع أصحاب الاتجاهات الصهيونية وردوده الحاسمة على المزاعم اليهودية بشأن فلسطين من أشهر الوقائع التي دارت خلال هذه الرحلات. وأبرز مؤلفاته *دراسة للتاريخ* ويقع في اثنا عشر مجلدا، ظهرت تباعا منذ 1934 حتى 1961. وله كتب أخرى منها: *البقاء في المستقبل، فلسطين جريمة..ودفاع، العالم والغرب، الحضارة في الميزان والتحدّيات الكبرى* وهو كتاب حواري مشترك ألّفه مع الفيلسوف الياباني دايساكو إكيدا DAISAKU Ikeda.

(*)(*) خاصة الفيلسوف الألماني "اشبنغلر" ومواطنه "اشفيتسر".

ومن منظور توينبي أنّ هذه هي حالة المجتمع المسيحي الغربي اليوم، ولكن يختلف توينبي عن المفكرين الذين سبقوه بقوله بدور الدين الفعّال في عملية الحضارة لما من مكانة الدين المرموقة في واقع المجتمعات منذ القدم ويعكس هذا بوضوح تمسكّه بروحه الدينية المسيحية الخالصة، الشيء الذي أصبح من النادر الحديث عنه في هذه الأيام في المجتمع المسيحي الغربي.

ويأمل بالتالي أنّ خلاص الحضارة المسيحية الغربية لن يتحقّق إلا بالانتقال من المادي إلى الروحي، أي من الاقتصاد إلى الدين، ويضع لذلك مجموعة من الحلول المبدئية. ويرجع هذا لإيمانه باستطاعة الإنسان في الحضارة المسيحية الغربية كما في الحضارات الأخرى أن يتصرّف تصرّفا روحيا يضمن به الأمان من الأخطار الناجمة عن التقدّم التكنولوجي الصارخ في المجتمعات الغربية على وجه الخصوص.

ويتبيّن لنا من هنا أنّ الرؤية الفلسفية لدى توينبي تتمحور حول بعد جديد لدراسة التاريخ هو البعد الحضاري الديني vision religieuse de l'histoire الذي ينفرد به عن البعد الميتافيزيقي مثلا لدى "هيجل" vision métaphysique أو الاقتصادي لدى "ماركس" vision économique أو البيولوجي لدى "اشبنغلر" vision biologique.

وانطلاقا من هذه المعطيات فإنّ إشكالية البحث تدور حول علاقة الدين المسيحي ببناء الحضارة المسيحية الغربية ؟ وهل للدين المسيحي دور في قيام الحضارة المسيحية الغربية عند توينبي ؟

بمعنى هل يعد أحد العوامل الأساسية التي ساهمت ولا تزال في قيام هذه الحضارة وتعاظم دورها بين الحضارات الأربع الأخرى التي لا تزال قائمة ومنها: الحضارة المسيحية الشرقية chrétienne orthodoxe والحضارة العربية الإسلامية arabe والحضارة الهندية hindoue وحضارة الشرق الأقصى extrême-orientale أم أنّ الأمر غير ذلك ؟

وبتعبير آخر هل يعتبر الدين المسيحي عامل جوهري أم عرضي ؟ وفيما تتجلى مساهمات الكنيسة المسيحية في دفع عجلة الحضارة المسيحية الغربية ؟ وأخيرا: فيما تتمثّل أزمة الحضارة المسيحية الغربية التي دارت حولها فلسفة توينبي ؟

وانطلاقا من إشكالية البحث وضعنا الخطة التالية: مقدمـــة، ثـــلاث فصول، خاتمـــة.

- **المقدمـــة:** بيّنا من خلالها كنه الموضوع والإشكالية المقترحة لمعالجته.
- **الفصـــل الأول:** عرضنا فيه تصوّر توينبي لمسار الحضارة الإنسانية عامة.
- **الفصـــل الثـــاني:** بيّنا فيه ما هي الأديان العليا والدول العالمية التي يتحدث عنها توينبي وكنموذج عن ذلك كيفية انبثاق الدين المسيحي بصفته أحد الأديان العليا وممثّل الحضارة المسيحية الغربية من رحم الدولة العالمية، الإمبراطورية الرومانية.

- **الفصـــل الثـــالث:** وخصّصناه لتحليل موقف توينبي بصفة إجمالية حول دور الدين المسيحي في الحضارة المسيحية الغربية من خلال جملة من العناصر يراها توينبي ضرورية لكشف حقيقة الموضوع.
- **خاتمـــــة:** عرضنا فيها جملة من الاستنتاجات التي أفضت إليها هذه المعالجة.

وبغية الوقوف عند معالجة دقيقة لهذه التساؤلات اعتمدنا في انجاز بحثنا على المنهجين النقدي والتحليلي التاريخي نظرا لطبيعة الموضوع التاريخية، وذلك حتى نستطيع الإلمام بتحليل تاريخي وفلسفي.

واعتمدنا في بحثنا على مجموعة من مصادر توينبي أهمها: الترجمة الفرنسية essai d'interprétation لكتابه **دراسة في التاريخ Study of History** وهي: **L'Histoire**، كذلك **العالم والغرب، الحضارة في الميزان، حرب وحضارة، التحدّيات الكبرى: الحياة والدين والدولة، حوار...** وكتابه **من الشرق والغرب،** الذي يضم مجموعة من المحاضرات ألقاها خلال زيارته للجمهورية العربية المتحدّة في أفريل من سنة **1964.**

ولإثراء هذا البحث أكثر كان واجبا الاستعانة بمجموعة من المراجع التي تتناول الموضوع أو جانبا منه، نذكر على سبيل المثال: تدهور الحضارة الغربية "لاشبنغلر"، فلسفة الحضارة "لألبرت اشفيتسر"، صدام الحضارات "لصموئيل هنتنغتون"، أزمة الإنسان الحديث "لتشارلز فرانكل"، سقوط الحضارة "لكولن ولسون"، معركة الحضارة "لقسطنطين زريق"، المسيحية نشأتها وتطوّرها "لشارل جينيبير"، موجز تاريخ الأديان "لفيلسيان شالي"، قصّة الديانات "لسليمان مظهر"...

إضافة لدراسات متميّزة خصّت بالبحث والتحليل هذا الموضوع وهي: **فلسفة التاريخ** "لأحمد محمود صبحي" و**مفهوم الحضارة بين مالك ابن نبي وآرنولد توينبي** للباحثة الجزائرية "آمنة تشيكو".

هذا عن المراجع باللغة العربية أما باللغة الفرنسية فقد اعتمدنا على مجموعة من الكتب الهامة جدا والنادرة أيضا الخاصة بالديانة المسيحية منها:

1- La Citée de Dieu
2- Histoire de l'Eglise
3- Guide Illustré de l'Histoire du Christianisme
4- L'Ethique Protestante et l'Esprit du Capitalisme

إضافة إلى مجلّة: CAHIERS EVANGILE التي تتناول التاريخ المسيحي.

وبالطبع الاستفادة كذلك من مجموعة لا بأس بها من المعاجم والقواميس والموسوعات نذكر على سبيل المثال: **قاموس المذاهب والأديان** "لحسين علي حمد" و**موسوعة الأديان في العالم: المسيحية** "لجميل مدبك" و**موسوعة الأديان السماوية والوضعية** "لنهى نجار"...

وكغيرنا من الباحثين فقد واجهتنا العديد من الصعوبات التي لم تزد فينا إلا الإصرار على مواصلة البحث منها:

غياب ترجمات عربية دقيقة لـــ Study of History لآرنولد توينبي والتي حاولنا التغلّب عليها بالعودة إلى الترجمة الفرنسية المختصرة التي لولاها لما تمكّنا من الانطلاق في هذا الموضوع، فضلا عن عدم توفّر العديد من المصادر والمراجع والتي وإن وجدت في بعض المكتبات فلم يسمح لنا بارتيادها لسبب أو لآخر.

وننهي حديثنا بالتمويه بدور الأستاذ المشرف الكبـــير والعناية الفائقة التي أحاط بها هذا البحث وسؤاله الدائم عن كل كبيرة وصغيرة تخصّه بغية الاجتهاد قدر الإمكان لتقديم عمل علمي متكامل.

والله من وراء القصد.

الفصل الأول : الحضـــارة عنـــد توينـــبي

مـــدخل

1- المبـــحث الأول: مفهوم الحضارة

1-1- لغة و اصطلاحا

1-2- مفهوم الحضارة عند آرنولد توينبي

2- المبـــحث الثاني: ميلاد و ارتقاء الحضارات

2-1- عوامل نشوء الحضارات

2-2- طبيعة الارتقاء الحضاري

3- المبـــحث الثالث: انهيار و تحلل الحضارات

3-1- انهيار الحضارات

3-2- طبيعة و مظاهر التحلل الحضاري

- تعقيـــب

مدخـــل:

بدل الإنسان منذ الأزمنة الغابرة قصارى جهده في التقرّب إلى إله أو آلهة، مستعينا بعقله الذي ميّزه الله به عن سائر المخلوقات، «**وجعل وظيفته و وسيلته الفكر والتفكير، وتلك كلّها أركان الحضارة**»[1].

الإنسان مزوّد بعقله، مستعين بجهده، معتمد على عمله، كل هذا وسط محيط تمارس فيه كل أنواع النشاط الإنساني، وقد ورد في سفر التكوين: « **فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها وتسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدّب على الأرض**»[2].

وينتشر الإنسان على البسيطة، وتستقر كل مجموعة بشرية في بيئة تجد فيها مقوّمات الحياة متوافقة مع متطلباتها، وتتشابه وتتماثل وحداتها البشرية في التأقلم مع تلك البيئة، حيث تبدل كل الجهود لتهيئة الظروف المساعدة على الإقامة والمعيشة، «**فتبدأ عملية صراع لانهائي بين الكائن البشري والتحديات التي تفرضها الظروف الطبيعية، ولا بد أن ينتصر الإنسان حتى تقوم الحضارة، وقد قامت فعلا**»[3].

و قد كان الشرق الأدنى مهد الحضارات المتوالية على البشرية، والمرتع الأول لكل العلوم والفنون والآداب التي استمدّت منها الحضارة الغربية الحالية قوّتها على مدى القرون. إذ يؤكّد "عبد المنعم نور": «**ليس من المبالغة في الشيء إذا قلنا بأنّ بدرة الحضر قد وضعت منذ حوالي ستة آلاف سنة، وأنّ الحقل الخصب الذي بذرت فيه كان هو الشرق الأدنى**»[4] .

ويذهب "صموئيل هنتغتون" Samuel HUNTIGTON في كتابه صدام الحضارات إلى أنّ« **التاريخ الإنساني هو تاريخ الحضارات، ومن المستحيل بأن نفكّر بتاريخ الإنسانية بأي معنى أخر، والقصة ممتدة عبر أجيال من الحضارة السومرية القديمة إلى المصرية إلى الكلاسيكية و الأمريكية الوسطى... والنتيجة أنّ أسباب وظهور وصعود وتفاعلات وانجازات وانهيار وسقوط الحضارات، كان يتم استكشافها بواسطة مؤرّخين وعلماء اجتماع... منهم " ماكس وبير" Max WEBER و... " ازوالد اشبنغلر" Oswald SPENGLER و... " آرنولد توينبي " Arnold TOYNBEE**»[5].

1- فضل الله محمّد إسماعيل وعبد الرحمن خليفة؛ الإيديولوجية وفلسفة الحضارة، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، مصر، ط1، 2005، ص، 123.

2- سفر التكوين؛ 1/ 27- 28.

3- فضل الله محمّد إسماعيل؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- محمّد عبد المنعم نور؛ الحضارة والتحضّر، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر، ط1، 1970، ص، 08.

5- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات ... إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، شركة سطور، مصر، ط2، 1999، ص، 76.

وقد تحدّثت الكثير من النظريات عن هذه التحوّلات في سير الحضارة، بدءا من " القديس أوغسطين" Saint Augustin(**354-430**) و"ابن خلدون" وكذلك فكرة الدورات الحضارية "لاشبنغلر" (**1880-1936**) وصولا إلى المراحل الأربعة التي وضعها توينبي كأسس يمكن من خلالها فهم سير الحضارة الإنسانية.

لقد درس هؤلاء الفلاسفة والمفكّرون عبر مؤلفاتهم الحضارة من زوايا مختلفة وبمناهج متعددة، مما أدى إلى جدل واسع حول العناصر الرئيسية المكوّنة للحضارة، «**ورغم الاختلافات في المنظور والمنهج ووبؤرة الاهتمام التي تعّم تلك المؤلفات**»[1]، إلا أنّه قد تكونت لدينا أكثر من رؤية عن الحضارة، وتبع ذلك أكثر من تصوّر لفهمها.

كل هذه المعطيات تدفعنا لطرح جملة من الأسئلة قصد تبيان: مفهوم الحضارة عامة ومفهومها عند آرنولد توينبي خاصة، كيف عرض توينبي لبدايات الحضارات وارتقائها وانهيارها ؟

كيف شرح نظريته " التحدّي والاستجابة " ؟ ومن ثمّ ارتقاء الحضارة، وكيف فسّر الانهيار ؟ وطبيعة ومظاهر التحلل الحضاري ؟

1-المبحث الأول: مفهوم الحضارة

عندما انتقل الإنسان من مرحلة الإنسان البدائي وسار في طريق الإنسانية، أدرك المجتمع société والعلاقات الاجتماعية relations sociales القائمة فيه وأدرك بالتالي أنّه لا يعيش لوحده وأنّه يتقاسم مع غيره الحياة والوجود.

وبما أنّه يقاسم غيره هذه الحياة وهذا الوجود، فإنّه بالضرورة يشاركه في دفع الضرر، وفي تبادل المنفعة، وتحقيق كل المطامح التي تكوّنت هذه العلاقات لأجلها والتي على أساسها قام المجتمع، فإنّه يحقق بهذا اجتماعيته ومدنيته وبالتالي حضاريته، أي إنتاجه التقدّمي ومعنى هذا كل عمل وجهد وإنتاج تتمثّل فيه الخصائص الإنسانية والفكرية والوجدانية والسلوكية...

فما مفهوم الحضـــارة **civilisation** عامة ؟ وما مفهومها عند آرنولد توينبي خاصة ؟

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

1-1- لغة و اصطلاحا:

أ- لغـــة:

ورد في لسان العرب "لابن منظور" أن **الحاضر** هو المقيم في المدن والقرى وأنّ البادي هو المقيم في البادية[1]، والحضرة و الحاضرة والحضارة: خلاف البادية [2].

ويوضّح لسان العرب أنها: المدن والقرى والريف، وقد سمّيت بذلك لأنّ أهلها قد حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار. **الحضارة** هي إذا الإقامة في الحضر[3]، أي العيش في مكان ووفق معطيات أو بطريقة تختلف عن تلك المعهودة في البادية.

أما عن زمن ظهور مصطلح **حضارة** فيذكر "عبد المنعم الحفني" في معجمه الشامل، أنّ مصطلح **حضارة** قد استخدم لأول مرة سنة 1704م بمعنى التمدّن أي التخلّق بأخلاق أهل المدن واللبس مثلهم والسلوك كدأبهم والتحدّث بلغتهم[4].

أما عن مفهومها فإنه «**يأتي بعد هذا التاريخ باعتبار المدن حواضر، جمع حضارة، وهي المدينة الكبيرة، الحضارة الغربية، والحضارة الهندية والحضارة الآسيوية، هي هذه الحضارات في مجموعها أو مجملها**»[5]، بما يسودها من أخلاق وأعراف وعادات وتقاليد ونظم وقيم وقوانين ولغات وثقافات وطرق عيش مختلفة.

وإضافة إلى المدينة تختلط كلمة **حضارة** بكلمة أخرى هي **الثقافة**، هذه الألفاظ الثلاث يكثر تداولها بصورة كبيرة على ألسنة العامة والخاصة في كتاباتهم، حيث يستخدم الكثيرون الواحد منها بديلا للآخر في صورة توحي بأنّها مترادفة .

وقد حذّر من قبل"عبد المنعم الحفني" من اختلاط المصطلحين **حضارة** و**ثقافة** لتقاربهما في المعنى، فيبيّن أنّ كلمة **حضارة**، «**أخذت تطلق على مظاهر الحياة المتقدّمة والمتطوّرة في المجتمعات الغنية (الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج، الثروة المادية)، أمّا الثقافة فأصبحت تطلق على مظاهر الحياة الروحية والفكرية في كل مجتمع، متقدّما كان أم متخلفا**»[6].

كأن نقول مثلا: الحضارة الغربية ونقصد بذلك التطوّر التكنولوجي، والثقافة الهندية، ونقصد بذلك كل ما يصنعه المجتمع الهندي في المجال الروحي.

1- ابن منظور؛ لسان العرب، المجلّد الثاني، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص، 103.

2- الفيروز آبادي؛ القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط6، 1998، ص، 376.

3- ابن منظور؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- عبد المنعم الحفني؛ المعجم الشامل- المصطلحات الفلسفية – ، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط3، 2000، ص، 301.

5- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

6- كميل الحاج؛ الموسوعة الميسّرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2000، ص، 206.

إضافة إلى هذا نجد "أندريه لالاند"André Lalande في موسوعته الفلسفية، يعرّف **الحضارة** بأنّها: «**مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة ذات طبيعة قابلة للتناقل تتسم بسمة دينية، أخلاقية، جمالية، فنية، تقنية أو علمية ومشتركة بين كل الأجزاء في مجتمع عريض أو في عدّة مجتمعات مترابطة**»[1]. ونلاحظ جليا، أنّه قد أكّد على ما تضمنته كلمة **حضارة** من تطوّر علمي وتكنولوجي، وما أنتجه هذا التقدّم من انجازات وابتكارات في مختلف ميادين الحياة .

أما في اللّغة الأجنبية، فنجد في قاموس اللغة الفرنسية Le Petit LAROUSSE Illustré بأنّ **الحضارة** civilisation هي: «**مجموعة الميزات والقيم الشاهدة على درجة التقدّم الإنساني وتطوّر المجتمعات الايجابي**»[2]، أي مظاهر الحياة الثقافية والفنية والأخلاقية والمادية لمجتمع إنساني، مثلا: الحضارة اليونانية، و الحضارة الرومانية، والعربية الإسلامية...

وانطلاقا من المعطيات الحالية، تعدّت كلمة حضارة إلى معنى العالمية mondialisation ثم الكونية universalisation، وأصبحنا نقول: حضارة الكوكب الأزرق، أي حضارة واحدة تجمع وتتّحد في داخلها كل الشعوب على الأرض وإن تعدّدت حضارتها.

1- أندريه لالاند؛ موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلّد الأول A-G، منشورات عويدات، بيروت- باريس، فرنسا، ط2، 2001، ص، 172.

2- Le Petit LAROUSSE Illustré, Paris, LAROUSSE, 2007, p. 251.

ب- اصطلاحا:

لاحظنا من خلال التحليل اللّغوي، أنّ هناك تباينا حول تحديد مفهوم **الحضارة** بين اللّغة العربية واللّغة الأجنبية، و**الحضارة** – كمصطلح– شأنها شأن مصطلحات العلوم الاجتماعية قدّمت لها تعار يف شتّ وم تستقر على مفهوم واحد أو رؤيا واحدة تضمن لها معنى محدّدا، نظرا لكثرة الباحثين عن كنهها عبر حقب الزمن المختلفة، ممّا جعل كل حقبة بفلاسفتها تذهب مذهبا خاصا مميّزا عن سابقتها ولا حقتها تبعا لما يسودها من فلسفات.

ويحاول "كميل الحاج" أن يحدّد مفهوم الحضارة الاصطلاحي، إذ يقول بأنّها: «**مجموعة الخصائص التي تتميّز بها المجتمعات المتطوّرة**»[1]، ويحدّد لها -حسب رأيه- علماء الأنتربولوجيا اليوم معنيان:

أحدهما ذاتي والآخر موضوعي: «**أما المعنى الذاتي، فتطلق على مرحلة سابقة من مراحل التطوّر الإنساني، المقابلة لمرحلة التوّحش والهمجية**»[2]، بمعنى أنّه إذا اتصف الفرد بصفات راقية وأخلاق عالية، قلنا إنّه متحضّر وعلى العكس من ذلك، إذا اتصف بصفات متوّحشة وهمجية، قلنا إنّه غير متحضّر.

و«**أما المعنى الموضوعي، فهو إطلاق لفظة حضارة على مجموعة من مظاهر التقدّم العلمي والفني والتقني، التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد**»[3]، كأن نقول الحضارة الفرعونية والحضارة اليونانية والحضارة الغربية...، جميعها مجتمعات متحضّرة، متميّزة بثقافاتها ولغاتها ومعتقداتها الدينية.

فهذه أمثلة لشعوب متحضّرة، ذلك أنّ الشعوب أو المجتمعات تنقسم إلى متحضّرة وغير متحضّرة، فنقول عادة أنّ مجتمع المدينة متحضّر مقارنة بالمجتمع الريفي أو البدوي وبهذا المعنى وضعت البداوة عندهم كنقيض للحضارة.

كما أنّ هذه التعريفات ارتبطت بالجانب المادي مثلما ارتبطت بالجانب الموضوعي، «**إلاّ أنّ البعض يجعل الماديات تأخذ بالقدر الوافر وهو بصدد عملية التعريف، ولعلّه مما يؤيّد هذا المذهب أنّ ابن خلدون – وهو أول من تحدّث عن فلسفة التاريخ وأرسى قواعدها- كان يستخدم مصطلح العمران البشري، وكأنّما يعني به الحضارة**»[4]. أي أنّه انطلق من معطى مادي ليعبّر به عن معطى معنوي، فقد سار في نفق العمران البشري وهو يعلم أنّه سيخرج منه على ساحة الحضارة.

في حين لا تنشأ الحضارة حسب " ألبرت اشفيتسر" Albert SCHWEITZER **(1875-1965)** إلاّ إذا عزم الناس على بلوغ درجات الرّقي، واجتهدوا في التغيير نحو الأفضل. وفي الأخلاق فقط نجد الوازع

1- كميل الحاج؛ الموسوعة الميسّرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ص، 206.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- فضل الله محمّد إسماعيل وعبد الرحمن خليفة؛ الإيديولوجية وفلسفة الحضارة، ص ص، 133-134.

القوي إلى هذا العمل، يقول "اشفيتسر":«**إنّ النظرة الأخلاقية إلى الحضارة، وإن جعلتني كأني غريب وسط الحياة العقلية في هذا العصر، فإني أعلنها بوضوح وتردّد، أنّنا لن نفلح في إعادة بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد، إلاّ إذا تخلصنا نهائيا من الفكرة السطحية السائدة فيه، ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية التي سادت القرن الثامن عشر**»[1]. أي أنّه لابد من جعل الأخلاق الركيزة الأساسية التي تقف عليها الحضارة الإنسانية وليس المادة، لما من سيطرة عصر المادة ما يتسبب في انهيار العلاقات الإنسانية القائمة على القيم و الأخلاق بالدرجة الأولى، الوضعية التي يتخبّط فيها الإنسان في الوقت الراهن.

إنّ الغاية من تعريف هؤلاء، هو تبيان أنّ «**الحضارة مظهر التعبير عن الفكر**»[2]، والفكر موضوع الفلسفة ومن هنا تتجسّد الحضارة من منظور "محمود صبحي" «**في علمائها ومفكّريها وفلاسفتها وفنّانيها و أربابها وأصحاب الحرف فيها، لا تقل طائفة من هؤلاء على ساستها وقوّادها استحقاقا**»[3].

نفهم من تعريف" محمود صبحي"، أنّ الأمّة لا تتجسّد في فرد، ولا تتمثّل حضارة كاملة في شخص معيّن، إنّما تخصّ كل المساهمين فيها ولو تفاوتت درجات مساهماتهم، بغضّ النظر عن طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم المعرفية.

وإنّ الحضارة الراقية هي على العكس من البدائية فهي يقول "اشبنغلر": «**كينونة واعية لنظام عضوي ضخم واحد، نظام لا يجعل فقط العادة والأساطير والتقنية والفن، بل أيضا الأقوام والطبقات التي تضمها أحشاؤه، أوعية للغة شكل واحدة وتاريخ واحد**»[4]، أي أنّ الحضارة هي وحدة الدراسة التاريخية، وإنها المظهر الأوّل لتاريخ البشرية الماضي والحاضر، فالمفهوم من قوله أنها ظاهرة روحية تخص فئة من البشر لها تصوّر إجماعي عن العالم بأسره وتتجسد وحدة تصوّرهم هذه في مظاهر حضارية عديدة كالفن والسياسة والاقتصاد والدين... ويقصد "اوزفالد اشبنغلر" من هذا، أنّ لكل حضارة شخصيتها وخصائصها الذاتية، وهذا يعني أنّها مغلقة وليست روحا مطلقة كما تصوّرها "هيغل"، مثال ذلك الحضارة الغربية ذات الروح اللانهائية، يقول "محمود صبحي" أنّ الغربي عبّر عن «**اللانهائية بالاستعمار العالمي، والهاتف الذي تغلّب على المكان المحدود... ثم الاقتصاد العالمي ممثلا في التجارة العالمية والبنوك**»[5]. هكذا كان الامتداد المكاني أو التوسّع الجغرافي لدى الغربي هو كل شيء.

ولعلّ "صموئيل هنتنغتون" كان أكثر وضوحا في تعريفه للحضارة من هذه الزاوية أي الشمول و

1- ألبرت اشفيتسر؛ فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983 ، ص، 40.

2- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1996، ص، 96.

3- المرجع نفسه؛ ص، 115.

4- اشبنغلر اوزفالد؛ تدهور الحضارة الغربية، الجزء الثاني، ترجمة: أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، دت، ص، 30 .

5- أحمد محمود صبحي؛ المرجع نفسه، ص، 250.

التوسّع، إذ هي «**أعلى تجمّع ثقافي من البشر وأعرض مستوى من الهوية الثقافية، يمكن أن يميّز الإنسان عن الأنواع الأخرى، وهي تعرف بكل من العناصر الموضوعية العامة، مثل اللّغة والتاريخ والدين والعادات و المؤسّسات والتحقّق الذاتي للناس. وهناك مستويات للهوية لدى البشر، فساكن روما قد يعرف نفسه بدرجات مختلفة من الاتساع، روماني، كاثوليكي، مسيحي، أوروبي، غربي**»[1]، فالحضارة عنده إذا هي الكيان الثقافي الذي يضّم الجماعات الثقافية والعرقية والدينية والمؤسّسات الاجتماعية بدرجاتها المتفاوتة، و العناصر التي ذكرها هي عناصر الحضارة، وكم يوّضح مثال: ساكن روما، تعريفه.

إلا أنّ هناك فرقا بين **الحضارة** بمعناها المفرد و**الحضارات** بصيغة الجمع، «**وقد كشف المفكرون الفرنسيون عن فكرة الحضارة، وطوّروها في القرن التاسع عشر كنقيض لمفهوم "البربرية"، فالمجتمع المتحضّر يختلف عن المجتمع البدائي، لأنّه كان مستقرا ومدينيا وليس أمّيا**»[2]. أي أنّه كان من الأفضل أن تصبوا دائما إلى درجة التحضّر، وإنّ مفهوم **الحضارة** قد قدّم لنا معيارا نستطيع بموجبه الحكم على المجتمعات، وإنّه خلال القرن التاسع عشر، كرّس الأوروبيون جهودهم الفكرية والدبلوماسية والسياسية في محاولة لشرح المعيار الذي يمكن على أساسه الحكم على المجتمعات غير الأوروبية إن كانت "متحضّرة "... وإنّه في الوقت نفسه، كان الناس يتكلمون بشكل متزايد عن الحضارات بصيغة الجمع[3].

ويتّضّح هذا جليا في أنّ الناس رفضوا «**الحضارة التي تعرف على أنّها نموذج أو بالأحرى على أنّها المثال الذي يجب أن يحتدا به**»[4]، كما يعني أيضا رفض القول بمعيار واحد لما هو متحضّر، تختص به أقلية إنسانية.

ويلفت "محمد عبد المنعم نور" الانتباه إلى ضرورة توضيح مفهوم **الحضارة**، خاصة بالقياس إلى **ثقافة**، موافقا في ذلك "كميل الحاج" و"عبد المنعم الحفني"، فالثقافة عنده «**تختلف عن الحضارة اختلاف البسيط عن المعقد، فلكل المجتمعات بسيطها ومعقّدها ثقافة هي كل نتاج الفكري المجتمعي ونتائج هذا الفكر و مشتقّاته أيضا**»[5]. أمّا **الحضارة** فـ«**تمتاز بالأوجه العملية والمادية لثقافة الأقوام "المتحضّرين" أي الذين عاشوا ومارسوا الحضر**»[6]. ويخلص بذلك إلى الفرق بين **الثقافة** و**الحضارة** والمتمثّل في أنّ **الثقافة** من أهم خصائصها أنّها متراكمة ومكتسبة وتنتقل عناصرها من جيل إلى جيل، بيد أنّ **الحضارة** وجه من أوجه **الثقافة**، فهي **ثقافة** مميّزة باعتبارها نتاجا مستقلا يتميّز به مجتمع معيّن دون غيره من المجتمعات في فترة من تاريخه، دون أن ينتشر منه إلى مجتمع آخر أو ينتقل فيه بهذه السمات من جيل إلى جيل يليه في نفس المجتمع.

1- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات ... إعادة صنع النظام العالمي، ص، 71.
2- المرجع نفسه؛ ص، 67.
3- المرجع نفسه؛ ص، 68.
4- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.
5- محمد عبد المنعم نور؛ الحضارة والتحضّر، ص، 23.
6- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

وحسب "إدريس هاني" لم يقف"ابن خلدون" عند التعريف التقليدي للحضارة باعتبارها حضورا. « **بل إنّ تأمّلاته فيها لم يقص بأي حال من الأحوال أنماطها الحديثة**»[1]، ويقول أنّه أرجعها إلى النشاط الصناعي خلافا "لول ديورانت"، الذي ألصقها بالنشاط الزراعي، إذ يعتبر الاجتماعي الأول الذي جعل دينامكيتها تتصل بالدولة كظاهرة سياسية عمرانية، فالحضارة إذن هي حضور الدولة ورسوخها، وهذا ما يؤكّده "ابن خلدون" في مقدّمته: « **إنّ الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنّها ترسخ باتّصال الدولة و رسوخها**»[2].

ويوضّح أنّ السبب في ذلك هو أنّ «**الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران... ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع... وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها، ويتلون ذلك الجيل بها**»[3].

ويرى "وايتهيد" Alfred WHITEHEAD (**1861-1947**) أنّ الإنسان أو ما يصطلح عليه بمجتمع متحضّر، هو من سيطرت عليه ومن يتمتّع بالمزايا الآتية: الصدق، والجمال، والمغامرة، والفن، والسلام، هي التي تحدد معنى الحضارة، إذ لا تعد في نظره ترفا خفيا مقصورا على فئة معيّنة من الناس، بل هي أولى بأن تكون تمييزا تاما يعم الجميع، أو ظرفا لابد منه لحياة مطمئنة[4]. وإلى جانب هذه العوامل الأساسية أو الجوهرية، يذكر عواملا أخرى تساعد أكثر على إظهار المزايا الخمس المذكورة وهي: أهمية الأفراد، حرية الرأي والعمل، والتسامح، لاتخاذ سبيل الإقناع بدل القوة وأخيرا الحكمة [5].

ولكن يرى البعض أنّه لا مجال للشّك «**في أنّ الحضارة هي أعظم عمل اجتماعي أنجزته البشرية حتى الآن**»[6]، وهو بذلك فسّرها بالدرجة العالية من التراث الإنساني. والمجتمع المتحضّر برأيه أكبر بكثير من المجتمع البدائي وبالتالي أكثر تعقيدا، ذلك أنّه - المجتمع المتحضّر - «**يكتسب معرفة عن العالم الطبيعي أكثر من المجتمع البدائي وينّمي أجهزة أكبر ويملك ثروة أضخم بالنسبة لكل فرد من السكان، وهلم جرا**»[7].

فالحضارة هي صفة يتصف ويتميّز بها الإنسان بوجه عام، فهي التي تميز المجتمع الإنساني عن نظيره الحيواني[8].

1- إدريس هاني؛ حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002، ص، 100.

2- عبد الرحمان ابن خلدون؛ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص، 386.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- جونسون؛ فلسفة وايتهيد في الحضارة، ترجمة: عبد الرحمان ياغي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 1965، ص ص، 15-16.

5- المرجع نفسه؛ ص، 33.

6- رشتون كولمبورن؛ أصل المجتمعات المتحضّرة، ترجمة: لمعي المطيعي، دد، دط، دت، ص، 05.

7- المرجع نفسه؛ ص، 14 .

8- فؤاد زكريا؛ الإنسان والحضارة، دار مصر للطباعة، مصر، ط1، 1991، ص، 11.

1-2- مفهوم الحضارة عند آرنولد توينبي:

إنّ المتأمل في أعمال توينبي يجد أنّ معضمها يسلط الضوء على مفاهيم الحضارة والتي تتمثّل عنده في: **مجتمع** Société و**مجتمعات** Sociétés، **حضارات** Civilisations و**حضارة** Civilisation.

إنّ المجتمع من منظوره هو «**الشبكة الكاملة للعلاقات بين الأفراد**»[1]، فالمجتمع إذا لا يتشكّل من الأفراد الذين يعيشون فيه، إنّهم نقاطه المركزية، وليسوا المجتمع، يقول: «**الأفراد بكل بساطة هم النقاط المركزية داخل شبكة العلاقات**»[2]. أي أنّه كما يرى " القديس أوغسطين" ليس حشدا عشوائيا من البشر، إنما هو مجموعة من الناس ألّف بينهم فكر واحد، وينسب الجميع إلى عالمين مختلفين: سماوي وأرضي، فظل العالم الأول تظلله التعاليم القدسية ويسعى جاهدا في طريق العدالة الإنسانية والسعادة السرمدية، وأما العالم الثاني فهو خاضع للمغريات الشيطانية بكل ما تحويه من شرور وآثام[3].

وأمّا المجتمعات، فهي المظاهر التاريخية الواقعية العينية لفكرة المجتمع المجرّدة، يقول: «**فبما أنّني أستعمل كلمة " مجتمع" لأعني بها الشبكة الكاملة للعلاقات بين الأفراد، أستعمل " مجتمعات" لأعني بها الشبكات الخاصة التي يمكن أن نحللها كمركبات لعدد معيّن من المؤسّسات المشكّلة لهذه المجتمعات... كالمجتمعات البدائية والمجتمعات التي هي في طور التحضّر**»[4]. في هذه المقولة نجده يتجاوز المفهوم السائد على أنّ كلمة مجتمعات ما هي إلا جمع لكلمة مجتمع. حيث يؤكد على أنّه يميز بين مفهوم كل منها بوضوح. فالمجتمع يقصد به شبكة العلاقات الكاملة والكامنة بين الأفراد. أما كلمة مجتمعات فهي أكثر خصوصية وأكثر دقة عنده. لذا قصد بها الشبكات الخاصة في المجتمع. وهذا عد الغوص بداخله وتفكيك بناه فنجد أنّه بدوره يتكون في عمقه من "وحدات" هي بدورها يمكن تحليلها كمركبات تتكون من عناصر أخرى.

وينحو بعض الباحثين منحى توينبي، في أنّ المجتمعات البدائية «**نائمة راكدة، وهي لا تتغيّر أمّا الحضارات فعلى النقيض من ذلك، فيها دافع للعمل، إنّها حركة مستمرة، إنّها تعمل للتاريخ**»[5]. ودليله في ذلك ما قاله توينبي: «**المجتمعات البدائية هي مجتمعات لها نقاط مشتركة مع الحضارة**»[6]. إذ يميّز توينبي في الأول بين **المجتمع** و**المجتمعات** وبين **المجتمعات** و**الحضارة**. ومن ثم جعلها منطلقا وحجر أساس لفكرة التمايز الموجود بين "المجتمعات البدائية" و"المجتمعات المتحضرة". وهكذا أسس لمفهوم كلمة "حضارة" و"حضارات".

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, Traduit de l'anglais par Jacques POTIN et autres, Paris- Bruxelles, Elsevier Séquoia, 1975, p. 41.
2- Id.
3- صلاح مصطفى الفوال؛ سوسيولوجيا الحضارات القديمة، دار الفكر العربي، ط1، 1982، ص، 290.
4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 42.
5- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ترجمة: نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، مطابع سيما، بيروت، لبنان، دط، 1959، ص، 174-175.
6- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 42.

وأما الحضارات فإنّ «**كل حضارة تحمل شبكة علاقات لمجتمع ما ومن المستحيل فعليا دراسة حضارة ما منفصلة عن مجتمعها**»[1]. بوصفه الميدان الذي تجسّدت عليه ووصف المجتمع الذي تعيش فيه، المهد الذي ترعرعت فيه قبل أن تخرج للعالم، فهي إذا تحمل صفاته وتطلعاته، هي باختصار صورته المترجمة للعالم عبر ما تحمله من رقي ومن حضارة، «**إنها نوع من المجتمعات الإنسانية**»[2].

وأخيرا الحضارة التي نشأت حسب توينبي منذ حوالي خمسة آلاف سنة، «**لتمثّل نوعا خاصا لثقافة سادت في مرحلة معيّنة من التاريخ**»[3]. إذ يعتبرها نوعا من الثقافة نجده في المدن، وهي تجمّعات سكنية، حيث أغلبية السكان لا يسهمون بقدر وافي في عملية البناء والتشييد، إنما أقلية هي من تحمل على عاتقها هذه المسؤولية. الحضارة بهذا هي البوتقة الاجتماعية المدنية أين تتحول الثقافة إلى حضارة. حيث يستند إلى تعريف "شيلد" CHILDE (**1892-1957**) الذي يعتبر فيه الحضارة ثورة مدينة (بالمماثلة مع صناعية). ومع هذا فإنّ هناك مجتمعات من دون مدن كما يرى توينبي، وعرف أهلها ما يسمى بظاهرة حضارية [4].

أي أنها طوّرت أبجديات حياتها وتمكنت من أن تضع نفسها في مصاف الحضارات العظيمة وإن كانت أقل منها في درجة التحضر. «**فلقد جاءت الحضارات وذهبت ولكن الحضارة بمعناها العام قد استطاعت في كل مرة أن تعود فتتجسد في صورة مجتمعات جديدة متحضرة**»[5].

ويوافق "صموئيل هنتنغتون" توينبي في أنّ الحضارات شاملة، أي أنّه لا يمكن فهم الجزء إلاّ بالعودة للكل المشكّل لهذا الجزء وغيره من الأجزاء المحيطة أي ضرورة الرجوع إذا للحضارة التي تضّمه، إنها تشمل ولا يشملها غيرها، إنها وحدة كلية. ويستشهد بموقف توينبي في قوله: «**أنّ الحضارة تقوم ردا على تحدّيات، ثم تمر بمرحلة نمو تتضمن سيطرة متزايدة على بيئتها بفضل أقلية خلاّقة يتبعها مرحلة صعوبات، قيام دولة شاملة، ثم بعد ذلك يكون التفسّخ**»[6].

وتذهب "آمنة تشيكو" في كتابها مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و آرنولد توينبي، أنّ توينبي قد بدأ بالبحث أولا عن وحدة تكون حقلا مفهوما للدراسة، «**فوجدها في "الحضارة" التي تنتظم عدة أمم**»[7].

وهي بذلك تبيّن أنّ توينبي قد انطلق من نقطة رئيسية، هي «**أنّ مادة التاريخ هي حياة أقسام موحّدة من البشرية سمّاها "المجتمعات" وذكر منها "الحضارة المسيحية الغربية " و"الحضارة المسيحية**

---

1 - Op. cit. 43.

2- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين محمود الشريف، دار إحياء الكتب العربية، حلب، سوريا، دط، دت، ص، 16.

3– TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, pp. 41-42.

4 - Id. 42.

5- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص، 32 .

6- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات ... إعادة صنع النظام العالمي، ص ص، 70- 73.

7- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1989، ص، 70.

الشرقية" و"الحضارة الإسلامية" و"الحضارة الهندية" و"حضارة الشرق الأقصى"»[1]. إذ أنّه قسّم المجتمعات إلى واحد وعشرين مجتمعا، زالت كلّها و لم يتبقى منها سوى الخمس مجتمعات المذكورة.

كما قام بتصنيف الحضارات إلى "أصلية" و"مشتقة":

الأولى: عرّفها بأنّها الحضارات التي لم تشتق من حضارة سابقة... وفي مقدّمتها حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل.

والثانية: هي الحضارات التي تنتمي بصلة "البنوة" إلى الحضارات التي سبقتها، أي الأصلية[2].

ويوافق "رشتون كولمبرون" توينبي في تسمية المجتمعات السبعة(*) بالمجتمعات المتحضّرة الأولى، وذلك لأنها أقدم المجتمعات المتحضّرة [3].

كما بيّنت "آمنة تشيكو" فكرة خطأ وحدة الحضارة لدى توينبي والمقصود بها الحضارة الغربية، لما حقّقته من تطوّر في كل المجالات ولهيمنتها الحالية على العالم، إذ ترى أنّ لهذه الفكرة -وحدة الحضارة - عند توينبي جذورا ثلاث:

الأول: وهم حب الذات.

الثاني: وهم الاعتقاد بجمود الشرق وعدم مواكبته للتطوّر الغربي.

الثالث: وهم الاعتقاد بأنّ التاريخ الحضاري يتبع في تقدّمه خطا مستقيما، وأنّه من الممكن تقسيم أدواره إلى ثلاث: قديم ومتوسط وحديث، بالإضافة إلى التقويم الميلادي للتاريخ، وهما بالنسبة لها - الباحثة- ولتوينبي كذلك، لا يعنيان شيئا بالنسبة لشعوب الحضارات الأخرى كالصين وغيرها[4].

وتوضّح الباحثة كذلك مفهوم "مالك ابن نبي" للحضارة، فأساسها عنده الأفكار ذلك أنّ للفكرة المسيحية مثلا الفضل في خروج أوروبا من بوتقة العصور الوثنية ودخولها التاريخ، وذلك لما كان لها من دور وظيفي أفاد المجتمع الأوروبي وسار به في طريق التحضّر[5].

يقول "مالك ابن نبي" معرفا الحضارة بأنها: **«جملة العوامل المادية والمعنوية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفّر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدّمه»**[6]. فللمجتمع إذا دور أساسي في عملية الحضارة مما يجعله قريبا من توينبي.

1- المرجع السابق؛ ص، 70.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

(*) المجتمعات السبعة هي: المصري، العراقي، الهندي، الكريتي، الصيني، مجتمع أمريكا الوسطى ومجتمع الأنديز.

3- رشتون كولمبورن؛ أصل المجتمعات المتحضّرة، ص، 06.

4- آمنة تشيكو؛ المرجع السابق، ص، 71.

5- المرجع نفسه؛ ص، 122.

6- مالك ابن نبي؛ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: عبد العظيم علي، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1971، ص، 50.

في حين يرى بعض المفكرين أنّ توينبي في مفهومه للحضارة يعارض "اشبنغلر" في إضفائه الصبغة البيولوجية للحضارات، بقوله بأنّها كالكائنات الحيّة: تولد وتنمو وتموت «**وأنّه ليرفض ما قدّمه أوزفالد اشبنغلر من قياسات تمثيل بيولوجية، كما يأبى قبوله بيانه الذي رسم التاريخ فيه، في صورة من تسلطت عليه ضرورة قاهرة لها قانون يحكم التفكك والتحلل**»[1].

غير أننا نجد توينبي قريبا جدا من "اشبنغلر" في أنّ الحضارة تولد وتتطور وتموت، فهذا يشبه إلى حد بعيد قوله بالمراحل الأربعة: **ميلاد، فارتقاء، فتدهور، فانحلال**، والتي سيأتي تفصيلها في المبحثين التاليين. فالحضارة عند " اشبنغلر" تتولّد عن سابقتها، كتولّد الحضارة الغربية عن الحضارة الإغريقية.

إذ أنّ التاريخ البشري -برأيه- يسير في **دورات مقفلة** و أنّ كل دورة من هذه الدورات، تمر أولا بمرحلة الحضارة والتي هي مرحلة البناء الفكري والفني، فهي مرحلة الطفولة بالنسبة لحياة مجتمع ما. وتبلغ الحضارة تبعا لهذا مرحلة النضج وهي المدنية، حيث تستغل كل الإمكانات التي أتاحتها الفترة السابقة عليها[2]، ويسميها بالقيصرية لأنها ذات طابع دكتاتوري، يتمثّل في الحرب والغزو المستمرين مما سيؤدي بها الى الأفول[3]. إذا زوال الحضارة هو آخر مرحلة من مسيرتها وهو نفس ما يذهب إليه توينبي عند الحديث عن الانحلال.

وحسب "إدوارد كار" فإنّ مفهوم الحضارة عند توينبي، يتنافى ومفهوم الغزو أو التوسّع الجغرافي الذي اتخذه الغرب وسيلة لنشر الحضارة الغربية في العصر الحديث، إذ يذكر في كتابه ما هو التاريخ ؟ بأنّ توينبي قد نعت غزو"موسوليني" للحبشة في عام 1935م بأنّه «**خطيئة شخصية متعمّدة**»[4].

وينصرف "قسطنطين زريق" إلى أنّنا عندما نشير إلى المفهوم التقليدي لهذه الكلمة، إنّما نشير إلى خصائص التقدّم والرقي في المجتمعات التي ندعوها متحضّرة، وفي هذا النطاق نصل إلى التمييز بين دلالتين: « **أما الأولى فهي الدلالة على الحالة التي يتّصف بها المجتمع المتقدّم الراقي، الناتجة عن انجازاته وإبداعاته في الميادين المختلفة... أما المعنى الثاني فهو الذي نقصده عندما نتكلم عن "الحضارات" البشرية التي تتابعت على مسرح التاريخ**»[5]، مثال ذلك الحضارات: البابلية، المصرية، اليونانية، الرومانية، العربية... بهذا المعنى يعتبر توينبي **الحضارة**، الوحدة الأساسية للدراسة التاريخية إذ يقول: «**يمكن أن نعرّف الحضارة كوحدة معقولة للدراسات التاريخية**»[6]، بمعنى المحور الرئيسي في هذه الدراسات.

1- ألبان. ج. ويدجري؛ التاريخ وكيف يفسّرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1972، ص، 230.

2- فؤاد زكريا؛ الإنسان والحضارة، ص، 17.

3- المرجع نفسه؛ ص، 45.

4- إدوارد كار؛ ما هو التاريخ ؟، ترجمة: ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص، 84.

5- قسطنطين زريق؛ في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1974، ص ص، 39-40.

6-TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 43.

ذلك لأنّ الاتجاه المعيّن في النظر إلى الماضي ومحاولة فهمه، هو الاتجاه الحضاري الذي لا يقف عند مظهر من مظاهر الحياة الماضية، كالسياسية أو الاقتصاد أو العلم أو الفن وما إلى ذلك، فيؤرّخ له من ضمن حدوده، من ثمّ كانت الحضارات هي الوحدات الأساسية في الدراسات التاريخية.

ويشيد "جوزيف هورس" في دارسته الفلسفية لقيمة التاريخ، بدور توينبي وأمثاله من الباحثين عن كنه الحضارة بقوله: «**ليس على المؤرّخ أن يرسم لوحة جذّابة لماضي الإنسان، بل هو مقيّد بعمل أكثر اتضاعا وأسمى طموحا، إنّ عليه واجب تجهيز معاصريه ومدّهم بسلاح العمل لبناء المستقبل، إنّه في توغّله إلى قلب أبعد العصور وأظلمها، إنّما يبحث عن قبس يضيء سبل المستقبل**»[1].

وهذا ما عكف على فعله توينبي طيلة أربعين سنة، باحثا وشارحا ومفسّرا من أجل إصدار كتاب واحد عن الحضارة الإنسانية، "**دراسة في التاريخ**" **STUDY OF HISTORY**.

وتنتقل الحضارة بموجب ما ذكر من قبل، من الدول السالفة إلى الدول التي تخلفها، وكمثال عن ذلك: انتقال حضارة الفرس للعرب من بني أمية وبني العباس، وأيضا انتقال حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين[2].

غير أنّ توينبي يلقى من يعارضه في: «**أنّ الحضارة هي نمط حياة، ونمط الحياة في الحضارة الغربية هو الدليل الحسي على تفوّقها على غيرها، فالشعوب التي تأخذ بهذا النمط تكون متقدّمة أكثر من غيرها**»[3].

حيث يرى "جورج حنا" أنّه انطلاقا من هذه الفكرة، فإنّ توينبي ينكر بكل بساطة على البلدان والشعوب الأخرى في العالم التي استفادت من الغرب فقط من الناحية التكنولوجية و لم تأخذ عنه روحيته، ينكر على هذه البلدان والشعوب تقدّمها الحضاري.

ذلك أنّ توينبي يحصر هذا التقدّم-حسب "جورج حنا"– على بعض بلدان الشرق المقلّدة لنمط الحياة في الغرب، والآخذة بمفاهيم الغرب وفي مقدّمتها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا للقيم الإنسانية وبنظمها السياسية، مثال ذلك: تركيا.

كما ينقد"أحمد محمود صبحي" توينبي في فكرة التولّد ويدافع عن استقلالية الحضارة المصرية وعدم تولّدها عن حضارة أخرى لأنّ توينبي قد عمّم ذلك، يقول "محمود صبحي": «**ليس بين الحضارات اللاّحقة ما ينتسب إلى الحضارة المصرية بصلة البنوة، فكما لم يكن للحضارة المصرية القديمة أباء لم يكن لها أبناء**»[4].

1- جوزيف هورس؛ قيمة التاريخ: دراسة فلسفية، ترجمة: الشيخ نسيب وهبة الخازن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، 1964، ص، 111.

2- سميح دغيم؛ موسوعة مصطلحات العلوم الاجتماعية والسياسية في الفكر العربي الإسلامي، سلسلة موسوعة المصطلحات العربية والإسلامية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2000، ص ص، 386-387.

3- جورج حنا؛ الحقيقة الحضارية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1 ، 1958 ، ص، 36.

4- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 268.

ويختلف توينبي عن "فيكو" Vico **(1668- 1744)** في أنّ كل تدهور يعقبه دور للإرادة الإلهية التي تعمل على النهوض من جديد في محاولات مستمرة وإن لم تنجح كل تلك المحاولات كان الفناء مصير الحضارة. إذ يرى "فيكو" أنّ الحضارة تمر بثلاث مراحل: الالهية والبطولية والإنسانية. ففي الأولى ترعاها الآلهة وفي الثانية تسيطر الأرستقراطية على الدولة، وفي الثالثة تسود الديمقراطية والحرية والعدالة، ويحقّق فيها الإنسان إنسانيته[1]. وإنما لا يعتبر توينبي الفناء هو النهاية، أو العودة إلى النقطة الصفر بل تظهر حضارة جديدة على أنقاض نظيرتها المنهارة، فتتابع طريقها نحو الارتقاء. وتتجسّد الحضارة أخيرا بإيصال المجتمع أو شعب ما، إلى مستوى علوي من التطوّر الفكري والمادي، ولقد عبّر "إدريس هاني" عن كل هذا بإيجاز: **«إنّ الحضارة في حد ذاتها قوة وهذه القوة... قوة من حيث هي علاقة، أي كيفية الانتماء والتوجيه والتوظيف لهذا الكل الذي يمثّل السند الخلفي للحضارة»**[2].

ومما سبق عرضه، يتّضح جليا أن توينبي يذهب إلى أنّ المجتمع هو اللبنة الأولى في تكوين الحضارة وهو ذاته الذي يكفل لها فيما بعد التطوّر والازدهار في كل الميادين التي توفّرها الحياة الإنسانية، وأنّ هذه الحضارة بتجسّدها تساهم هي الأخرى في تمتين شبكة العلاقات الإنسانية التي تمخّضت عنها، بل وتفتح المجال كذلك لتكوين علاقات أخرى ليست بالضرورة من نفس النوع، إضافة الى السفر بهذه المكتسبات الحضارية لبقاع أرضية أخرى وعرضها على مجتمعات أخرى و لم لا الإضافة منها. إنها من دون شك أعظم انجاز حقّقته الإنسانية، لأنّ هدفها هو السمو على مستوى الحياة البشرية البدائية [3]. فما هي المراحل التي اجتازتها في هذا النمو والارتقاء ؟ هذا ما سيتناوله المبحث الموالي.

2-المبحث الثاني: ميلاد و ارتقاء الحضارات

إذا تتبعنا الحضارة الإنسانية خلال الأزمنة الغابرة، نلاحظ أنها في تحول مستمر وهذا يعني أنها تنشأ باستمرار، ذلك أنّ كل تحوّل يحدث معه ميلاد صورة جديدة. ولقد كان لظهور نظرية التطوّر في القرن التاسع عشر أثره القوي والمميز في تقوية فكرة **المـــيلاد genèse des civilisations** ومن ثم **الارتقاء croissance des civilisations** الحضاري والتي وضعت لتاريخ الحياة البشرية صورة تظهر فيها الحضارات الإنسانية في تقدّم مستمر، بانتقالها من البسيط إلى المعقد ومن المستويات الأدنى إلى المستويات الأرقى. ويبدأ توينبي في عرضه لسير هذه الحضارات الإنسانية، بالقيام كمرحلة أولى تحتوي بدورها على مرحلتين ثانويتين هما الميلاد ومن بعده الارتقاء كنتيجة ايجابية.

فكيف يعرض توينبي لميلاد وارتقاء الحضارات؟

1- حسن محمّد الكحلاني؛ فلسفة التقدّم: دراسة في اتجاهات التقدّم والقوى الفاعلة في التاريخ، مكتبة مدبولي، مصر، دط، 2003، ص، 60.

2- إدريس هاني؛ حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، ص، 85.

3- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص، 16.

2-1- عوامـــل نشوء الحضارات:

في إطار بدأ عملية البحث عن نشوء الحضارات **genèse des civilisations**، تبادرت إلى ذهن توينبي عدّة أسئلة دفعته إلى تقصّي حقيقة ميلاد الحضارات، وأوّلها: كيف برزت إلى الوجود المجتمعات المتحضّرة ؟ هل كان لعاملي الجنس والبيئة دور في ذلك ؟ وما هو الدور الذي تلعبه فكرة "التحدّي والاستجابة" في نشوء الحضارة.

وإذا ما عدنا الى كتاباته نجد أنّه يحدد العوامل المساعدة على بناء الحضارة على النحو التالي:

- **العـــرق La race**
- **البـــيئة Le milieu**
- **التحدّي والاستجابة Défi et réponse**

فأي ظرف بحسب توينبي يساهم أكثر في قيام الحضارة ؟ وما هي درجة مساهمة الأدوار الأخرى ؟

فقد لاحظ توينبي من خلال بحثه، «**حقيقة تتعلّق بتحوّل المجتمعات البدائية إلى الحضارات، فوجد أنّ هذا التحول عبارة عن تحول من "الركود" إلى الحركة "الدافعة "، ويسمّي هذه الحقيقة قانونا وهي ما يدعى في الصين بـــ: "الين واليانغ"**»[1].

"فالين" يعني الركود و"اليانغ" هو القوة الدافعة، يقول توينبي: «**بين مختلف الرموز التي عبّر من خلالها الكثير من الملاحظين من مجتمعات عديدة، التناوب بين وضعية ثابتة وأخرى متحرّكة في الإيقاع الكوني، الين واليانغ هما الأكثر دقّة**»[2]. أي أنّ هناك ركودا يتبعه نشاط فركود آخر يتبعه نشاط آخر في سير الحضارة وهكذا.

ولنبدأ بفكرة **العـــرق**: **La cause de la genèse, la race**

يوضّح لنا أولا القاموس الفرنسي LAROUSSE المقصود بالعرق، يذكر القاموس أنّه «**تصنيف للكائن البشري إلى: أصفر، أسود، أو أبيض حسب معيار هو: لون البشرة**»[3]، أي أنّه تمييز للجنس الإنساني. فهو اصطلاح يبيّن "محمد عزيز نظمي سالم" يستخدم للتعبير عن توافر صفات مميزة وموروثة لدى جماعات معيّنة من البشر، و«**الصفات الوراثية للجنس التي نبحث عنها هنا، إنما هي السجايا النفسية أو الصفات الروحية التي يفترض وجودها بالفطرة في بعض المجتمعات**»[4].

يقول توينبي: «**تستعمل كلمة عرق لتمييز نوع مستقل بذاته عن باقي الأنواع الأخرى**»[5]، وإنّ المساندين لهذه النظرية، يفترضون وجود علاقة بين الصفات النفسية وبعض الصفات الجسمية، ولهذا يرجعون

1- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 73.

2- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 85.

3- Le Petit LAROUSSE Illustré, p. 890.

4- محمّد عزيز نظمي سالم؛ جدلية التاريخ والحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دط، 1996، ص، 107.

5- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 87.

بناء الحضارة لفضل عرق معيّن عن الأعراق الموجودة على الأرض[1]. غير أنّ عودته لتاريخ الحضارات التي درسها بيّن له خطأ الاعتقاد بأنّ بعض الصفات العرقية عند بعض الأجناس، هي وحدها العامل الايجابي إن لم نقل الأول في قيام الحضارة.

فقد رأى الكثير أنّ هذا العامل الإيجابي الذي أخرج جانبا من البشرية خلال الستة آلاف سنة الماضية من حالة المجتمع البدائي إلى حالة المجتمع المتحضر «**صفة من صفات الجنس**»[2].

أي أنّ الجنس حسب هؤلاء، اصطلاح يستخدم للتعبير عن توفّر صفات راقية، موروثة في سلالات من الأجناس البشرية، ويوضع اللون على رأس قائمة هذه الصفات البدنية التي يعوّل عليها أكثر من غيرها في غالبية الأحوال، «**ومهما يكن من أمر فإنّ أكثر نظريات الحضارة العنصرية شيوعا، هي تلك النظرية التي تضع على منصّة الشرف السلالة ذات البشرة البيضاء، والشعر الأشقر، والعيون الشهباء، والرأس الطويل**»[3]، التي يدعوها البعض **بالإنسان النوردي**، وأسماها " نيتشه" NIETZSCHE **(1844- 1900)** بالوحش الأشقر، وصنّفها "أدولف هيتلر" HITLER **(1889- 1945)** على رأس قائمته للأجناس البشرية، فاحتل **الجنس الآري** المرتبة الأولى كأرقى الأجناس من كل النواحي البيولوجية.

ولمّا كانت الأمور كذلك، فبماذا نفسّر إذا حيازة الرياضيين الأمريكيين مثلا في ألعاب القوى على تقريبا، كل الألقاب العالمية وتحطيمهم لأعلى الأرقام القياسية، صانعين بذلك مجد أمريكا الرياضي، وغالبيتهم من الزنوج، أحفاد أولائك الذين سيقوا من إفريقيا ليعملوا عبيدا في مزارع القطن الأمريكية. وينطبق المثال كذلك على دول أخرى، أبطالها من الزنوج أو من غيرهم من الأجناس الأخرى، ولا يقتصر الأمر على المجال الرياضي فحسب بل يتعدّاه إلى العديد من المجالات الأخرى.

وينتقد توينبي النظريات القائلة بدور العرق الحاسم في بناء الحضارة، ولكنه لا يلغي هذا الدور وإنما لم يبالغ فيه مما يجعله يشيد بالإسلام في خطوة فريدة، ويعترف بتقدّم المسلمين على المسيحيين في إلغائهم لكل المعايير العرقية، واستند على التمثيل بهم ليثبت بطلان نظرية العرق. يقول: «**لقد أزال العرب وغيرهم من المسلمين، كل الأحكام المسبقة المتعلّقة بلون البشرة في تعاملهم مع الأجناس الأخرى**»[4].

ويستدل على هذا بقوله: «**ومسلمو اليوم، يقسّمون العالم على غرار المسيحيين الغربيين خلال القرون الوسطى، الذين عزفوا عن إقامة أي علاقات مع الشعوب المختلفة الألوان، فالمسلمون ينظرون إلى البشر على أنهم إخوة والجامع بين الجميع هو الإسلام... إذ تحت راية الإسلام يمتزج الأبيض بالأسود**»[5].

1- Op. cit. p. 87.

2- مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 1988، ص، 338.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 88.

5- Id.

فالمهم أنّ الهدف هو بناء الحضارة الإنسانية، هكذا وضّح توينبي أنّ عامل الحكم في نظر الإسلام كان الدين وليس لون البشرة أو أي معيار بيولوجي آخر. وبالتالي فهو ينكر على المسيحيين تقسيمهم للعالم على أنّه متكون من رومانيين نبلاء وعبدة أوثان همجيين[1].

وإننا لنلحظ إنصاف هذا المفكّر الفريد والمميّز للأجناس الأخرى فوق الأرض وموضوعيته عندما عالج هذه النقطة، فلم يتوان في قول الحقيقة بل وتحليلها بمختلف الأدلّة والبراهين الواقعية المستمدّة من تفاصيل أبحاثه ودراساته التاريخية، إذ يقول: «**لقد أثبت المسلمون ترفّعهم عن الأخذ بالعرق كعامل للاصطفاء و الدليل الأكثر إقناعا على ذلك منحهم بناتهم للزواج من المسلمين من لون أسود**»[2].

ويواصل في عرض أدّلته إلى أنّ هناك أجناسا بيضاء، غير أنّها لم تساهم في بناء الحضارة الإنسانية أو رفضت الحضارات المقبلة عليها، من ذلك الحضارة الغربية وهو بهذا يضرب عرض الحائط كل النظريات القائلة بتفوّق العرق الأبيض. يقول:« **نستطيع أن نقول أنّ الجنس الأبيض قد ساهم في بناء جزء من الحضارة، ذلك أنّ السكان الأصليين لشمال إفريقيا الغربي، وهم من البيض ذووا العيون الزرقاء والذين يقطنون إقليم الريف والأطلس ومنطقة القبائل، قاوموا عبر حقب مختلفة من الزمن كل الحضارات المقبلة عليهم**»[3]، فتمسّكوا بحياتهم البسيطة التي ما تزال معالمها قائمة في هذه الأقاليم إلى حد الساعة، ويمكن ملاحظتها في الجزائر وكذلك بالمغرب الأقصى.

وإضافة إلى هؤلاء هناك أمثلة أخرى عن أجناس أخرى بيضاء كالتي تقطن جبال ألبانيا والقوقاز في أواسط آسيا، وهي كذلك ممّن نجحت في التهرّب من عمليات التحضّر والانفتاح على العالم التي مرّت بها. و لعلّ أروع مثال يمكن ذكره في هذا الصدد هم برابرة أوروبا والسكان الجبليين في شمال بريطانيا، والذين لم يرفضوا الحضارة فحسب إنما حاربوها بمنتهى الشراسة[4].

وإن كان الجنس الأسود لم يسهم لحد الآن بصورة محسوسة في بناء الحضارة، فربما يكون سبب هذا العجز هو أنّه لم تتح له الفرصة بعد[5].

إذا حتى ولو كان الجنس الأبيض له نصيب أكبر في بناء الحضارة، بحكم درجة التطوّر التي وصلت إليها الحضارة الغربية اليوم من اكتساح لأجواء الفضاء ومحاولة الاستيطان به وما إلى ذلك، إلا أنّ هناك شعوبا كثيرة بيضاء لم تساهم كما رأينا في بناء الحضارة، «**مثلها في ذلك مثل السود سواء بسواء**»[6]. وأنّ الحضارة الإنسانية هي نتاج مساهمات كل الأجناس على الأرض ولا يسيء ذلك إن كانت هذه المساهمات

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ترجمة: رمزي جرجس، المكتبة الأنجلو مصرية، مصر، ط1، 1963، ص، 271.

2- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 88.

3- Id.

4- Id. 89.

5- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص ص، 18-19.

6- مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، ص، 339.

بنسب متفاوتة، «**وهذا يعني أنّه ليس هناك ما يبرّر تلك النظرية القائلة، بأنّ جنسا ما هو الذي سبّب الانتقال من البدائية إلى الحضارة أو نقل العالم من الثبات إلى الحركة الدافعة، في جزء بعد الآخر من أجزاء العالم منذ زمن يرجع إلى ستة آلاف سنة**»[1].

ويشيد توينبي في كتابه **Afrique arabe, Afrique noire** بالحس الحضاري والوعي المدني و إنسانية النيجيريين من الأفارقة (العرق الأسود) الذين نجحوا في إذابة كل ما من شأنه أن يفرّق بين عرقهم و العرق الأبيض الآتي للعمل في بلادهم. فهذه الحواجز التي وضعها التاريخ تسقط أمام الوحدة والتضامن الذين صنعهما هؤلاء الأفارقة مع الأجانب في بلادهم. وإنّ المقولة العنصرية «حقوق متساوية لكل البشر المتحضّرين» Droits égaux pour tous les hommes civilisés، والتي تعني أنّه لا حقوق للأميين والفلاحين وغيرهم من الأفارقة الذين صنّفوا على أنهم غير متحضّرين. هذه المقولة المدانة التي طبّقتها الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا، قد تفطن النيجيريون على أنها تمثل مستقبلا أسودا للبلاد، فلا بديل إذا عن التضامن الإنساني الذي تظهر سماته خاصة في اختلاطهم بالأوروبيين والسعي لإقامة علاقات أسرية معهم، أين يكون الرجل نيجيريا والمرأة أوروبية. إنّ هذا التوحّد هو بشرى رقي للمجتمع النيجيري أولا وللإنسانية والجنس البشري ومن ثم الحضارة ثانيا. فهذا شاهد على أنّ الإنسانية تصبو لأن تصبح أسرة واحدة وبالتالي حضارة قوية تنصهر بداخلها كل الاختلافات العرقية.[2]

وتدعم "آمنة تشيكو" توينبي في منحاه إذ تقول: «**إنّ القضية العرقية شديدة الغموض في رأي توينبي، وما زعمه الأنتولوجيون بشأنها لا يصح الوثوق به وهي لذلك الأولى بالبند كعامل فعال ودافع حيوي في عملية النشوء الحضاري**»[3].

من كل هذا نخلص مع توينبي أنّه لا يمكن أن يرجع قيام الحضارة إلى صفات وخصائص معيّنة لجنس مبجّل على الأجناس الأخرى، فجميع الأجناس على الأرض ساهمت في بناء الحضارة.

وبذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال إرجاع التفوّق الروحي والذهني إلى لون البشرة، ولقد أشار الإسلام إلى هذا بقوله صلى الله عليه وسلم: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى**»[4]، صدق رسول الله. وتوينبي بهذا ينتقد فكرة أنّ عرقا مبجّلا هو وحده باني الحضارة، كذلك يبيّن – فيما سيلي تقديمه- إخفاق نظرية البيئة السهلة في تفسير نشوء الحضارة.

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- TOYNBEE (Arnold), Afrique arabe, Afrique noire, Traduit de l'anglais par Yves THOROLA, Paris, Sindbad, 1972, p. 37.

3- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 73.

4- رواه البخاري.

ثانيا: فكرة البـــيئة La cause de la genèse, le milieu

إنّ البيئة أولا هي بيئة جغرافية واجتماعية، تمثّل فالأولى مجموعة الصفات الطبيعية التي تميز وسطا معيّنا، والتي تؤثر على حياة الأفراد وأما الثانية فهي المحيط المتكون من الأفراد الذين يمثّلون هم بذاتهم المجتمع[1]، و يهمّنا منهما الأولى، أي أنّ الظروف الطبيعية المحيطة بالإنسان لها من التأثير ما من شأنه أن يجعلنا نضعها في مقدّمة الظروف المهيأة لميلاد الحضارة.

فمثلما أثبت توينبي خطأ نظرية العرق أو الأجناس في مبدأ الحضارات، رفض كذلك البيئة كمؤثر أوحد لتكوين الحضارة، ودلّل على ذلك بأمثلة واضحة: **«إنّ اليونان الذين زاروا مصر الفرعونية، أثناء قيام الحضارة الهلينية من التاريخ اليوناني، انبهروا بدرجة تطوّر الحضارة المصرية، فضلّت في أعينهم مميّزة»**[2].

وبرهن توينبي على ذلك بموقف "هيرودوت" Hérodote **(425- 484 ق.م)** منها، يقول توينبي: **« يرجع هيرودوت مميّزات الثقافة المصرية إلى العوامل البيئية التي نشأت بها هذه الثقافة: "المناخ الذي يعيش فيه المصريون غير مناخنا، كذلك طبيعة نهرهم فريدة، وهذا ما يفسّر كيف وجد المصريون لأنفسهم طرق عيش وميزات حضارية انفردوا بها على باقي الإنسانية "»**[3].

ويضيف عن قوة هذه الحضارة أنّه عندما انهارت الدولة الحديثة على هذه الأرض في القرن الحادي عشر قبل الميلاد وتبعثرت أشلاءا، ظلت الحضارة المصرية حيّة قائمة جنوب "أسوان" كما في شمالها أيضا.[4]

ويضيف توينبي إلى بيئة دلتا النيل، بيئة أخرى أين تتكرّر قوة العامل البيئي في بناء الحضارة، إنّها الحوض السفلي لنهري دجلة والفرات، يقول: **«نجد أنّ العوامل الفيزيائية في مثل هذه المناطق، هي نفسها الموجودة على أرض مصر، إنّها نفس الصحراء، نفس المناخ، نفس الموارد المائية الآتية من أكبر الأنهار، التي تتغذى من أعلى الجبال الثلجية ومن الأمطار الغزيرة»**[5].

فبيئة الحضارتان المصرية وحضارة بلاد الرافدين قريبتان، فقد قامت مصر بدور قيادي في التاريخ منذ فجر الحضارة الإنسانية وإن لم تكن أوّل موطن ظهرت فيه حضارة الإنسان فمن دون شك أنها الموطن الثاني بعد بلاد الرافدين التي لم تسبقها إلا ببضع قرون [6].

1- Le Petit LAROUSSE Illustré, p. 690.
2- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 92.
3- Id.
4– آرنولد توينبي؛ الوحدة العربية آتية ! من النيل إلى النيجر، ترجمة: عمر الديراوي أبو حجلة، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1979، ص، 40.
5- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 92.
6- آرنولد توينبي؛ الوحدة العربية آتية ! من النيل إلى النيجر، ص، 15.

هنا يربط توينبي بين البيئتين فيقول: «**في مثل هذه البيئة نشأت حضارة تشبه الحضارة المصرية**»[1]، في تطوّرها وتميّزها. فللموقع الجغرافي وما جادت به الطبيعة دور كبير في قيام الحضارة ذلك أنّ المدن الهلينية مثلا الواقعة على طول الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى لعبت وحدها الدور الرئيسي في الحياة الهلينية حتى القرن السادس قبل الميلاد[2]، ويرجع الفضل إذا حسب توينبي لموقعها الجغرافي الاستراتيجي.

غير أنّ المعادلة تنهار بمجرّد ما ندير رؤوسنا إلى الجزء المقابل من الكرة الأرضية، حيث توجد مناطق تتوفّر بها الظروف البيئية الملائمة ولكن لم تقم بها أي حضارة إنسانية، أو لم تعرف أي شكل من أشكال التحضّر الإنساني، ويثبت توينبي ذلك بقوله: «**إنّ الظروف البيئية بوادي النيل ودجلة والفرات هي نفسها بوادي ريو غراند Rio Grande وكلورادو Colorado**(*) **في جنوب شرق الولايات المتحدة الأمريكية**»[3].

والتي استوطنت اليوم من طرف المعمّرين الأوروبيين، مسلّحين بوسائل الحضارة التي أتوا بها من الجزء الآخر من العالم، فهذه الأنهار الأمريكية توفّرت بها نفس الظروف التي توفّرت بالنيل ودجلة والفرات، لكن قوتهما السحرية لم يعطها ريو غراند وكلورادو للشعوب التي استقرت هناك منذ عهود سحيقة تعود إلى القرون الأولى من عمر الكائن البشري على سطح الأرض[4]. فضلّت الحياة في هذه المناطق بدائية.

هكذا يخلص توينبي إلى أنّ بيئة ما قد روّضت من طرف إنسان، فنشأت على أرضها حضارة عظمية، في حين نفس البيئة وبنفس المعطيات لم تنشأ فيها أي حضارة، فبعض الحضارات تستجيب إذا لتحدّيات لا تستجيب حضارات أخرى لها.

ويوافق "مصطفى النشار" توينبي، أنّه من الخطأ الاعتقاد بأنّ البيئة السهلة هي التي تنبثق عنها الحضارة، يقول: «**فإن كانت بعض الحضارات كالحضارة المصرية وحضارة وادي دجلة والفرات قد نشأت في وديان الأنهار، فإنّ هناك الكثير من مناطق العالم تتماثل في مناخها وفي ظروفها البيئية مع هاتين المنطقتين، ولكن لم نرى فيها حضارات، فوادي الأردن مثلا لم يكن يوما مركز لأية حضارة وكذلك وادي السند**»[5].

ومتى ثبت ذلك برأيه لا يمكن اعتبار البيئة هي العامل الايجابي الذي جلب الحضارات النهرية إلى الوجود.

ويؤكّد أكثر "أحمد محمود صبحي":«**فإذا كان نهر النيل علّة الحضارة المصرية القديمة فإنّه يجب أن تنشأ الحضارات في بيئات من الطراز النيلي، وإذا كانت حضارة ما بين النهرين تؤكّد ذلك فإنّ عدم**

1- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 92.

2– آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، **22**.

(*) ريو غراند وكلورادو أنهار كبيرة في الجزء العلوي من القارة الأمريكية.

3- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 92.

4- Id.

5 - مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، ص، **340**.

قيام حضارة في وادي الأردن يدحضها»[1].

إذا ممّا نلاحظه هنا اهتمام الباحثين، غربيين كانوا أم شرقيين، بالحديث أكثر عن حضارات الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا باعتبارها أولى مناطق التمدّن في العالم ومهد الحضارات الأولى، وباعتبارها كذلك مهبط الأديان السماوية.

وتذهب "آمنة تشيكو" كما بالنسبة لنظرية الجنس، في أنّه لا يمكن الأخذ كذلك بنظرية البيئة موافقة بذلك توينبي، لأنّ «**أصحابها يرون أنّ سرّ الاختلاف بين المجتمعات يكمن في الموقع الجغرافي والتربة والمناخ، وحجّتهم في ذلك، هي قيام حضارتين أو ثلاث (المصرية القديمة، السومرية، وحضارة السند) بصورة مستقلّة في بيئات متماثلة جغرافيا**»[2]. فهذا توضّيح على أنّ نشوء حضارات بهذا الشكل لا يصح اتخاذه قاعدة بل حالة شاده لا يمكن القياس عليها.

فالخلاصة الثانية إذا، أنّه لا يمكن اعتبار الظروف البيئية هي العامل الايجابي في ميلاد أو نشوء الحضارات، ولو أنّه عامل على قدر كبير من الأهمية.

إذ يعتبر توينبي أنّ الظروف الصعبة لا السهلة هي التي تستحث الإنسان على التحضّر، وإنّ رقّة العيش حائل دون قيام الحضارة وهي ما يطلق عليها Difficulté de l'excellence [3]، فالشدائد هي وحدها التي تستثير الهمم وهي وحدها بانية الحضارة، وهو ما سيبيّنه العنصر الموالي.

1- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 269.

2- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 73.

3- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 107.

ثـــالثا: التحدّي و الاستجابة **Défi et réponse**

يفيدنا تاريخ الحضارات في تبيان نوع من النشاط كان يقوم به الإنسان كلما جابهته صعوبات وعقبات تحتم عليه مواجهتها ومحاولة السيطرة عليها بكل ما كان يملك حتى ولو دفع حياته ثمنا لذلك، فقد استثارته للقيام بعمل وبذل جهود لم يسبق له وأن قام بها.

لقد كانت تلك الظروف القاسية **تحديا** وكانت ردود أفعاله **استجابة** لتلك التحدّيات، هذه هي العوامل النفسية المتسببة في ميلاد الحضارة وقد اعتمد توينبي عليها لتوضيح عملية النشوء الحضاري إذ يقول: « **إنّني أصف العلاقات بين الأفراد كتحدّيات تستوجب استجابات**»[1]، «**حيث تتّحد الشواهد على ما كان للتحدّيات من أثر فعال في شتّى مناحي الإبداع و التكامل**»[2]، ويضيف توينبي:« **إنّني أستلهم ما قاله أفلاطون: سأغمض عيناي عن قواعد العلوم لأترك لأداني متعة سماع حكايا الميثولوجيا**»[3].

حيث بدأ توينبي بعرض فكرته في التحدّي والاستجابة بالاعتماد على قصص الكتاب المقدّس، الذي يحوي أولى قصص التحدّي، ففي "سفر التكوين" يشكّل تحدّي الحيّة للرّب الإله العقدة في قصة سقوط الإنسان الأوّل وجهاده على الأرض وهو ما يؤكّده بقوله: «**إنّ لقاء الشياطين بالآلهـــة يشكّل كما نعرف حبكة أحد أكبر الأساطير أو قصص الدراما... اللقاء بين يهـــوه Yahvé والحيّة يشكّل نسيج قصـــة سقوط الإنسان**»[4].

وقبل أن نورد ما ذكر في الكتاب المقدّس في هذا الشأن، نتساءل عن غرابة اعتقاد توينبي وهو مسيحي الدين، بأنّ القصص الموجودة أو التي ذكرها الكتاب المقدّس هي أساطير، لكن من دون البحث وراء كنه هذه الأساطير وإذا ما اعتلاها تحريف ما. في حين أنّ الباحثين من المسلمين عبر بقاع العالم، إذا ما استدلّوا من القرآن الكريم، فإنّهم يقدّمون أدلّتهم منه على أنّها عين الحقيقة وليس حكايات ميثولوجيا الحضارات القديمة.

يذكر الكتاب المقدّس في هذا الشأن:«**وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرّية... فقالت للمرأة أحقّا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحيّة من ثمر الجنة نأكل وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه... فقالت الحيّة للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير و الشر**»[5]. هكذا تحدّت الحيّة الإله وتسبّبت في إخراج آدم من الجنّـــة، « **فقال الرّب الإله للحيّة لأنّك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم... وقال لآدم... ملعونة الأرض**

1- Op. cit. 93.

2- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 74.

3- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 93.

4- Id.

5- تك؛ 3/ 1-5

بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك... بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنّك تراب وإلى تراب تعود»[1].

وفي سفر أيّوب، يكون تحدّي الشيطان للإله العقدة في قصة الرجل الكامل المستقيم، يذكر الكتاب:

«كان رجل في أرض عوص اسمه أيّوب وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما يتّقى الله ويحيد عن الشر... فقال الرّب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيّوب... فأجاب الشيطان الرّب وقال: هل مجانا يتّقي أيّوب الله أليس أنّك سيّجت حوله وحول بيته وحول كل ماله من كل ناحية... ولكن أبسط يدك الآن ومسّ كلّ ماله فإنّه في وجهك يجدّف»[2].

لكنّ أيوبا – عليه السلام- قد خرج من تحدّي المحنة التي مرّ بها باستجابة ناجحة، وهذا يعني إخفاق الشيطان في محاولته لتحدّي الإله.

يقول توينبي في هذا الشأن: **«إنّ الدافع الحافز الذي يمكّن من تخطّي الوضعية الراكدة "الين" إلى نشاط جديد "اليانغ" يأتي من تطفّل الشيطان في الكون الإلهي»**[3].

نلاحظ إذا أنّ غرض توينبي من ذكر هذه القصص من الكتاب المقدّس، هو تبيان الأهمية الكبيرة التي يعزوها لفكرة التحدّي والاستجابة. وهي محاولة منه لإثبات صحّتها قصد الرجوع أولا للنص المقدّس والمتمثل في الإنجيل، ليخوض بعدها في شرح فكرته.

يرى توينبي أنّ تاريخ البشر والمجتمعات المتوالي يمكّننا من أن نلمس في كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ الحاشد عددا من ممثلي النوع الذي يعرضه هذا التاريخ، وهم يواجهون عواقبا قد لا تطاق في بعض الحالات مما يتوجّب الشعور المر بمحنة عصيبة، تفرض عليه ضرورة الاستجابة وإلا قد تعصف تلك المحنة المتحدّية به.

فهناك من المجتمعات من فشلت في الرد باستجابة ناجحة وهناك من تمكنت من تخطي المحنة. وهكذا عند كل تحدّي جديد وأمثلة ذلك من التاريخ كثيرة[4].

فقد **«حاول توينبي أن يتحقّق من صدق القول بأنّ فكرة التحدّي والاستجابة، أوفر حظا في**

1- تك؛ 3/ 14- 19.

2- أيّوب؛ 1/ 1- 11.

3-TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 97.

4- Id, p. 93.

الاتفاق مع العامل الذي يبحث عنه من نظريتي الجنس والبيئة»[1].

وتؤكّد بذلك "آمنة تشيكو" أنّ الدافع الحيوي إلى نشوء الحضارات هو صراع السلالات البشرية المستوطنة مع عوامل التحدّي الجغرافية، أمّا بالنسبة للحضارات التي تنتسب لغيرها، فلا بد من أنّ التحدّي الذي أخرجها للوجود تمثّل في العامل البشري بالدرجة الأولى، أي من الأقليات المسيطرة على المجتمعات.

يقول توينبي: «**إنّ هذه الأقلّية من الشعب، كانت متحرّرة من كل الأعمال الاقتصادية، الصناعية، والتجارية، إذ كانت تسيّر الحكم من الأعلى، وأصحابها من العسكريين والإداريين ورجال الدين**»[2]

ومعنى ذلك هو تواجد هذه الأقلّية المبدعة Minorité créatrice في مقدّمة طبقات المجتمع الأخرى كما يحلو للبعض القول، وإنّ دورها يتمثّل في تشكيل الدول العالمية Etats universels – التي سيأتي بيانها في الفصل الثاني من هذه المذكّرة – بينما ينبثق عن البروليتاريا الداخلية Prolétariats intérieurs، أي البنى التحتية لهذا المجتمع والمتمثّلة في عامة الناس، دين عالمي.

وتنبثق عن البروليتاريا الخارجية Prolétariats extérieurs أي جملة الشعوب المحيطة أو المجاورة لهذه الحضارة، عصابات بربرية. فتستجيب هذه البروليتاريات- الداخلية والخارجية – لتحدّي الأقلّية المسيطرة المضطهدة للشعب، وينتج عن هذه الاستجابة تولّد حضارة جديدة تقوم مقام الحضارة الماضية.

أي أنّ هذه النخبة الخلاّقة هي وحدها القادرة على التحدّي، فإذا ما نجحت بقيت الحضارة قائمة وإذا ما فشلت انهارت الحضارة لتقوم مقامها أخرى. إنّها تتألّف برأي توينبي من باعثي الديانات ومن تلاميذهم، ومن الشعراء والعلماء والفنانين ورجال السياسة والحرب وغيرهم[3].

وهذا ما يتناقض وحقيقة باعثي الديانات الذين ولدوا من رحم الطبقات الشعبية العامة، ألم يولد السيّد المسيح– كباعث ديانة – في طبقة شعبية كان يحكمها الرومان، أيام هيمنة الإمبراطورية الرومانية على الشام، وألم يولد محمّد صلى الله عليه وسلم من الطبقة المتوسطة، لا من الطبقات الحاكمة وكذلك هو الحال بالنسبة لكثير من الشعراء والعلماء والفلاسفة، فهذه الحقائق التاريخية تتناقض مع ما ذهب إليه توينبي عند إصدار حكمه.

ويرى " مالك ابن نبي" أنّ المجتمع يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن له الاستمرارية، وتحفظ بذلك شخصيته ودوره عبر التاريخ. «**و هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي**»[4]،

1- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 74.

2– TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 42.

3-جورج حنا؛ الحقيقة الحضارية، ص، 19.

4- مالك ابن نبي؛ ميلاد مجتمع، سلسلة مشكلات الحضارة، الجزء الأول: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، مطبعة الجهاد، ط1، 1962، ص، 12.

أي أنّه الدافع للإنتاج وبالتالي المجسّد للحضارة وإنّ ما يختلف فيه "مالك ابن نبي" مع توينبي في هذه النقطة، هو مشاركة كل المجتمع في هذه العملية على غرار ما ذهب إليه توينبي في أنّ أقلية مسيطرة على الكل هي وحدها النخبة الخلاّقة.

ويوضّح أكثر "مالك ابن نبي" أنّ هذه الشبكة من العلاقات الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم تقوم بتوجيه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه عمل مشترك «**فتكوّن هذه الشبكة ولو في مرحلة ابتدائية، هو الذي يعبّر عن حدث ميلاد مجتمع في التاريخ**»[1]، وبالتالي وضع حلقة جديدة من حلقات الحضارة الإنسانية.

ويوافق "أحمد محمود صبحي" توينبي على أهمية هدا العامل النفسي: التحدّي والاستجابة، وعلاقة هذين العنصرين ببعضهما ويرى أنّها تتخذ إحدى صور ثلاث:

- إنّ قصور التحدّي يجعل الطرف الآخر عاجزا تماما عن الاستجابة الناجحة فهو إذا فاشل.
- أن يحطّم التحدّي البالغ الشدّة روح الطرف الآخر.
- أن يصل التحدّي إلى درجة معقولة تستثير الطاقات المبدعة[2].

فهذه الثالثة هي الاستجابة الناجحة، ولا يتوقف الأمر هنا فتعود الدورة ويخلق تحدّ جديد، ممّا يستثير استجابة أخرى، وهذا معناه الدخول في صراع في حالة من "الين"و"اليانغ"، أي حالة الركود والحركة. «**حتى يصبح الفعل وردّ الفعل إيقاعا منتظما، يحمل كل طرف على محاولة لترجيح كفة ميزانه لا الوقوف بها عند حالة التوازن**»[3].

وهذا ما قصده توينبي بقوله: «**الانتقال من السلبية إلى الايجابية من الثبات إلى الحركة، من الهدوء إلى العاصفة، من الإيقاع إلى تنافر النغمة، من الين إلى اليانغ**»[4]، باستمرار.

ويضيف "تشارلز فرانكل"، أنّ النمط الشامل الذي يتحكّم في ولادة الحضارات وحياتها هو نمط التحدّي والاستجابة، «**فمتى كان التحدّي سهلا يقابله القوم ثم يضطجعون له ويعودون إلى النوم... ولكن متى جاء التحدّي بالقدر الصحيح، فإنّه يثير النشاط الذي يدفع بالناس بالقدر الذي يمنعهم من العودة إلى سباتهم البدائي**»[5]. هكذا تظهر إذا فكرة "التحدّي والاستجابة" عند توينبي، فالحضارة تنمو مادام الأفراد واقفون على مقاومة التحدّيات باستجابات مستمرّة، فهي في طور النشوء، «**تأخذ تخلق لنفسها تحدّياتها الخاصة بها، وتصبح تدريجيا أكثر تقريرا لمصيرها وأوضح تمييزا عن غيرها، وأقدر على أن تكون مصدرا**

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص ص، 270-271.

3- المرجع نفسه؛ ص، 271 .

4 - TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 101.

5- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 177.

لأسلوب فريد وقوة دفع وتوجيه تفرضها هي على نفسها، فتكون ذات تماسك و وحدة داخليتين»[1].

وحسب "كولن ولسون" Colin Wilson تتلخّص نظرية توينبي في التحدّي والرجع – على حد تعبيره - **«في إنكاره للاصطفاء الطبيعي الداروينيي»**[2]. إذ يرى أنّ توينبي لا يعتقد بأنّ البشر يزدهرون في أسهل الظروف وإنّما هم على العكس من ذلك يزدهرون في الظروف التي تتحداهم أشد تحدّي، أي في الظروف القاسية **«و كلّما ازداد التحدّي صار البشر الذين يواجهونه أشدّ عظمة»**[3].

ويورد "كولن ولسون" عددا من الأمثلة ذكرها توينبي ليبهرن على أنّ أشدّ الظروف خطورة هي التي تنتج أعظم البشر نتيجة استجابتهم لتحدّياتها، مثال ذلك **«روما وكابوا والنهر الأصفر واليانغستي واتيكا و بيوشيا وبيزنطة وكالكدون وغيرها»**[4]، فكلّها برأي "ولسون" تقدّم لنا دليلا على ذلك التضاد.

إنّ الناس الذين تنبسّط لهم الظروف السهلة تجدهم ضعافا بينما أولئك الذين يكابدون في الظروف الصعبة تجدهم هم الأقوياء، يقول توينبي: **«نجد في مناطق أخرى من العالم تتوفّر بها الظروف البيئية النموذجية نجدها استوطنت من طرف البدو الرّحل لقرون عديدة، إلا أنّهم لم يشيّدوا بها أي حضارة تذكر، حتى جاء المستوطنون الغربيون في العصر الحديث وطوّروها»**[5]، فإذا **«أرادت الحضارة أن تكون قوية روحيا و ثقافيا، فإنّها بحاجة إلى محيط قاس»**[6].

وهذا ما يدعم بوضوح رأي توينبي في دور الدين في بناء الحضارة، إذ أنّ القوة الروحية التي أشار إليها "ولسون" أقوى من كل القوى الأخرى، اقتصادية كانت أم سياسية أم جغرافية، كفيلة بأن تكون السبب القوي والرئيسي في بناء الحضارة.

ولعلّ أحسن مثال يمكن أن نقدّمه في هذا المجال، هو انبثاق الحضارة العربية الإسلامية من صحراء شبه الجزيرة العربية منذ حوالي خمس عشرة قرنا من الزمان، وما كان للإسلام كقوة روحية في قيام حضارة عربية إسلامية تحدّت ظروف الصحراء القاسية والظروف الاجتماعية الأقسى، والمتمثّلة في سيادة الديانة الوثنية وخرجت إلى العالم عبر الفتوحات الإسلامية.

فما كان لدين محمّد صلى الله عليه وسلم، من قوة روحية مستمدّة من السماء في نشر التعاليم السمحاء، لأحسن مثال يمكن أن نقابل به رأي توينبي في هذه النقطة، نقطة القوة الروحية وتحدّي الظروف الصعبة.

1- المرجع السابق؛ ص ص، 177-178.

2- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ترجمة: أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط4، 1987، ص، 149.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 91.

6- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 149.

ولهذا المثال كفيل- برأينا- بأن يجمع فكرتي توينبي في التقليل من دور البيئة ودور العرق في بناء الحضارة.

فبالنسبة لدور البيئة كان مهد الإسلام والحضارة الإسلامية أقصى بيئة على وجه الأرض ألا وهي الصحراء، وبالنسبة لدور العرق، فإنّ ديننا الحنيف نما وسط قبائل بدوية صحراوية عنها انبثقت الحضارة الإسلامية، وسط عرق عربي، يعبد "هبل" و"اللات" و"العزّى"، لم يبني قلاع مامفي Memphis وقرطاج Carthage ولا معابد زيوس Zeus الضخمة في اليونان، وإنّما كان يسكن الخيام ويعيش على تجارة القوافل. من هنا خرجت هذه القوة الروحية إلى العالم، من هنا نشأت الحضارة الإسلامية، وبفضل ذلك الرجل الأمي.

وهكذا نستطيع أن نؤكّد على الدور الكبير الذي تلعبه فكرة التحدّي والاستجابة، فالتحدّي يخلق بالضرورة استجابة ويكمن الإبداع والتغيير أو الثورة ها هنا. وللتأكيد منّا على صحة هذه النظرية ننظر إلى واقعنا اليوم بحلول الآلف الثالثة بعد الميلاد، وكمسلمين نستشهد بما قاله "هنتنغتون" عن تحدّي الإسلام الحالي للغرب الذي يتجلى في «**الصورة الثقافية والاجتماعية والسياسية العامة للإسلام في العالم الإسلامي، وما يصاحبه من رفض لقيم الغرب ومؤسّساته الاجتماعية**»[1].

وقد سمّى "هنتنغتون" هذا التحدّي **بالصحوة الإسلامية** Résurgence Islamique (*)، والعزم الكبير من الشعوب المسلمة على التمسّك بتعاليم الإسلام السمحاء، وعدم التواني في نشرها متحدّين بذلك غزو الثقافة الغربية للمجتمعات الإسلامية، يقول "هنتنغتون": «**هذه الصحوة الإسلامية باتساعها وعمقها، هي أحدث مرحلة في تكيّف الحضارة الإسلامية مع الغرب، والسعي لإيجاد حل ليس في الأيديولوجيات الغربية وإنّما في الإسلام، وهي تجّسد قبول الحداثة ورفض الثقافة الغربية، والعودة إلى الالتزام بالإسلام كدليل حياة في العالم الحديث**»[2]، والتي تعدّ الأصولية على حد تعبيره إحدى مكوّناتها.

ولكن ثمة هناك من ينتقد توينبي في التحدّي والاستجابة ويرى بأنّ هذه الفكرة أقرب لأن تكون متأتية عن كشوف البيولوجيا المعاصرة من أن تكون نتيجة مراقبة دراسة لحركة التاريخ، «**فاستجابة الأحياء لتحدّي البيئة الخارجية بتكيّف هذه الأحياء وفق متطلبات هذه البيئة، هي مقولة من مقولات علم البيولوجيا، سواء للجماعة أم للفرد**»[3].

1- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات ... إعادة صنع النظام العالمي، ص، 169.

(*) يوضّح هنتنغتون أنّه بدأ كلمتي الصحوة والإسلامية بحرفين كبيرين، Majuscules لأنّ العبارة تشير إلى حدث تاريخي بالغ الأهمية يؤثر على خمس البشرية أو يزيد. وأنّه لا يقل أهمية عن الثورة الأمريكية أو الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية، وهو حدث يشبه أو يماثل الإصلاح في المجتمع الأوروبي. انظر صموئيل هنتنغتون، المرجع السابق، هامش، ص، 180.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- يوسف الحوراني؛ الإنسان والحضارة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط2، 1973، ص، 207.

ويبيّن أكثر "يوسف الحوراني"بقوله: «**كما أنّ علم التشريح يؤكّد هذه الصفة في نشاط المقاومة الداخلية في جسم الكائن الحي عند حدوث أي شيء مهّدد من الخارج**»[1]، ويفسّر ذلك بأنّ توينبي استند إلى هذه الملاحظة العامة عندما اقتنع بنظريته وراح يعمّمها على حقل التاريخ.

نخلص للقول إذا أنّ عرض توينبي لفكرة التحدّي والاستجابة هو تبيان أهم عوامل انبعاث الحضارة كنقطة ثالثة بعد فكرة العرق وفكرة البيئة، ليدحض بها النظرتين السالفتي الذكر، وليثبت كيف يولّد التحدّي استجابة يكون بها منشأ الحضارة. ولو أنّه اعترف بدور البيئة ودور العامل البشري، ولكن اعترافه بقي نسبيا حتّى فسّر نشوء الحضارة في ضوء نظرية التحدّي والاستجابة.

ففي كل يقظة حضارية يوجد هناك نوع من الر فض يقف به أفراد المجتمع أمام ما يرفضه الواقع[2] وهذا هو معنى التحدّي والاستجابة. إذ أثبت توينبي أنّ الموقف القائل بأنّ الحضارات هي نتاج ظروف ملائمة هو موقف خاطئ، فالحضارة تنشأ على خير ما يمكن إلى حدّ تكون فيه صعبة فتستثير الهمم لمجابهتها فينتج عن ذلك بالتالي مقدار كبير من النشاط البشري عن طريق الاستجابة فيكون فعالا لدرجة يسجل بها ميلاد الحضارات لتسير في طريق الارتقاء.

وهذا ما سيتناوله العنصر الموالي.

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- العـــربي؛ مجلّـــة ثقـــافية مصـــوّرة، وزارة الإعلام، الكويت، العدد 583، يونيو 2007، ص، 10.

2-2- طبيعـــة الارتقـــاء الحضـــاري:

إذا ما استطاعت الاستجابة لتحد معيّن أن تكون ناجحة، فإنّها تؤدي إلى استثارة تحدّي جديد وهكذا تدخل في امتحان ثان، فإذا ما نجحت سميا هذا **ارتقاءا** حضاريا **croissance des civilisations** أي أنّ مجمل التحدّيات المعروضة تقابل في كل مرة باستجابات ناجحة، وهذا يعني أنّ هناك صعودا أو تقدّما أو تطلّعا مستمرا نحو الأمام، «**وهذا الارتقاء له مظاهره المختلفة الظاهرة والباطنة**»[1].

يقول توينبي: «**إنّ الارتقاء الحقيقي يكمن في التحوّل التدريجي للقوة في خروج الطاقة الكامنة، ففي الكون الأكبر Macrocosme، يتجلّى الارتقاء في السيطرة المتوالية على البيئة الخارجية، أمّا في حالة الكون الأصغر Microcosme، يعني الإنسان، يبدو الارتقاء في النجاح في تقرير المصير**»[2].

وترى "آمنة تشيكو" بأنّ التحدّي الأمثل ليس هو ذلك الذي يقتصر على استثارة الطرف المتحدّي لينجز استجابة ناجحة بمفردها، إنّما «**التحدّي الأمثل هو ما يشتمل على كمية الحركة التي تحمل الطرف المتحدّي أبعد من استجابة ناجحة بمفردها، تحمله من مرحلة استكمال الاستجابة إلى مرحلة صراع جديد**»[3].

أي المرور من المشكلة أو الأزمة الأولى التي حلّت إلى مواجهة جديدة، هذه هي العملية الديناميكية التي ترتقي بموجبها الحضارات.

لكن إذا تساءلنا هنا كيف بمقدورنا أن نقيس هذا الارتقاء ؟ «**هل يقاس وفقا لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟**»[4]، يرى توينبي أنّ ثمّة نوعان من السيطرة:

الأولى: سيطرة على البيئة المادية، تؤدي إلى ضرورة العمل والاجتهاد من أجل تحسين وتحصين الأسلوب التكنولوجي المادي، يقول: «**نجحت الحضارة الغربية في السيطرة على بيئتها المادية ولكنّ هذا النجاح التقني أدّى إلى خلق أزمات على مستوى العلاقات البشرية، وهذا ما أدّى في عصرنا الحالي إلى اتساع الهوة الاقتصادية خاصة وتباعد مستويات الحياة بين مختلف المجتمعات**»[5].

وليس هذا فحسب إنما يشير أيضا إلى أحد الأخطار النووية في قوله: «**فإما سيادة الإنسانية الواحدة و إما الموت جوعا أو تحت أنقاض القنبلة النووية**»[6]. وفي هذا إشارة واضحة إلى مدى زيف التفوّق الغربي المادي.

1- مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، ص، 354.

1- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 132.

3- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وآرنولدتوينبي، ص، 79.

4- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 134.

6- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، محاضرات، ترجمة: فؤاد زكريا، الدار القومية للطباعة والنشر، دط، 1964، ص، 12.

والثانية: سيطرة على البيئة البشرية.

حيث تتمثّل عادة في الإغارة على الشعوب المحيطة بغية توسيع مناطق النفوذ أو ما نعرفه اليوم بسياسة المجال الحيوي، ويقدّم لنا توينبي هنا مثالا عن الحضارة الهلينية إذ يقول:«**من أجل دفع خطر غزوات البرابرة المجاورين للحضارة الهلينية، عمد سكانها وساستها على غزو هؤلاء البرابرة لمرات عديدة، حتى يبدّدوا قوتهم ويأمّنوا من غزوهم... وبفضل هذا التفوّق العسكري والرغبة الجامحة في حماية الحضارة، استمرّت الحضارة الهلينية تبسط نفوذها للخمس أو ست قرون التالية، من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد حتى العشريات الأولى للقرن الثالث بعد الميلاد**»[1].

وهو ما يبيّنه كذلك في كتابه **تاريخ الحضارة الهلينية** بقوله: «**فما الذي يدعو الهلينيين لمواصلة حرب مدّمرة ضد بعضهم البعض إذا ما كان في استطاعتهم جمع كلمتهم لإخضاع واستغلال المجال الحيوي الشاسع الهائل الذي يقع إلى الشرق وإلى الجنوب منهم**»[2].

غير أنّ توينبي لا يعتبر مطلقا بالتوسّع الجغرافي والمجازفة في حروب لا أوّل ولا آخر لها معيارا مناسبا يكفل قياس الارتقاء الحقيقي للمجتمع، فالتمسّك بالنزعة الحربية في نظره، لدليل قوي لوصول المجتمع إلى درجة من التدهور، فما التوسّع الحربي إلا هروب من مشاكل المجتمع الداخلية أو احتياج لموارد عجز المجتمع عن توفيرها.

وأفضل مثال برهن به عن هذه الفكرة كان نزعة اسبرطة Sparte العسكرية المعروفة عبر التاريخ، و التي أدّت بها في آخر المطاف ورغم صمودها طويلا إلى الدمار. إذ لم تكسب اسبرطة و لم تجني من تلك النزعة العسكرية إلا عداء الشعوب التي كانت تغير عليها، ورغبتها الدائمة في تدميرها وهو ما يوضّحه بقوله: «**إنّ الدولة العسكرية لا تملك فرصة الحياة إلا إذا استمرّت حالة الحرب، بينما تركض نحو الموت في اللحظة التي تتوقّف فيها عن الغزو**»[3].

كذلك نستطيع أن نضيف عاملا ثالثا لم تتم الإشارة إليه من طرف الباحثين وهو الإخضاع السياسي، والذي يثبت توينبي كذلك أنّه غير مضمون، فمثلا يذكر في كتابه **العالم والغرب** كيف أنّ قوة هذه الحضارة انقلبت ضدها، يقول عن التاريخ البريطاني في الهند: «**وأقبل الهنود على التعليم السياسي الغربي، وكانت النتيجة أنّه حملهم على المطالبة للهند بالحكم الذاتي الذي تتمتع به بريطانيا العظمى**»[4]. كذلك لا تبدي التحسينات التكنولوجية، زراعية كانت أم صناعية، إلا تمويها يحول دون الارتقاء الحقيقي.

1- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 133.

2- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 132.

3- حرب وحضارة؛ ترجمة: غياث حجار، منشورات دار الاتحاد، بيروت، لبنان، دط، 1973، ص، 59.

4- العالم والغرب من الفكر السياسي والاشتراكي؛ ترجمة: روفائيل جرجس، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدّة، دط، دت، ص، 36.

وتضيف" آمنة تشيكو" «**إنّ ركيزة الارتقاء الحقيقي عند توينبي هي التسامي**»[1].

وتفسّر ذلك بأنّه النجاح في اجتياز كل العقبات أو الحواجز المادية خاصة، إذ يشغل التسامي مكانة مهمة لأنّه يلعب دورا أساسيا في بعث وتطوير القوى الكامنة في المجتمع لتستجيب تبعا لذلك للتحدّيات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس أكثر منها خارجها، ومعنى ذلك أنّها روحانية الطابع أعظم منها ماديته.

ونستطيع أن نتساءل هاهنا عن علاقة المجتمع بالفرد في ظل عملية الارتقاء، والتي وضحت "آمنة تشيكو" أنّ التسامي حلقة مهمة من حلقاتها ؟ فنجد– حسب الباحثين- وجهتي نظر مختلفتين:

الأولى: تنظر إلى المجتمع على أنّه مستودع كم هائل من الأفراد.

أما **الثانية:** فتنظر إليه على أنّه كائن حي والأفراد الذين يعيشون بداخله ما هم إلا أجزاء صغيرة منه، مكوّنة له. ونستشف من دراسة الباحثة، أنّ توينبي لا يتّفق مع كلا النظرتين، «**فالمجتمع عنده نظام للعلاقات بين الأفراد، ولا يتأتّى للكائنات البشرية أن تحقّق وجودها الحقيقي إلا مع رفاقها وهنا يكون المجتمع ميدانا للعمل لعدد من الكائنات البشرية**»[2].

وتوضّح الباحثة أنّ الأفراد هم مصدر الفعل وذلك لأنّ جميع أسباب الارتقاء تنبعث عن عباقرة أو أقليات عبقرية فيقومون:

- بتحقيق طموحاتهم وكشفهم عنها.
- وهداية المجتمع الذي ينتمون إليه إلى سبيل الحياة الجديدة، ويأتي هذا بحدوث هذه الهداية بطريقة أو بأخرى. إمّا بتعريض الجميع للتجربة الواقعية، التي حوّلت الأفراد إلى مبدعين أو تقليد الناس لمظاهر هذا الإبداع عن طريق المحاكاة. وتعتبر الحل الثاني هو مجال الاختيار الوحيد المفتوح أمام جميع الأفراد ما عدا أقلية بسيطة وأنّ المحاكاة طريق مختصر في وسع جميع العامة أن تسلكه.

ونرى هنا أنّ مظهر الارتقاء، يكمن في أنّ هنالك عناصرا تنجح في استجاباتها للتحدّيات القائمة و عناصرا أخرى تتّبع خطاها بفضل المحاكاة، في حين تفشل ثالثة.

فالارتقاء الحقيقي للحضارة إذا، تتقدّم به نخبة مبدعة تتمثّل في جماعة صغيرة أو حتى فردا أو فردين من أفراد المجتمع، «**من عامة البروليتاريا التي يقف دورها عند مجرّد الاقتداء**»[3].

ويوضّح أكثر "محمود صبحي" هذه النقطة بالاستشهاد بقول "برغسون" Bergson **(1859-1941)** في هذا الشأن، إذ يرى بأنّ التقدّم الحضاري يحدث أثناء فترة معيّنة من تاريخ المجتمع، حيث يكون مستعدا لأداء دور ما في تاريخ الإنسانية، أي دور حضاري «**ولكنّ هذا الدور يقوم به عادة فرد إذ في**

1- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وآرنولدتوينبي، ص، 80 .

2- المرجع نفسه؛ ص، 81.

3- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 283.

وسع هؤلاء الأفراد وحدهم أن يحقّقوا المعجزات»[1]. فهؤلاء أشخاص ذووا ميزات نادرة، قادرين بعبقريتهم أن يجدوا حلا لكل الأزمات التي من الممكن أن يتخبط فيها مجتمعهم ذلك أنّ «**أي عمل إبداعي أصيل يتميّز بالتفرّد»**[2].

ويرى "محمود صبحي" أنّ الإبداع العلمي أو الثقافي أو الفني أو الاقتصادي أو السياسي أو الرياضي أو الديني... ينجم عادة عن أعمال عباقرة أو مجموعات صغيرة، أمّا البقية الباقية من الشعب فلا تقدّم تقريبا أي إبداع من هذا النوع، ويقتصر دورها بهذا على الاستهلاك المستمر. وبالتالي تبقى دائما سجينة التبعية للنخبة من المجتمع، وتحت تصرّفها. يقول: «**إنّ جمهرة البروليتاريا تظل في جوهرها في مستوى أخلاقي بقرب من البدائية قبل أن تنفجر تلك الطاقات الهائلة على أيدي العباقرة»**[3]، فترتقي بذلك البروليتاريا وبارتقائها ترتقي الحضارة، لأنّها تكون قد اتّبعت الاستنارة الواردة من هؤلاء فخطت بذلك خطوة نحو التقدّم «**و يتّصف فعل الفرد المبدع بأنّه حركة مزدوجة قوامها الانسحاب والعودة»**[4].

الانسحاب أو الاعتزال والاعتكاف، بحيث ينفصل الفرد عن المجتمع بحثا عن استنارة روحية فردية.

ثم **العودة**، بحيث يخرج لمجتمعه مقدّما له خلاصة تجربته الانعزالية وما تنطوي عليه من جديد لهذا المجتمع. يقول توينبي: «**إنّ الأشخاص الذين يقومون بهذه الخدمة للمجتمع والذين هم بهذا يحقّقون ارتقاء مجتمعاتهم، هم أشخاص فوق عاديين Surhumains لما وصلوا إليه من أعلى درجات التحكّم في الذات، إنها أنفس اكتشفت طريق الوثوب الحيوي Elan Vital»**[5]. أي تلك الطاقة الكامنة لدى الفرد أو لدى المجتمع و الكفيلة بأن تدفعه لتحقيق كيانه، وأيضا لأنّ هؤلاء الأفراد قد حوّلوا بصائرهم عن الأشياء الدنيا المحيطة بهم ليرفعوها إلى ذلك الضياء الساطع الموضوع كمشعل أزلي لإنارة الكون[6].

ويوضّح توينبي أنّ هذا المبدع يمكن أن يكون رجل دين كالسيّد المسيح أو بوذا Bouddha أو زعيما سياسيا كلينين Lénine أو غاندي Gandhi[7].

1- نقلا عن المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وآرنولدتوينبي، ص، **81**.

5- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 135.

6- باسكال بليز؛ خواطر، مجموعة الروائع الإنسانية، ترجمة: ادوار البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، لبنان، دط، **1972**، ص، **27**.

7- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 135.

وقد ذكر توينبي كذلك قدّسيين وأنبياء آخرين منهم محمّد صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: «**كان لعبقرية النبي "محمّد" أثر كبير في نقل رسالة ربّه إلى قومه... وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الانفجار، وجاءت رسالة "محمّد" في الوقت المناسب، إذ تلقّى هذه الشحنة فأحسن استعمالها برؤيته النيّرة وبتصميمه وحكمته**»[1].

إذ كان رسول الإسلام يبيّن "موسى معيرش" مثال الأمانة، ما جعل الناس بذلك يلقّبونه بالصادق الأمين، وفي هذا دليل على صدق نبوته وأمانته في تأدية رسالته [2]. ودليل إذا الاستنارة التي حضي بها.

وحتى لو لم يكن هؤلاء الأفراد أنبياءا فهم مفكرون وفلاسفة، حيث يذكر أطلس الفلسفة أنّ الفلاسفة اليونان وإن لم يصلهم الوحي، إنما كانوا يقعون تحت تأثير النور الإلهي، خاصة عندما بحثوا عن سبيل المثال، عن سبب أوّل العالم[3].

كذلك يرى آخرون أنّه «**بعد القيام بانسحاب مؤقّت من الدنيوي بغية التركيز على الروحي، توجد عودة تهدف إلى تغيير مظهره بوصفه نقيض للمحاولات التي تبدل للفرار منه فرارا أبديا**»[4].

ويضيف "كولن ولسون" أنّ «**هؤلاء الأفراد المبدعين القلائل ينسحبون من المجتمع ويغرقون في الوحدة ليصارعوا المشاكل وحدهم، وتزداد في هذه الوحدة طاقاتهم ومدركاتهم**»[5]، حيث تكون بمثابة مرحلة بناء، فإذا ظهروا بعد ذلك فإنّهم يكونون مزوّدين بالقوة اللازمة على تحريض بقية أفراد المجتمع لمجابهة التحدّي، «**إنّ الحياة الروحية عند توينبي هي المحك الحقيقي لرقي المجتمعات**»[6].

وهذا ما قد ذهب إليه من قبل القدّيس "أوغسطين" عندما رأى بأنّ الدافع الحقيقي لرقي المجتمع هو تواجد شخص تتوفر فيه الاستنارة الروحية فيتدرج بهذا المجتمع في درجات الرقي حتى يصل إلى مرحلة السعادة الأبدية، وخير مثال استدل به على موقفه هو السيّد المسيح والمجتمع الروماني[7]. وأراد القدّيس "أوغسطين" من موقفه هذا تبيان التغيير الكبير الذي حصل للمجتمع الروماني بعد دخوله رويدا رويدا في الدين المسيحي وما كان لهذا الاعتناق من فائدة في نهوض المجتمع الروماني من جديد بعدما سرى الاعتقاد بأنّ البرابرة قد قضوا عليه القضاء التام.

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1986، ص، 81.

2- موسى معيرش؛ الديني والسياسي في اليهودية والإسلام بين المقدّس والمدّنس، مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2007، ص، 172.

3- بيتر كونزمان وآخرون؛ أطلس الفلسفة، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص، 67.

4- آلبان.ج. ويدجري؛ التاريخ وكيف يفسّرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ص، 232.

5- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 150.

6- فضل الله محمّد إسماعيل وعبد الرحمن خليفة؛ الإيديولوجية وفلسفة الحضارة، ص، 223.

7- SAINT AUGUSTIN, La Cité de Dieu, Traduit du latin par l'Abbé Gabriel VIDAL, Maison AUBANEL Père, Avignon, 1930, pp. 62- 63.

وأراد القدّيس "أوغسطين" من موقفه هذا تبيان التغيير الكبير الذي حصل للمجتمع الروماني بعد دخوله رويدا رويدا في الدين المسيحي وما كان لهذا الاعتناق من فائدة في نهوض المجتمع الروماني من جديد بعدما سرى الاعتقاد بأنّ البرابرة قد قضوا عليه القضاء التام.

وأما بالنسبة للتصوّر الماركسي لهذا التقدّم الحضاري، فترى المادية الجدلية أنّ كل ظاهرة لها طرفي تضاد يخلق بينهما صراع، وذلك نتيجة لأنّ كل طرف يحاول التغلّب على الآخر وعندما يحدث هذا يخلق التحوّل وإنّ هذا هو السبيل إلى التطوّر[1]. لكن يوضّح "كولن ولسون"، أنّ ما فعله توينبي هو أنّه أدلى بحقيقة رئيسية ضدّ المادية، إذ لا يعتمد الأفراد فقط على الطاقة الإبداعية المطوّرة وإنّما تعتمد الحضارات أيضا على تلك الطاقة، وهذا برأيه مضاد للماركسية تماما. يقول: «**الماركسية تقول: أنّ الحضارات تتطوّر وفقا للضغوط الاقتصادية وليس هنالك إرادة حرة، أمّا توينبي فإنّه يقول: إنّ الحضارات تزدهر أو تتدهور وفقا للطاقة الأخلاقية التي تتميّز بها الأقلية المبدعة، ولهذا فإنّ عبارة "الطاقة الأخلاقية" تكون عديمة المعنى إذا لم توجد هنالك إرادة حرة**»[2].

نخلص إذا مع توينبي للقول بأنّ التحدّي الذي واجهت به الطبيعة الإنسان أدّى به إلى استجابة ناجحة تمثّلت في ابتداع طرق مواجهتها هي أولا. هكذا وضع الإنسان قانونا في بناء حضارته[3]. وإنّ الارتقاء الحقيقي يتحقّق عندما تستثير الاستجابة تحدّيات إضافية باستمرار[4]، وإنّ الفرق بين استجابة ناجحة وأخرى فاشلة، يكمن في تلك النخبة التي تواجه تحدّيا ما بعدما انسحبت ثم عادت بالجديد، فتحقّق بذلك الارتقاء الحضاري المنشود، عن طريق هذه الاستجابة الناجحة، لأنّ أهم المقاييس لقياس التحضّر يقول "قسطنطين زريق" تكمن في: «**مدى انتشار القدرات والقيم في المجتمع والأشخاص الذين تتمثّل القدرات والقيم في سيرهم وأفعالهم**»[5]. لكن وبعد الوصول إلى هذه الدرجة من الارتقاء، تبدأ الحضارة بالدخول في مرحلة أخرى لا يكون فيها نفس الإنتاج بل هو تدهور وانحلال. فكيف يكون ذلك من منظور توينبي ؟

هذا ما سنراه في المبحث الموالي.

1- علي عبد المعطي محمّد؛ الفكر السياسي الغربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 1993، ص، 398.

2- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 152.

3- عبد المجيد عبد الملك؛ الإنسان والحضارة...جدلية المادة والوعي، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص، 37.

4- منع خوري؛ التاريخ الحضاري عند آرنولد توينبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، دت، ص، 40.

5- قسطنطين زريق؛ في معركة الحضارة، ص، 278.

3- المبحث الثالث: انهيار و تحلل الحضارات

رأينا أنّ **قيام** الحضارة لدى توينبي من الميلاد إلى الارتقاء تحكمه عوامل وظروف عدّة. ومثلما عرض توينبي تلك العوامل وتلك الظروف، يعرض أيضا المرحلة الموالية لهذه المرحلة الأولى وهي مرحلة **التدهور** أو السقوط والتي بدورها تحتوي على مرحلتين ثانويتين هما:

الانهيار déclin des civilisations

و**التحلّل** الحضاري **désagrégation des civilisations**، أي أنّ الحضارة بعدما تقوم وتشتّد قواعدها تنحو إلى الأفول ويكون ذلك تدريجيا عبر هاتين المرحلتين.

فعصر التدهور هذا هو خاتمة بزوغ الحضارة وتدرّجها في مختلف درجات الرقي، فتبدأ بالانحدار بالتدريج بعد الوصول إلى القمة ويعود ذلك إلى عوامل عديدة.

فكيف وضّح توينبي انهيار ومن ثم تحلل الحضارات ؟

3-1- انهيـــار الحضـــارات:

يرى توينبي أنّ هناك فرقا بين انهيار الحضارة **déclin des civilisations** وتحللها، ويقصد بالانهيار السقوط الذي لا يكون نهائيا[1]، إنما يمكن بعده عودة الحضارة الى قمّتها. وهو بالضبط «**فقدان السيطرة**»[2].

فـــ«**كثيرون هم المؤرّخون الذين يدّعون منذ أكثر من قرن، اكتشاف ناموس الزحف التاريخي و التنبؤ بنهاية البشرية، فقد رأى ماركس أنّ الإنسانية منقادة بحكم المنطق المادي إلى الشيوعية، وبعد ماركس فسّر توينبي التسلسل الحدثي للمدنيات واصطدامها وذوبانها الواحدة تلو الأخرى**»[3].

أي أنّ توينبي، بعدما عرض كيفية نشوء الحضارات ومن ثمّ ارتقائها، ينتقل الى الحديث عن أسباب انهيارها، فالحضارات عنده: تنشأ، ترتقي، ثم تنهار وتتحلّل، يقول: «**إنّ كنا قد رأينا أنّ ارتقاء الحضارة كان بفضل قوة مبدعة تتحكّم وحدها في تقرير المصير، يبقى لنا أن نرى إن كنّا نستطيع تفسير انهيار الحضارات بفقدان هذه الطاقة**»[4].

فبالرغم من وجود واحد وعشرون حضارة، اندثرت كلها فإنّه لم يتبقى منها سوى خمس حضارات هي: الحضارة المسيحية الغربية، والحضارة المسيحية الشرقية، والحضارة الإسلامية، والحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى.

فكيف انهارت هذه الحضارات ؟ ما الذي يتسبب في توقف حضارة ما بعدما تكون قد ولدت و استجمعت قوّتها الدافعة ؟ ولماذا عجزت هذه المجتمعات عن تحقيق الاستجابة الناجحة في وجه ما اعترضها من تحدّيات ؟ وما طبيعة العوامل التي أدّت بها إلى الانهيار ؟

«**هيا نثبت معا بأنّ الحضارات قد اندثرت ولكن ليس من قبل غزاة أغاروا عليها ولكن دمارها كان قد انبثق من داخلها**»[5]، وهو ما يوضّحه "محمود صبحي" بإرجاعه العامل الرئيسي في انهيار الحضارة إلى فقدان الأقلية الحاكمة للطاقة المبدعة فيها، «**تلك الطاقة التي لها من تأثير السحر على البروليتاريا ما يدفعها إلى التسامي عن طريق الاقتداء ولكن ماذا يفعل الزمّار حين يفقد مهارته، فيعجز عن إغراء أقدام حاضري الحفل عن الاستجابة بالرقص ؟ إنّه يحاول في سورة غضبه أن يفرض نفسه بالقهر على الجموع، فيستبدل بالمزمار سوطا يلهب به ظهورهم، من أجل أن يحتفظ بمركز ليس جديرا به**»[6].

1- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 141.

2- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص، 20.

3- جوزيف هورس؛ قيمة التاريخ: دراسة فلسفية، ص، 111.

4- TOYNBEE (Arnold), L'histoire, p. 135.

5- Id. 154.

6- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 272.

ومعنى هذا، أنّ إخفاق الطاقة الإبداعية في تلك الأقلية المبدعة، يؤدي لا محالة بتحوّلها إلى أقلية مسيطرة ضاغطة بعدما كانت مضرب المثل للجميع الذي يحاكيها، فتسير في طريق الارتقاء بفضل تلك المحاكاة وذلك التضامن والنصران الجماهيري لها.

تتحوّل إذا الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة، تستميت في الاحتفاظ بمترلتها في المجتمع، حتى لو لم تعد جديرة بها، فتلجأ إلى استخدام كل القوى لتتمكّن من البقاء في القيادة. يقول "ولسون" : «**بوضع القوانين والتأكّد من أنّ الجميع يتبعونها، وباستخدام كل قوى الزعيم والمشرّع: بالتأثير والإقناع والمخادعة والتشريع**»[1]، أي تلك القوّة التي تستخدما الأقلية المبدعة في إقناع الآخرين بإتباعها.

وكأنّه يلفت انتباهنا هنا بأنها ذات فكرة "ماكيافللي" Machiavel (**1469-1527**) والتي مفادها أنّه من الضروري أن يجد الحاكم كل الأنظمة والحلول التي تمكّنه من دوام الحكم [2].

ويقصد توينبي بالبروليتاريا الداخلية، طبقة عامة الشعب في المجتمع، وأمّا البروليتاريا الخارجية، فهي الشعوب المجاورة لذلك المجتمع، في قوله: «**إنّ كل مجتمع إنساني يتكوّن من أقلية مبدعة وأكثرية غير مبدعة، وهذه الأغلبية تكون ملزمة بسلوك الطريق الذي ترسمه لها النخبة**»[3]، بيد أنّ الانهيار يبدأ بمجرّد انشقاق البروليتاريا الداخلية عن الأقلية المسيطرة، حيث يتحوّل النبي إلى عسكري غاصب، والحارس المؤتمن الفذ إلى إرهابي[4].

قصور الأقلية المبدعة إذا كان السبب الأول، وأما السبب الثاني: فيتمثّل في رد الفعل العنيف، بسحب الولاء من طرف البروليتاريا الداخلية، ردا على سيطرة النخبة وضغطها عليها من أجل أن تبقى محكومة، فتعدل إذا هذه البروليتاريات عن محاكاتها بعد قصور الطاقة الإبداعية فيها، وفي هذا السياق يقول "جورج حنا": « **فإذا ما فقدت النخبة سلطتها على البروليتاريا، تعمّ الاضطرابات وتقوم حروب بين الشعوب ذات الحضارة الواحدة، أو بين الشعوب المنتمية إلى حضارات مختلفة، كما تقوم أيضا الثورات الأهلية... فتتعطل الحضارة وتسير في طريق الانحطاط**»[5].

وأما السبب الثالث، فيتمثّل في: «**فقدان التماسك الاجتماعي، سواء بسبب انشقاق الخارجين أو سخط المحكومين**»[6]، ونلاحظ هنا، أنّ هذا السبب الثالث هو نتيجة محتومة للسببين الآنفي الذكر، ففقدان

1- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، **150**.

2- MACHIAVEL (Nicolas), Le Prince, Traduit de l'italien par Jean Vincent PERIES, Algérie, Talantikit, 2004, p. 162.
3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 157.
4- Id. 161.

5- جورج حنا؛ الحقيقة الحضارية، ص، **18**.

6- فضل الله محمّد إسماعيل وعبد الرحمان خليفة؛ الإيديولوجية وفلسفة الحضارة، ص، **314**.

الوحدة الاجتماعية هو نتيجة طبيعية لضياع الثقة الموضوعة في الأقلية الحاكمة.

كانت هذه إذا، الأسباب الثلاث لانهيار مجتمع ما أو حضارة ما، أما شكل المجتمع المنهار فيكون على النحو التالي:

- أقلية مسيطرة **Minorité créatrice**: فقدت قدرتها على الإبداع وأصبحت تحكم بالقهر.
- بروليتاريا داخلية **Prolétariats intérieurs**: دليلة ولكنّها عنيدة، تتحيّن الفرصة للثورة.
- بروليتاريا خارجية **Prolétariats extérieurs**: انشقت عن المجتمع وتقاوم الاندماج فيه وتتحيّن في ذات الوقت الفرص للغزو[1].

ويعارض توينبي بهذا، احتمالات بعض المفكّرين في تفسير الانهيار، حيث رأى البعض أنّ مبعث انهيار الحضارة تشيّخ كوني، يقول: «**عندما بدأت الحضارة الهلينية بالتدهور، فسّرت عدة مدارس فلسفية ذلك الانهيار، على أنّ ثمّة هنالك تشيخ كوني vieillissement cosmique... غير أنّ فلكيي العصر الحديث أثبتوا أنّه لا علاقة بين تاريخ الإنسانية والتاريخ الفلكي**»[2].

ولا يتفق توينبي مع "اشنبغلر" في نقطة واحدة وهي تشبيه "اشنبغلر" للحضارات على أنها كالكائنات الحية تماما، فانية، يقول: «**يرى اشبنغلر أنّ الحضارة تمر بمرحلة الطفولة والشباب والبلوغ ثم تشيخ، تماما كالكائن الحي... لكنّنا نرى بأنّ المجتمعات ليست كائنات حيّة، بل إنّها المحاور الرئيسية لدراسة الميدان المشترك لمجالات النشاط البشري**»[3].

فحضارة الغرب عند "اشبنغلر" قد بدأت إقطاعية دينية ثم مرت بعصر النهضة وشهدت الازدهار في كل الميادين، ومع بدايات العصر الحديث ازدهرت المدارس الفلسفية وتوالت الكشوف العلمية.

ولكن منذ القرن التاسع عشر سارت الحضارة نحو الانهيار التام، بعد أن بلغت أكبر قدر ممكن من التطوّر والتوسّع، وبعدما استنفدت كل ما لها من إمكانات وكل ما تزخر به من طاقات. فهذه الفترة إذا هي أشبه بفترة الانتقال من العصر اليوناني الى العصر الروماني، وهو الانتقال الذي قد أنذر بزوال حضارة العالم القديم، وهو ذاته الذي ينبأ بزوال الحضارة الغربية الحالية، فهي في فترة التدهور والانحلال التي يتحدّث عنها توينبي[4].

نلمس من هذا أنّ معارضة توينبي "لاشبنغلر" تشمل جزءا فقط من نظريته لأنهما يتشابهان في القول بالنشأة ثم مرحلة الازدهار فمرحلة الزوال.

1- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 273.

2- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 138.

3- Id. 140.

4- فؤاد زكريا؛ الإنسان والحضارة، ص، 45.

كما ينتقد توينبي "أفلاطون" Platon (**428 – 347**ق.م) في فكرة أنّ التاريخ يعيد نفسه: **«إنّ هناك تقدّما إلى الأمام نحو نهاية وليس فقط مجرّد إعادة بلانهاية»**[1].

هكذا أثبت توينبي آراءه المخالفة لأولئك الذين يرون حتمية الفناء لعوامل متعددة، فالمجتمع هو الذي يجلب على نفسه عوامل الانهيار، قبل أن يجلبها عليه غزو خارجي. فأقصى ما يقوم به مثل هذا الغزو، هو توجيه ضربة قاضية- كضربة الملاكم الأخيرة– إلى مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة، كتلك الضربة الناسفة التي وجّهتها **قبائل القوط** البربرية Gothes إلى الحضارة الرومانية، عام 476 ميلادية. ذلك أنّ الإمبراطورية الرومانية كانت قد دخلت مرحلة الانحطاط قبل ذلك التاريخ بأجل طويل.

فيمكن أن نعتبر أنّ هذه هي القابلية للاستعمار التي تحدّث عنها "مالك ابن نبي" في كتابه شروط النهضة، حين قال بأنّ أزمة رجل العالم الإسلامي هي الركود[2]. وبالتالي تسهل المهمة كثيرا على الغازي فينتهي باستعمار الأرض واستعباد أهلها.

هذا هو سبب انهيار الحضارات التي اندثرت و لم تقم لها قائمة بعد ذلك، ويورد توينبي في هذه النقطة مقولة للسيّد المسيح قالها لبطرس الحواري يستدّل بها على أنّ الانهيار كائن. وذلك لأنّ منطلق أفكاره كلّها هو دينه المسيحي الذي بيّن من خلال كل دراساته دوره المهم في بناء الحضارة الغربية.

يقول توينبي: **«نبوءة عيسى لبطرس تصف لنا أنّ الانهيار قدر الحضارة: «عندما كنت شابا، كنت تقرّر لنفسك، وكنت تذهب حيث تشاء، ولكن عندما تصبح شيخا... آخر يقرّر عليك، ويقودك إلى حيث لا تريد أن تذهب»**[3]. أي أنّ الحضارة تصل الى مرحلة من تاريخها أين لا تعد تتحكم بزمام أمورها.

ويوافق العلاّمة "ابن خلدون" توينبي في أنّ **«الحضارة تناوبيه، تنتقل وتنمو وتضمحل»**[4]، فهي من وجهة نظره مثلها كمثل الدولة، تمرّ بمراحل، فالحضارة قوة اجتماعية إذا ما توفرت لها شروط معيّنة، تشتد و يعلو صرحها، ومثلما هي قابلة للعلو والارتقاء قابلة كذلك للسقوط والانهيار.

نستدّل على ذلك بقول "ابن خلدون": **«و تبيّن في المعقول والمنقول، أنّ الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموّها، وأنّه إذا بلغ سنّ الأربعين، وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط. فلتعلم أنّ الحضارة في العمران أيضا كذلك»**[5].

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 153.

2- مالك ابن نبي؛ شروط النهضة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة: عبد الصبور شاهين وآخرون، مكتبة دار العروبة، القاهرة، مصر، ط2، 1961، ص، 103.

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 161.

4- إدريس هاني؛ حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، ص، 102.

5- عبد الرحمان ابن خلدون؛ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص، 389.

وقد أشاد توينبي "بابن خلدون"، يذكر "محمّد عزيز نظمي سالم" ذلك في أنّه: **«لم يستلهم أحدا من السابقين ولا يدانيه أحد من معاصريه، بل لمّ قبس الإلهام لدى تابعيه من أنّه في مقدّمته للتاريخ، قد تصوّر و صاغ فلسفة للتاريخ تعد بلا شك أعظم عمل من نوعه»**[1].

فنظريته في التعاقب الدوري تتلخص في: بداوة ثم ازدهار ثم تدهور، تمر بها الحضارة. وهو ذاته ما قال به توينبي في: النشوء والازدهار ثم الانهيار والتحلل[2].

ونجد رأيا آخر موافقا لتوينبي في هذه القضية، ومفاده أنّه لا أمل للإنسانية في الخلاص من تدهورها إلا إذا تشبّهت بالماضي وإن بدا لها هذا أملا يستحيل تحقيقه. إذ تمجّد العقائد الدينية فترات معيّنة من ماضي الحضارة وتعزو إليها كل الفضائل. إنها الفترات التي ظهر فيها الأنبياء والرسّل على وجه الخصوص، وأنّ الإنسان الحديث يستحيل عليه أن يعود إلى محاولة تحقيق مثل الماضي بعدما وصلت حياته إلى هده القدر من التعقّد. فتقّر بذلك هذه العقائد على أنّ الإنسان الحالي مخطئ على الدوام، ما دام لم يعمل على التشّبه بالماضي المجيد والتخّلق بأخلاق السلف الصالح. ومنه لا أمل للحضارة في العودة إلى القيام فمصيرها الزوال، طالما اتّسعت الهوة بين رجل الدين والإنسان العادي المعاصر، لاقتناع هذا الأخير بأنّ هذه العقيدة الدينية تكلّفه ما لا يطيق بطلبها إليه التخلي عمّا أصبح يكوّن جزءا أساسيا من حياته[3].

ونخلص من كل هذا لنقول أنّ الحضارات عند توينبي لا تنهار بسبب الضربات الخارجية من مستعمر متربّص بالحدود، ولكنّها تنهار دوما بسبب الجراح التي تتسبب فيها لنفسها، **«إنّها تموت، كما يموت أبطال المآسي الإغريقية، بسبب جريمة الدم والكبرياء الأعمى»**[4].

هذا عن الانهيار، فماذا عن التحلّل ؟

1- محمّد عزيز نظمي سالم؛ جدلية التاريخ والحضارة، ص، 220.

2- المرجع نفسه؛ ص، 224.

3- فؤاد زكريا؛ الإنسان والحضارة، ص، 39.

4- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 180.

3-2- طبيـــعة و مظاهـــر التحـــلل الحضـــاري:

يقصد بالتحلل الانهيار الذي لا يتبعه قيام، وبالتالي مآل الحضارة إلى الاندثار النهائي. فما الذي أدى في رأي توينبي إلى اندثار الحضارات وانحدارها صوب التحلل **désagrégation des civilisations** ؟

نجد توينبي يقول: «**بمجرّد ما تنهار حضارة ما ستدخل بالضرورة في مرحلة التحلل**»[1]، فبعدما تفقد الأقلية المبدعة حيويتها الخلاّقة، «**تفقد أيضا قدرتها على أن تسحر الناس، فلا تعود تعزف الألحان التي ترقص عليها بقية المجتمع هائئة، ويبدأ الانحلال**»[2].

فكيف يصبح مظهر المجتمع عندما يصل إلى درجة التحلل ؟

وما هي الأسباب التي جعلت الأقلية المسيطرة تفقد نفوذها، وتؤدي بالمجتمع إلى التحلل وليس فقط إلى الانهيار، أي الدمار التام والاندثار الذي لا رجعة بعده حتى يومنا هذا، كما هو الحال بالنسبة لحضارات كثيرة مضت نذكر منها على سبيل المثال: الحضارة البابلية والمصرية واليونانية والرومانية ... ؟

يقول "كولن ولسون": «**إنّ النابغة ما إن يبدأ بتطبيق رؤاه، حتى يتنازل عن أمانته ويكون محتوما عليه أن يقوم بعدد معيّن من "الأعمال القذرة"**»[3]. هنا يكمن استبداد الأقلية الحاكمة وسيطرتها الجائرة.

ويضيف "تشارلز فرانكل"، أنّه حيث كان المجتمع من قبل كلاّ متناسقا، تربطه رؤيا الله المشتركة كما رآها عن طريق قدّيسيه، «**يقوم الآن نزاع الطبقات واحتراب يقتل فيه الأخ أخاه، وتنحدر الأقلية إلى درك تصبح عنده مجرّد أقلية مسيطرة**»[4]، وهذا ما يفسّر رؤية توينبي، إذ يقول: «**إنّ الأقلية المسيطرة هي انحراف عن الأقلية المبدعة، وتتمادى في فرض السلطة بالقوة من أجل البقاء في منصب لم تعد جديرة به**»[5].

وتنشأ إذا داخل المجتمع– كما رأينا من قبل– بروليتاريا داخلية، تكافح من أجل بقائها الجثماني، كانت قد «**أعطت ولاءها للسلطة، لكنّها شرعت في سحبه تدريجيا، بسبب استبداد و جور الحكام**»[6]، فتحيط بعد ذلك بالمجتمع، جماعات خارجية- بروليتاريا خارجية- تأخذ تواصل الضغط عليه وتتحين الفرصة للانقضاض عليه، يقول توينبي: «**شكّلت البروليتاريا الخارجية جماعات بربرية خارج الحدود، حدود الحضارة ولكنّها بقيت تعيش في فلكها**»[7]، وتتحيّن الفرصة للانقضاض عليها وبناء مجتمع جديد، ذو قيم

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 208.

2- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 180.

3- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 154.

4- تشارلز فرانكل؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 218.

6- Id.

7- Id.

ومعاني وأنظمة جديدة.

كان هذا هو ميزان التحلل الحضاري وفق توينبي، والمتمثّل في الانقسام الاجتماعي إلى كسور ثلاث: **أقلية مسيطرة وبروليتاريا داخلية وبروليتاريا خارجية.**

هذه الجماعات الثلاث كما يرى "كولن ولسون"، «**تكره بعضها بعضا، ويحاول الزعماء أن يتمسكوا بسلطاتهم بصورة أشد، وتردّ البروليتاريا الخارجية على ذلك بالعصيان،في حين أنّ البروليتاريا الداخلية تشتد في تقوقعها**»[1].

هنا بعد هذا الكسر في المجتمع، تتمخّض عن كل جزء هيئة، «**فالأقلية المسيطرة تحقّق شيء كبيرا لكنّه عقيم، ذلك هو خلق الدولة العالمية**»[2]، ومعنى ذلك الخروج بإمبراطورية عظمى إلى الوجود.

إذ تحاول الأقلية أن تتّجه نحو التفكير من أجل التغيير، فتخترع حلولا سياسية وتخلق خدمة مدنية وتبحث عن القوانين التي تتحكّم في الطبيعة كلّها، بغية بسط أكبر قدر من النفوذ، لكن ينقصها شيء وحيد لكنّه ضروري ألا وهو شرارة الحياة والدفء. فالأقلية المسيطرة لا تواجه المشكلة الحقيقية وهي العودة بالمجتمع إلى حالة يكون فيها موّحدا.

وأما البروليتاريا الخارجية، «**فتنتج الديانات البربرية، وشعر العصر المسمّى بعصر البطولة**»[3]، أي فن بربري وشعر أسطوري وقصص عن البطولة والآلهة، كالآلهة الهوميرية مثلا، غير أنّ هذه الآلهة المعبودة في نظر توينبي، تحكم بالقوة وليس لديها رسالة تقدّمها للشعوب كافة ويعني بذلك رسالة سماوية.

وأما البروليتاريا الداخلية، فتتميّز عنهما بدعوتها إلى نداء الروح والكفاح من أجل خلق معبد عالمي، أي «**خلق دين أسمى: ففي الدين الأسمى رؤيا قادرة على إيجاد التحوّل وهي التي تحيل الموت إلى حياة**»[4].

وذلك لأنّ في هذا الدين من القوة ما يبقي أمل الحياة قائما، يقول المستشرق "هنري كوربان" Henri CORBIN: «**لو كان إذا أنزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية، لمات الكتاب و لكنّه حي، حي يجري فيمن بقي كما يجري فيمن مضى**»[5]. أي أنّه أراد أن يقول أنّ هذا الدين من شأنه أن يدفع حضارة جديدة إلى مجال الحركة.

1- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 155.

2- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 182.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه؛ ص، 183.

5- هنري كوربان وآخرون؛ تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة: نصير مروة وحسن قبيسي، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، دط، 2004، ص، 132.

هذه النتائج الثلاث، هي تفسير ما أوجزه توينبي في هذه العبارة: **«عندما تتمخّض عن الأقلية المسيطرة دولة عالمية، تخلق البروليتاريا الداخلية روحا شعبية فتنتج الكنائس العالمية، في حين أنّ البروليتاريا الخارجية تعبّر عن حريتها في التواجد على شكل عشائر بربرية فوضوية»**[1].

ويقصد توينبي بالكنائس العالمية، الأديان التي مكّنت حضاراتها من المواصلة في التواجد وهي خمس: المسيحية الشرقية والغربية منها، لأنّها تظم كنائسا ثلاث لكل منها توجّه وتصوّر محدّد، وتخص الحضارة الغربية، والإسلام ويخص الحضارة العربية الإسلامية، والهندوسية وتخص الحضارة الهندية، والبوذية وتخص حضارة الشرق الأقصى.

ويشرح لنا "كولن ولسون"، أنّه في هذه المرحلة قد لا يبقى إلا المعبد العام، أي الدين وفي هذا إشارة واضحة إلى أهمية هذا الأخير ودوره في بقاء وحدة المجتمع متماسكة.

هذا الدين ينتقل إلى الحضارة الجديدة التي تقوم على أنقاض سابقتها، هذا إن ظهرت هذه الحضارة المستخلفة من كل تلك الفوضى، **«وتقوم الحضارة المحتضرة في مراحلها الأخيرة بإنتاج المخلّصين الذين يحاولون أن يخرجوا بها من الزقاق المسدود، ولكن هذا لا يؤذي إلا إلى المجهود الهائل من أجل الصحوة المؤقّتة التي تسبق التدهور التام»**[2]، أي التحلّل رغم محاولات الإنقاذ العديدة.

كانت هذه إذا النتائج الثلاث، المتمخّضة عن الكسور الثلاث، في مرحلة تحلّل الحضارة، المرحلة التالية للانهيار والأخيرة من عمر حضارة ما.

ولكن لا بد من العودة إلى كيفية فقدان الأقلية المبدعة مقوّمات إبداعها، والوقوف عند هذه الأسباب لاستكمال عرض التحلّل الحضاري وأولى هذه الأسباب هي:

- خمر جديد في قوارير عتيقة:

يقول الكتاب المقدّس في إنجيل "متّى": **«ولا يجعلون خمرا جديدة في زقاق عتيقة لئلا تنشق الزقاق فالخمر تنصب والزقاق تتلف»**[3]، حيث أنّ الأقليات المبدعة أو الصفوة الممتازة تقوم بإتباع أنظمة جديدة، **« ولكن يحدث كثيرا أن تصاغ الأنظمة الجديدة في قوالب قديمة»**[4].

مثال ذلك: التصنيع الذي يعدّ نظاما جديدا كفيلا برخاء المجتمع، لكنّه قد صيغ – برأي "محمود صبحي"– في نظام الرّق الإقطاعي، فأصبحت منزلة العمال في النظام الرأسمالي الحالي كنظيرتها في النظام الإقطاعي الماضي، فضاع بذلك معنى التقدّم في التصنيع. أي أنّه لا نلمس تحوّلا حقيقيا بالنسبة للبروليتاريا.

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 219.

2- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص ص، 155-156.

3- إنجيل "متى"؛ 9/ 17.

4 - أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 274.

وتضيف "آمنة تشيكو" بأنّ الثورة فعل بطيء للمحاكاة mimésis يتحوّل بفعل ذلك إلى انفجار، فهي إذن مظهر عنيف شاذ لإخفاق عملية المحاكاة «**ويستمر الارتقاء إذا حدث وتحقّق الاتفاق بين النظم والقوى وإن لم يتم الاتفاق وحدثت الثورة، يصبح الارتقاء محفوفا بالخطر وتسهل ملاحظة وجود الانهيار**»[1].

- آفة الإبداع جمود المبدع وافتتان الجماهير إلى حد عبادة الذات:

ومعنى ذلك، أنّ أفراد مجتمع ما يفتتنون بنظام ما أو بمبدع ما، فيتخذونه مثلا أعلى لا يعلوه مثل بل ويتمادون في ذلك إلى حد القداسة. هنا تضيع القيم والمبادئ التي فسحت لهم المجال لعبادة الذات أو النظام الفاني ومن جهة ثانية فالمبدع أيضا يصل إلى درجة يعجز فيها عن خلق الجديد، ممّا يؤدي إلى جموده والتوقف عن الإبداع، سر ارتقاء المجتمع.

إنّ الجماهير التي تركت عبادة الأوثان بفضل المبدع مثلا، لم تتركها إلى عبادة الله وإنّما لعبادة محطّم الأوثان أو بالأحرى عبادة ذات فانية، حيث «**توارى المبادئ خلف الأشخاص وتقديس هؤلاء بدلا من اعتناق المبادئ سر قداستهم**»[2].

- الحرب نزعة انتحارية وطريق إلى الدمار:

ممّا سبق ورأينا، أنّ التدهور الداخلي للحضارة هو سبب التوسّع الحربي، فقيام الإمبراطوريات بحملات توسيع النفوذ، ما هو في الحقيقة إلا محاولات تغطية لأزمات داخلية أوشكت على الانفجار، وإخفاء لنقمة البروليتاريا الداخلية وسخطها المتنامي. ويدلل توينبي على ذلك بمحاولات القادة الهلينيين الكبار أمثال "الاسكندر الأكبر"(*) Alexandre le Grand (**356- 323ق.م**) في أنّهم تسببوا في جر الدمار لحضاراتهم، إذ أنّه اثر وفاة "الاسكندر" لم تلبث الأمجاد التي أفنى حياته في سبيلها والتي كان ثمنها جهود عهدين زاهرين متتاليين من زمن الحضارة أن انحلت إلى فساد وفوضى[3].

إضافة إلى أنّ الحرب من شأنها أن تغيّر تاريخ حضارة بأكملها، يقول توينبي: «**ولربما كان الانجليز أقوى شعورا بالتحوّل المفاجئ في التاريخ بعد سنة 1914م**»[4]، ذلك أنّ تأثير هذه الحرب قد أحدث صدمة شديدة في انجلترا التي لم تعكر صفو حياتها الحروب الماضية[5].

1- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 84.

2- أحمد محمود صبحي؛ المرجع السابق، ص، 275.

(*) الاسكندر الأكبر Alexandre le Grand : يعد تاريخيا من أعظم القواد العسكريين خلال عصور التاريخ حيث استطاع خلال عشر سنوات (334-324 ق.م) بجيش قوامه 35.000 جنديا أن يصل إلى الهند، و أن يحطم الإمبراطورية الفارسية و من ثم إلى تكوين إمبراطورية عرفها التاريخ.

3- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 135.

4- من الشرق و الغرب؛ ص، 18.

5- المصدر نفسه؛ ص، 19.

ويرى "مصطفى النشار" أنّ الباعث السياسي للحرب يتّسق مع الباعث السيكولوجي، إذ أنّ النزعة الحربية تعبير عن شهوة التغيير، فعلى المستوى الفردي السيكولوجي «**فهي مظهر إخفاق النفس البشرية في الارتفاع إلى المستوى الإنساني اللائق بالإنسان**»[1].

وأما على المستوى السياسي، فإنّ جميع الدول التي قامت على أسس حربية وعاشت في غمرة الحروب، قد أدّى بها سلوك هذه النزعة إلى الفناء، فناء الانتحار لا الموت الطبيعي، حتى و إن حقّقت في بادئ الأمر انتصارات أسطورية.

ويورد لنا توينبي مثالا على ذلك في الدولة الآشورية، يذكر في كتابه **حرب وحضارة**: «**عندما يحرس رجل قوي حسن السلاح منزله، فإنّ ممتلكاته في أمان ولكن إذا جاء رجل آخر أقوى من الأول، فإنّه يتغلّب عليه ويأخذ كل السلاح الذي كان الأول يثق به ثم ينثر أسلابه**»[2]، أي يدمّره.

وقصد توينبي بإيراد هذا المثال، لفت الانتباه إلى أنّ المعتمد على القوة الحربية في تواجده، يعيش في خطر ورعب أن تأتي قوة حربية أخرى فتمحيه من الوجود.

ونجد مثالا على ذلك في العصر الحديث وهو تصدّع المعسكر الشيوعي وانهيار الاتحاد السوفيتي، لاعتماده على القوة العسكرية فقط، إذ تمكّنت الكتلة الغربية وبالسلاح الأخضر من أن توّقع شهادة وفاته.

فالعسكرية الآشورية، كانت تهيمن بظلها القاسي على شرق البحر الأبيض المتوسط، ورغم بقائها لمدة تزيد عن ثلاث قرون بفضل قوّتها العسكرية إلا أنّ مآلها كان الدمار، «**لقد كان زوال الشعب فدية العسكرية وكانت هذه الفدية في آخر الأمر مماثلة الخراب بالنسبة للجيش نفسه كما كانت بالنسبة للجسم الإجمالي الآشوري**»[3].

ذلك أنّ تدمير آلة الحرب الآشورية، قد أدّى إلى زوال الدولة الآشورية وزوال شعبها بين عامي 614 و610 قبل الميلاد.

ويستند توينبي على ما ذكر في الكتاب المقدّس في هذا الشأن ونلمس ذلك في الإشارة إلى الرفض التام للقوة العسكرية كقاعدة لقيام الحضارة في موقف السيّد المسيح من لجوء بطرس الحواري لهذه القوة:

«**و عندها سحب أحد الذين كانوا مع يسوع سيفه وضرب به خادم الكاهن الأكبر، فانتزع له أذنه، فقال يسوع عندئذ: أعد سيفك إلى غمده لأنّ كل من يسّل السيف يموت بالسيف**»[4].

1- مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، ص، 364.

2- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 63.

3- المصدر نفسه؛ ص، 85 .

4- المصدر نفسه؛ ص، 64.

ويوافق "كولن ولسون" توينبي في هذه النقطة، إذ نجد أنّ "ولسون" كما توينبي يعتبر أنّ السبب في تحلل الحضارة النهائي هو إعداد الشعب لجيش قوي لمواجهة البرابرة الذين يهدّدون حدوده وبهذا يصبح الشعب ذا نزعة عسكرية.

وبما أنّ العقلية الحربية لا تتميز بالعمق، فهذا يؤدي إلى منع الشعب من الاستجابة للتحدّيات التي تتطلب الشعور بالخطورة، «**بالإضافة إلى أنّها تضغط على اللامنتمي(*) وتحاول أن تسلكه في النظام العسكري، وهكذا فإنّ الحضارة التي تقضي على لا منتميها تتحطم**»[1].

ويصرّح "ولسون" بعد هذا، بأنّ الحضارة الغربية الحديثة هي في مثل هذه الوضعية الآن، فمن الخطأ إذا الاعتماد الكلي على القوة العسكرية.

- التقدّم المادي كمسلك خدّاع لاستجابة ناجحة :

إنّ التوسّع الحربي ليس وحده المظهر الخدّاع للتقدّم والارتقاء، وإنّما يشترك معه عامل آخر يتمثّل في سيطرة الإنسان على البيئة.

وتأخذ السيطرة على الطبيعة شكل تحسينات على مستوى التكنولوجيات، غير أنّ هذا ليس بدوره دليلا على رقي المجتمع، «**لأنّ الأسلوب التكنولوجي آلي تطبيقي وليس من الضروري أن يصاحب الإبداع الروحي والفكري وجودا وعدما، فالارتقاء الحقيقي إنّما يتمثّل في الارتقاء الروحي**»[2]، وليس المادي لأنّ المادة فانية.

ذلك أنّ التكنولوجيا واستخداماتها إذا ما استغلت في غير ميادينها الحقيقية، أي التي تخدم المجتمع الإنساني عامة، سواء على المستوى المحلي أو العالمي. مثال ذلك أن تستخدم في مجال تطوير التقنية العسكرية كما هو الحال الساعة في دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية. فإنها أي التكنولوجيا تتحوّل إلى عقبة رئيسية تقف في وجه التقدّم الحضاري [3].

وهذا ما حذّر منه توينبي عندما بيّن عيوب التقدّم الغربي التكنولوجي: «**الذين أخذوا من الحضارة الغربية بنصيب غير قليل، وبهرتهم هذه الحضارة وافتتنت بها نفوسهم... أن لا يظنوا أنّ هذه الحضارة الغربية خير كلها... فلها عيوبها التي لا يجذ أبناؤها أنفسهم مفرا من الاعتراف بها**»[4].

(*) اللامنتمي: يمثّل على حد تعبير كولن ولسون، إنسان اليوم العاصي للحضارة الحالية الغنية ماديا لانعدام الجانب الروحي فيها. لمزيد من المعلومات راجع كولن ولسون، سقوط الحضارة، ص، 05 وما يليها.

1- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 151.

2- أحمد محمود صبحي؛ المرجع السابق، ص ص، 277-278.

3- صبحي محمّد قنوص؛ دراسات حضرية...مدخل نظري، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1994، ص، 156.

4- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، 09.

ويرى "عبد الله العروي" أنّ اعتناق المثقف العربي للثورة مثلا لم يؤدي به إلا لإخفاق في تطبيق النظام السياسي اللبرالي بل وأكثر من ذلك، تعثّر حركة التصنيع في البلاد العربية[1]. فهذا مثال بسيط عن انعكاسات هذا التقدّم المادي على المواطن العربي.

«وصفوة القول أنّ النظام المطرد لانحلال المجتمع هو انقسامه إلى طبقة متمردة من الدهماء الكادحين وأقلية قوية مسيطرة يتضاءل عدد أفرادها يوما بعد يوم»[2].

نخلص إذا إلى أنّ الحضارة عند توينبي تتحلّل بعدما تنهار وبالتالي لا تقوم لها قائمة بعد ذلك والدليل اندثار الحضارات الكثيرة التي كانت قائمة وعدم قيامها من جديد.

- تعقيـــب:

ينتمي تصوّر توينبي للحضارة إلى فكرة التعاقب الدوري للحضارات، وهو بالتالي يوافق "ابن خلدون" و"اشبنغلر"... في أنّ الحضارات تولد وترتقي ثم تتدهور وتنهار. غير أنّ تصوّره ينفرد بأنّه لم يضفي الصفة البيولوجية على المسار التاريخي للحضارة. وبالتالي فمسارها في نظر توينبي ليس دائريا إنما متتابع، والدليل على ذلك تتابع الحضارات منذ فجر التاريخ. وإنّ كل الحضارات وكل الأزمنة التي تحدّث عنها لها خصوصياتها و امتيازاتها التي تختلف عن خصوصيات وامتيازات الحضارات والأزمنة الأخرى التي سبقتها.

فالحضارة إذا تعدّ بحق أعظم انجاز تقدّمي حقّقه المجتمع الإنساني، هذا المجتمع الذي يعدّه توينبي اللبنة الأولى في تكوين الحضارة الإنسانية، وإنها بتجسّدها تمنح شبكة العلاقات داخل هذا المجتمع الانسجام فينحو بذلك هذا المجتمع إلى الارتقاء والنماء ويتعزّز ذلك أكثر بمجهود القدرة الخلاقة التي تكتسبها فئة معيّنة من الشعب.

غير أنّ هذه الفئة المبجّلة سرعان ما تضيّع هذه المكانة المرموقة في المجتمع باستبدادها له ولأفراده، فتؤدي إذا إلى انقسام الجسم الاجتماعي فتنهار بذلك الحضارة وتتحلل.

لكن يؤكّد توينبي أنّه بفضل إحدى مقوّمات الحياة الإنسانية الحضارية: **الدين**، تظهر إلى الوجود حياة أخرى جديدة، ببزوغ نور حضارة جديدة تتولّد عن القديمة وتخلفها. وهكذا فالدين هو مورّث الحياة والمؤدي إلى النهوض من جديد.

وربما نتّفق جميعا على أنّ هذا هو فعلا مسار الحضارة لكن ألا نلاحظ أنّ مرحلة السقوط دائما موجودة، ومنه ألا يمكن مثلا أن نستبدل هذه المرحلة بفترة تتجدّد فيها الحضارة بدلا من أن تنهار.

1- عبد الله العروي؛ ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2002، ص ص، 161- .162

2- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص، 21.

الفصل الثاني : الديـــن و الدولـــة عنـــد توينـــبي

مدخـــل

1- المبـــحث الأول: مفهوم الدين

1-1- لغة و اصطلاحا

1-2- الأديان العليا عند آرنولد توينبي

2- المبـــحث الثاني: مفهوم الدولة

2-1- لغة و اصطلاحا

2-2- الدول العالمية عند آرنولد توينبي

3- المبـــحث الثالث: دور الدول العالمية في تبلور الأديان العليا

3-1- المسيحية و مذاهبها

3-2- المسيحية و الإمبراطورية الرومانية

- تعقيـــب

مدخـــل:

يقول "فيلسيان شالي" Félicien CHOLLAY في كتابه موجز تاريخ الأديان، أنّ الأديان قد أثّرت«**تأثيرا سيئا أو حسنا، سعيدا أو مزعجا، ولكنّه عميق على كل حال في مختلف الحضارات**»[1].

ويذهب إلى أنّها موضوع يستأثر بالتأمل لدى كل عقل يميل إلى التاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة« **فعلى كل إنسان مثقّف أو قل إنّه ينبغي لمثل هذا الإنسان مهما تكن بيئته أن يطّلع على عدد من المعلومات الدقيقة حول الدين** »[2].

إنّ دراسة العقائد والعشائر الدينية أو التطرّق إليها في أي بحث من البحوث، من شأنها أن تكشف عن طبائع الشعوب والأمم ومن ثمّ الحضارات. فإذا كان أرسطو قد عرّف الإنسان على أنّه حيوان ناطق، أي مفكّر، فقد عرّفه غيره من الفلاسفة بأنّه«**حيوان متديّن**»[3]. وإلى قريب من هذا ذهب "هيجل"HEGEL **(1770-1831)** إلى اعتبار الإنسان« **هو وحده الذي يمكن أن يكون له دين، وأنّ الحيوانات تفتقر إلى الدين بقدر ما تفتقر إلى القانون والأخلاق** »[4].

وهذا ما يؤكّد لنا أهمية الدين، بل وأهمية دراسته ليس بالنسبة للفلاسفة فحسب أو دارسي الفلسفة، بل بالنسبة لجميع الباحثين عن مختلف العلوم ذات الصلة. ويضيف "هيجل" بأنّ«**موضوعات الفلسفة هي نفسها - بصفة عامة - موضوعات الدين: فالموضوع في كليهما هو الحقيقة، وهما ينتقلان بطريقة متشابهة إلى معالجة العالمين المتناهيين: عالم الطبيعة والروح المتناهي، من حيث علاقة الواحد منهما بالآخر ومن حيث علاقتهما بالله بوصفه حقيقتهما**»[5] .

فبعد أن نزل الإنسان إلى الأرض، ظهرت ديانات عديدة فكانت الأساطير والخرافات والسحر و الشعوذة، ومحاولة السيطرة على القوى الخفية والتقرّب إليها بالأضاحي والقرابين ممّا يزخر به تاريخ الشرق والغرب على حد سواء[6]، كما ظهرت بعد ذلك الديانات المختلفة كالزرادشتية والكونفوشية والبوذية... وصولا إلى الديانات السماوية الكبرى: **اليهودية والمسيحية والإسلام.**

وقد اعتنق العبرانيون اليهودية بل وإنها تنسب إليهم وهم في الحقيقة شعب سامي شرقي في حين أنّ الإسلام رغم طابعه العالمي فقد انتشر في بلاد الشرق عموما، وانتشرت المسيحية بصورة عامة بين الشعوب الغربية وساهمت في بناء حضاراتها المختلفة، ممّا جعل البعض يربط بين هذه الديانة وحضارات هذه الشعوب

1- فيلسيان شالي؛ موجز تاريخ الأديان، ترجمة:حافظ الجمالي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1991، ص، 15.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- جفري بارندر؛ المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 1996، ص، 11.

4- هيجل؛ موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي القاهرة، مصر، دط، دت، ص، 51.

5- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

6- جفري بارندر؛ المرجع نفسه، ص، 12.

سلبا وإيجابا. وإذا كان توينبي أحد فلاسفة الحضارة الذين اهتموا بدراسة علاقة هذه الحضارات بالدين، فلفهم الحضارة إذا لابد من فهم الدين، إذ يعدّ مظهرا هاما من مظاهرها ذلك«**أنّ فهم أية حضارة من الحضارات، يقتضي في مقدمة ما يقتضي، سبر غور الدين السائد فيها وإدراك روحه وعقائده ونظمه** »[1].

فماذا يقصد بالدين ؟ وما مفهومه عند توينبي ؟ أي ما هي الكنائس العالمية التي تحدّث عنها توينبي وبيّن دورها الكبير في بناء الحضارة ؟ وما مفهوم الدولة ؟ والدولة العالمية تبعا لتوينبي ؟ وكيف لعبت هذه الدولة العالمية دورا كبيرا في تبلور المسيحية واشتداد عضدها ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه وتبيينه من خلال دراستنا في هذا الفصل.

1- المبحث الأول: مفهوم الدين

لقد نزع الإنسان نحو الدين **religion** والتديّن منذ أقدم العصور فمارس طقوسا وشعائر سواء أكان ذلك من طرف الشعوب البدائية من عبّاد المظاهر والعناصر الطبيعية كالنار والماء والريح والبراكين أو من عبّاد الأجرام السماوية كالنجوم والكواكب والشمس والقمر وعبّاد الأصنام والحجر وما إلى ذلك إلى حين ظهور الأديان السماوية المترّلة وحيا والتفاف الناس حولها.

فتاريخ الإنسان زاخر بالأحداث المختلفة والمتعدّدة، وإن انشغل ببناء وتشييد هياكل الحضارة وتفنّن في عرض قدراته العسكرية أثناء المواعيد الحربية وغيرها، إلا أنّه كان يحس من حين لآخر بنوع من الفراغ في حياته العامرة هذه، فراغ لا يمكن ملأه لا بتشييد القلاع والحصون الضخمة، ولا بتحقيق الانتصارات الأسطورية في الحروب، وسحق مدن بأكملها بمن فيها، إذ لم يكفي هذا الإحساس الآشوريين والفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم للإحساس بالكمال، فراحوا يبحثون عن غذاء روحي، تمثّل في تنصيب مجموعة من الآلهة لتكرّس لها العبادة وتلقي عليها الأرواح همومها.

فما مفهوم الدين عامة ؟ و ما هي الأديان العليا **Eglises universelles** عند آرنولد توينبي خاصة ؟

1- قسطنطين زريق؛في معركة الحضارة، ص، 95.

1-1- لغة و اصطلاحا:

أ- لغـــة:

يعتبر تعريف الدين في اللغة من الألفاظ التي تعدّدت معانيها، فالدين حسب علماء اللغة هو الطاعة. وقد دنته ودنت له أي أطعته... والجمع الأديان، يقال: دان بكذا ديانة. وتقول العرب أيضا: ديّنت الرجل تديينا إذا وكلته إلى دينه. والدين مثلا الإسلام، وقد دنت به[1].

ويذكر المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية أنّ الدين لغة « **بمعنى العادة، ويطلق بمعنى أوسع على الحق والباطل، ويشمل أصول الشرائع وفروعها، لأنّه عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المعمود إلى الخير بالذات**»[2]. وعلاوة على ما سبق فإنّ الكلمة إذا ما أطلقت على الأصول فتأخذ معنى الملّة، و قد يتجوّز فيها أيضا فتطلق على الفروع خاصة، أي فروع هذه الأصول.

كما أنّ هناك فرقا واضحا بين **الدين** و**الملّة** و**المذهب**: «**فالدين منسوب إلى الله والملّة إلى الرسول والمذهب إلى المجتهد، وأما الشريعة، فتضاف إلى الله والنبي والأمّة وهي من حيث أنّها يطاع بها تسمّى دينا، ومن حيث أنّها يجتمع عليها تسمّى ملّة**»[3]. في حين أنّ الدين أشمل وأوسع مفهوما من المذهب، لاشتماله على«**اعتقاد الإنسان حول الخالق والمخلوقات وأمور الغيب والآخرة، أما المذهب فيكون في بعض هذه الأمور أو مسائل منها، وقد يكون في أمور الحياة فقط**»[4].

وتستعمل هذه الألفاظ الثلاث- **الدين** و**الملّة** و**المذهب**- مكان بعضها في الكثير من الحالات تماما كما الحضارة و**الثقافة** والمدنية.

ويقدّم لنا "محمد سيّد أحمد المسير" في كتابه المدخل لدراسة الأديان، تصوّرين للدين:

أولهما: عندما يضاف إلى الله عزّ و جلّ فيتّخذ في هذه الحالة أوصافا عدة منها:

أنّه دين الحق، وذلك لقوله تعالى: «**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**»[5]. وفي قوله: «**ذلك الدين القيّم**»[6]، فهو الدين القيّم وهو الدين الخالص، كما في قوله جلّ شأنه: «**ألا لله الدين الخالص**»[7].

1- ابن منظور؛ لسان العرب، المجلّد الثاني، ص، .439

2- عبد المنعم الحفني؛ المعجم الشامل- المصطلحات الفلسفية –، ص، .359

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- ناصر بن عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل؛ الموجز في الأديان و المذاهب المعاصرة، سلسلة دروس في العقيدة، دار الصميعي للنشر و التوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1992، ص، 10.

5- القرآن الكريم؛ سورة الصف، الآية، .09

6- سورة الروم؛ الآية، 30.

7- سورة الزمر؛ الآية، 03.

ومن هنا يكون الدين حسب هذا التصوّر عبارة عن الحق الثابت المطابق للواقع وصاحب القوامة والهيمنة لاستقامته على الحق وقيامه على البرهان البعيد عن الباطل، ومن هنا يمكننا القول أنّ الدين عندما يضاف إلى الله ويمتاز بهذه الصفات فإنّ القصد منه التوحيد[1]، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: «**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم و لكن أكثر الناس لا يعلمون**»[2] .

وقوله تعالى في سورة الإخلاص:« **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفؤا أحد**»[3]، كما يعني التشريع، أي المنهج الموضوع لصلاح الحياة ومثلها، ودليل ذلك قوله تعالى: «**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**»[4]. وأخيرا يقصد به العبادة، كما في قوله تعالى:«**فاعبد الله مخلصا له الدين**»[5].

ثانيهما: قد يضاف الدين إلى البشر ومثال ذلك، مخاطبة الله تعالى لأهل الكتاب من النصارى بقوله:«**يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم و روح منه**»[6].

فدين النصارى المستشهد به هنا، «**يتناقض مع التوحيد و يقوم على الشرك**»[7]. والبيان من هذا أنّ الدين في القرآن إذا ما أضيف إلى البشر قد يكون حقّا وقد يكون باطلا، إذ ورد في الكتاب المقدّس ما ينافي التوحيد في الإسلام، يذكر الكتاب:«**فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلّلك، فلذلك أيضا القدّوس المولود منك يدعى ابن الله**»[8] تعالى الله عمّا يصفون.

1- محمّد سيد أحمد المسير؛ المدخل لدراسة الأديان، دار الطباعة- المحمّدية، القاهرة، مصر، ط1، 1994، ص، 20.

2- سورة الروم؛ الآية، 30.

3- سورة الإخلاص؛ الآيات، 1- 4.

4- سورة النور؛ الآية، 02.

5- سورة الزمر؛ الآية، 02.

6- سورة النساء؛ الآية، 171.

7-محمّد سيد أحمد المسير؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

8- إنجيل لوقا؛ 1/ 35.

ب- اصطلاحـــا:

تعدّدت التعريفات وتنوّعت المفاهيم، تعدّد وتنوّع المشارب إذا ما انتقلنا إلى المفهوم الاصطلاحي، لكلمة الدين.

ولنبدأ بتعريف "الشهرستاني" للدين بأنّه، «**الطاعة والانقياد**»[1]، فقد فصل أهل الديانات والملل عن أهل الأهواء والنحل. ويقصد بالمجموعة الأولى أهل الكتاب من مسلمين ونصارى ويهود. وأمّا المجموعة الثانية، فهم الصابئة والفلاسفة وآراء عرب الجاهلية... وهو بهذا الفصل قد جعل أرباب الديانات والملل مقابلين لأهل الأهواء والنحل(*). غير أنّ «**اللّغة لا تمنع إطلاق لفظ الدين أو الملّة على اعتقادات الوثنيين والصابئة وغيرهم، ممّن جعلهم الشهرستاني أهل أهواء ونحل**»[2].

وعلى غرار "الشهرستاني"، يقدّم "ماركس" MARX (**1818-1883**) تعريفا نقديا للدين لفصل هذا الأخير الدنيا عن الآخرة ودعوته للطبقة الفقيرة للاستسلام واليأس من الدنيا طمعا في الآخرة، يقول:« **إنّ الدين هو زفرة الخليقة المقهورة وهو مزاج عام بلا قلب وهو الروح لأحوال بلا روح: إنّه أفيون الشعوب**»[3].

وانطلاقا من هذا التعريف، يعارض "ماركس" فكرة أن تعوّل الطبقة الفقيرة في المجتمع، على عالم ما بعد الحياة وتزهد في الدنيا وتترك مجرياتها للطبقة الغنية بما أنّها لا تستطيع أن تتغلّب عليها، لتحسين أوضاعها المعيشية، فتجد في الدين ملاذا من عراك الحياة. فيقف "ماركس" إذا مواجها هذه الفكرة، فكرة الاستسلام والزهد، إذ لابد برأيه أن يثور الفقراء على الأغنياء حتى يستردّوا وضعهم في المجتمع ويرجعوا حقوقهم ويمنعوا هم بذاتهم بقوّتهم الاستغلال المفروض عليهم والموروث، ومنه ما يعرف بالثورة ضد استغلال طبقة لطبقة، فتصبح الفرص متكافئة للجميع وتتحقّق بذلك العدالة الاجتماعية.

وفي الديانتين النصرانية واليهودية، نجد فكرة«**الرّق والعبودية كنظامين من نظم المجتمع**»[4]، وهذا يعني الاستبداد الذي ثار عليه "ماركس" والدليل على ذلك، ما ورد في العهد القديم:« **إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا مجّانا**»[5]، وهذا يعني أنّ الاسترقاق جائز عند اليهود.

1- الشهرستاني؛ الملل والنحل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 2005، ص، 29.

(*) أهل الأهواء والنحل في رأي الشهرستاني هم المستبدون بالرأي، المخترعون له، الواضعون لحدود عقلية للتعايش بين الناس.

2- محمّد سيد أحمد المسير؛ المرجع السابق، ص، 33.

3- نقلا عن عبد المنعم الحفني؛ المرجع السابق، ص، 359.

4- المرجع نفسه؛ ص، 360.

5- سفر الخروج؛ 21/ 02.

وأما في النصرانية، فنجد في رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، افتخارا من المسيحيين بأنّهم أبناء حرة وهي **سارة**، وأما العرب فأبناء أمة هي **هاجر**، يذكر الكتاب: «**فإنّه مكتوب أنّه كان لإبراهيم ابنان، واحد من الجارية و الآخر من الحرة... إذا أيها الإخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد الحرة**»[1].

نلمس من هذا إذا ميزا عنصريا واضحا، إذ من هذا ينطلق المسيحيون في الحكم على غيرهم بأنّهم ولدوا مستعبدين وبالتالي فهم يقيمون الفوارق الاجتماعية ومن منطلق ديني.

ولكن من دون أن نحيد للإسلام كمسلمين، إلا أنّنا نجد الدين الإسلامي يخالف هذا كلّه، فهو دين يدعو إلى المساواة بين البشر ولا يقيم وزنا لنسل مستعبد أو نسل ينعم بالحرية، بل إنّ الدين هو توحيد الجميع لما فيه صلاح المجتمع وإزالة كل ما من شأنه أن يقسّم المجتمع إلى طبقات أو أحزاب، ذلك هو المجتمع الإسلامي، يقول عزّ وجلّ في سورة البقرة :« **وآتي المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب**»[2].

فالإسلام إذا، «**جعل تحرير الرقبة من آيات الإيمان، فليس الإيمان عبادات وطقوس شكلية وإنّما أن تؤتي ذلك، الذين ذكرهم في الآية ومنهم منصرف تحرير الرقاب، بل وجعل شرطه أن يكون عن محبّة فلا غضب ولا إكراه**»[3].

ومن الأديان ما هو سماوي وما هو غير سماوي، فالسياق المبتدئ للأديان السماوية، منطلق من اعتبار «**الله كأصل للخلق والوجود**»[4] في حين أنّ الأديان الغير سماوية تقّر«**بوجود الإله الأعظم، الخالق والمدبّر للكون من بين آلهتها**»[5]، آلهتها التي تتّخذ مختلف الأشكال والنماذج أو قوى الطبيعة أو مخلوقات كونية كالشمس والقمر والنجوم ...

إنّ الدين هو«**ما كان لله وما كان من عند الله... ومفهوم الله ليس شخصا وجد في زمن من دون زمن، وتأثّر ببيئة دون أخرى. إنّما مفهوم الله، حقيقة أبدية خالدة ترتفع فوق المستويات وتتجرّد عمّا للكائنات جميعها من صفات... هو الكمال المطلق بذاته**»[6].

1- رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، 4/ 22 و 31.

2- سورة البقرة؛ الآية، 177.

3- عبد المنعم الحفني؛ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

4- مهدي حسين البصري؛ موسوعة الأديان: التوحيد، الخلق، القيم، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، ط1، 2001، ص، 13.

5- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

6- محمّد البهي؛ الدين والحضارة الإنسانية، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 1974، ص، 74.

ويعني "محمّد البهي" من هذا التعريف، أنّ صفات الله عزّ وجلّ في منزلة يقصر عقل الإنسان على تصوّرها أو تحديدها، فهذه الحقيقة الأبدية وهذا الكمال المطلق هو الذي نسبه إليه هذا الدين، «**يوحي به إلى من اصطفاه و يكلّفه بتبليغه إلى الناس، والدين بعد ذلك هو ما أنزل من عند الله للناس جميعا وما طلب من الرسول إبلاغه إليهم**»[1].

ولكن الأديان تعدّدت وبتعدّدها نجد أنّ «**وصايا وأقوال كل دين، تحمل تعاليمه لأساسية وإنّها بطبيعتها وكميتها، تمكّن من دراسة أخلاق أصحابها**»[2]، كما يقول "جوزيف كاير" Joseph GAER، أي أنّها وإن اختلفت على مستوى المعتقدات إلا أنّها تجتمع على مستوى الأخلاق الإنسانية العامة، إذ لا تختلف الأديان فيما تدعو إليه من الفضائل في الخطوط العريضة ولو اختلفت في أشكال العقيدة وألوانها. فهي تدعو إلى أنبل الأخلاق الإنسانية ووضعها في الحياة موضع التطبيق.

فنحن نجد في معظم الأديان أنّ «**السلام ممدوح وأنّ الحرب مذمومة... وأنّ المثابرة مقبولة، والتراخي مستهجن، وأنّ أفعال الخير تفضل على العقيدة الصحيحة، وأنّ الإحسان يمتدح، والسرقة والكذب والجشع، تعتبر مستوجبة للزجر**»[3]، وهكذا.

وهذا ما نلمسه فعلا، فالاختلافات بين الديانات تجاوزت مواضيع القيمة والخصال الطيبة. لقد توصّل الإنسان إلى أنّ الدين فوق مستوى الغايات الشخصية، وفوق مستوى البيئات والأجيال والشعوب، على معنى أنّ ما فيه من خطوط عامة ترسم الطريق المستقيم الصالح لحياة الإنسان، من حيث أنّه إنسان، ومن حيث طبيعته البشرية، بغض النظر عن الزمان الذي يعيش فيه أو الأمّة التي ينتمي إليها أو البيئة التي يؤثّر ويتأثّر بها.

والمغزى من هذا، هو الوصول قطعا بالمنطق الإنساني إلى أنّ الدين «**لم يكن من صنع إنسان معيّن وإذا لم يكن من صنع إنسان معيّن، فهو من حقيقة متجردة فوق طبيعة الإنسان، وتلك الحقيقة هي الله أو الكمال المطلق، وهنا يكون الإيمان بالله بعد بحث في الدين وقيمته**»[4].

غير أنّ مفهوم الدين لا يتوقف عند الإيمان به بل يتعداه إلى العلم به أيضا، لأنّه باتحاد الإيمان بالعلم، يثبت الدين على قوام صحيح فلا يتزعزع في قلب المؤمن به بل يسعى دائما للتمسّك به وتقصّي أحكامه ومعانيه والتفاني في العمل بها.

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- جوزيف كاير؛ حكمة الأديان الحيّة، ترجمة: المحامي حسين الكيلاني، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، 1964، ص، 13.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- محمّد البهي؛ المرجع السابق، ص ص، 74- 75.

إذ بغير العلم والإيمان يصبح الدين خطرا على حياة الإنسان، لأنّه يعطي الفرصة حينذاك للكافرين به والمعادين لتعاليمه والمشككين فيما جاء به من وحي، فيستغلّونه أبشع استغلال ويشوّهون صورته، بتوظيفه كوسيلة لبلوغ الغايات والوصول إلى الأغراض وتحقيق المطامح المرجوة، والتي تكون في الغالب بعيدة كل البعد عن مبادئه وقيمه، أي أنّها ليست من الدين في شيء.

ويذهب "أحمد عبد الرحيم السايح" إلى أنّ الدين يقوم على مبدأ الإلوهية، أي الاعتقاد بوجود قوة أو قوى غيبية، يتمثّل في «**اعتقاد المتديّن، بوجود صلة له بهذه القوة أو القوى، يدفعه ذلك إلى التوجّه إليها في رغبة ورهبة، ملتمسا عونها، مؤملا تحقيق رغباته، وتأمين حاجاته**»[1]. ويبقى المتديّن ساعيا لتوثيق صلته بهذه القوة أو القوى، فيتقرّب إليها بالخضوع التام «**عن رغبة واختيار وتوجّهه إليها بالتمجيد، والتقديس والطاعة، والعبادة**»[2].

في حين يوجز "إرنست رينان" Ernest Renan **(1823-1892)** في كتابه دراسات حول التاريخ الديني، أنّ «**الدين، أغلب مظاهر الطبيعة الإنسانية وأكثرها جاذبية**»[3]. وهو بهذا، يوافق "اشبنغلر" بأنّ فعل التديّن «**يفرض على الإنسان، ميزانا من نوع جدّ أرقى**»[4]، فهو«**مؤسسة اجتماعية، لا تستغني عنها أية جمعية بشرية، مهما كانت بدائية**»[5].

وإنّ كل دين يتضمّن، كما تقول "جاكلين لاغريه" Jacqueline LAGREE «**مجموعة معتقدات(*) أو فرضيات تتعلق بالإله (أو الآلهة) ومجموعة قواعد ممارسة... تشكّل التعبّد، وتجمعا من الناس، يتقاسم هذه المعتقدات وهذه الممارسات**»[6]. أي أنّه جزء مهم جدا، من المحتوى الذي تتضمنه أي جماعة بشرية والحضارة بأكملها ولذا يصعب علينا فهم أية حضارة فهما صحيحا شاملا دون الإطلاع على دينها الغالب، سواء أكان الدين إلهيا سماويا أم وضعيا أرضيا، أم غير ذلك.

1- أحمد عبد الرحيم السايح؛ بحوث في مقارنة الأديان: الدين- نشأته- الحاجة إليه،دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدوحة، قطر، ط1، 1991، ص، 29.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- نقلا عن فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 15.

4- اشبنغلر اوزفالد؛ تدهور الحضارة الغربية، الجزء الثاني، ص، 11.

5- العميد الركن طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، 1963، ص، 09.

(*) إنّ كلمة معتقد يجب أن تكون منفصلة عن كلمة إيمان التي لا تصلح إلا لمعنى علاقة ثقة في إله ذاتي وفي الشهادة بوحيه. راجع جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص، 08.

6- جاكلين لاغريه؛ الدين الطبيعي، ترجمة: منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص، 08.

ويختصر "لالاند" الدين في الصيغة التالية: **«إنّ أي دين هو منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المتعلّقة بأمور مقدّسة أي منفصلة محرّمة وهي معتقدات وممارسات تجمع في إيلاف أخلاقي واحد يدي جامع»**[1].

وهكذا نقرّر مع الدكتور "محمد عبد الله دراز"، أنّه إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية Etat Subjectif بمعنى التديّن، فهو**«الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات غيبية-علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرّف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقادا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية، في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد»**[2]. ويوجز أكثر بالقول بأنّ الدين هو**«الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة»**[3].

وأما إذا بحثنا عن كنهه من حيث هو حقيقة خارجية Fait Objectif والتي يقصد بها جملة المبادئ التي تدين بها أمّة من الأمم، اعتقادا أو عملا، فهو**«النواميس النظرية، التي تحدّد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العلمية التي ترسم طريق عبادتها»**[4].

فالدين هو ما أنزله الله علينا في كتابه، وما يراه أهل الكتاب من يهود ونصارى- كلّ بحسب كتابه- المهم أنّ هدفه تنظيم حياة الإنسان، وفق مصدر إلهامي محدّد، وأنّ غايته هي استقامة الفرد في أخلاقه مع نفسه أولا، ثم مع الآخرين في المجتمع بموجب العلاقات الاجتماعية.

«فلا شك أنّ الإنسان صاحب الإيمان وبالتالي صاحب الاستقامة سيكون إسهامه في بناء الحضارة ليس إسهاما قويا فحسب، وإنّما إسهاما حضاريا صافيا يعبّر عن الحضارة في أجلى صورها»[5].

1- أندريه لالاند؛ موسوعة لالاند الفلسفية، المجلّد الثالث R-Z، ص، 1206.

2- عبد الله دراز؛ الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، الكويت، دط، 1980، ص، 52.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5- محمّد البهي؛ المرجع السابق، ص، 77.

1-2- الأديـــان العليـــا عند آرنولـــد توينـــبي:

إنّ العبادة التي سمت الشعوب عبر التاريخ لممارستها «**عبادة تقتضي وجود عابد ومعبود، أيّا كان هذا أو ذاك وتستلزم أن يكون المعبود مقدّسا، تقدّم إليه الصلوات والقرابين، وتقام له الطقوس**»[1].

لكن بمجرد انهيار الحضارات وتحللها، شعرت هذه الشعوب العابدة للآلهة مرة ثانية بالشعور الأول ذاته ألا وهو الفراغ الروحي الناجم عن فقدان الثقة بالآلهة، ممّا استلزم ظهور مبشّرين بأديان مختلفة أثناء عصر الاضطرابات الذي يلي انهيار الحضارة، فوجدت فيها هذه الشعوب ضالتها، واختار الإنسان فيها من ديانة ما يرى أنّها تفي بمتطلباته الروحية، وتجيب عن أسئلته اللامتناهية عن كل شيء، يقول توينبي: «**تولد الأديان العليا في عصر الاضطرابات الذي يلي انهيار الحضارة وتتطوّر في الإطار السياسي لدولة عالمية**»[2].

اعتمد توينبي على هذا إذا لتفسير انبثاق الأديان العليا **Eglises universelles** من رحم البروليتاريا الداخلية- إحدى الطبقات الثلاث الناجمة عن انقسام الجسم الاجتماعي للحضارة المنهارة- وهو لا يقصد بتسميتها **عليا** على أنّها أديان سماوية كما يمكن أن يفهم سطحيا، وإنّما لأنّ كلا منها يصبو إلى العالمية، أي أنّ كلا منها تسعى لأن تكون الديانة الأكثر انتشارا على وجه الأرض، وهذا يعني أن تصبح هذه الديانة موحّدة لجميع الشعوب والقارات، وكذلك للتسامي على باقي الأديان الأخرى، سماوية كانت أم وضعية. وأيضا لتحكّمها بمصير الحضارة و هذا هو الجانب المهم أكثر في الموضوع.

يقول توينبي: «**تثبت البروليتاريا الداخلية قدرتها على الخلق بإقامة ديانة عالمية... وذلك أثناء انشغال الدول العالمية بالمهام العسكرية، ممّا يعطيها فرصة إيجابية لفرض ديانة رسمية**»[3]، أي أنّه لا يتأتّى لهذه الأديان الانتشار والنمو أكثر فأكثر، إلا بمساعدة الظروف الناجمة عن انهيار الحضارة، والمتمثّلة في إقامة إمبراطورية عالمية.

فإذا كانت«**الأقلية المسيطرة تقدّم الحروب، فإنّ البروليتاريا الداخلية تقدّم الأديان، تنبثق عن الأولى الدول العالمية، وتنبثق عن الثانية الأديان العالمية**»[4].

لكن وبما أنّ الدول العالمية تنشغل بالحملات العسكرية لفرض كيانها وضمان استمرارها، يتعاظم دور

1- علي عبد المعطي محمّد؛ مقدّمات في الفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، 1985، ص، 291.

2- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 312.

3- Id. 276

4- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 89.

البروليتاريا الداخلية في ازدهار الأديان، «**في حين تنحو الأقلية المسيطرة إلى الزوال**»[1].

إنّ صانع الحضارة، يقول توينبي:«**ليس بحيوان اجتماعي فحسب، إنّما أيضا هو شخصية دائمة للبحث عن إقامة علاقة مباشرة مع حقيقة روحية عالية**»[2]. وانطلاقا من هذا لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن ندرس أي حضارة دون أن نضع تحت البحث والتحقيق دينها أو أديانها.

وأما عن زمن ظهور هذه الأديان العليا فيقول :«**إنّ ظهور الأديان العليا يمتد إلى ثلاثة عشرة قرنا من الزمان، ابتدءا من جيل أموس(*) Amos واوزي Osée(*)(*) حتى ظهور محمّد Mohammad**»[3]، صلى الله عليه وسلّم.

وإنّ ما يزال قائما منها إلى حد الساعة، الهندوكية واليهودية والزرادشتية والبوذية والمسيحية والإسلام(*)(*)(*)[4].

وقد رأى في معالجتها جميعا أنّ كل واحدة منها قد أثبتت قيامها بذاتها، فهن«**متعادلات روحيا، وأنّ أية واحدة منهن ليس تامة ولا بالغة الكمال، ولكن مع اتصاف كل منها بنواح مميّزة من نواحي جهاد الإنسان الروحي**»[5]. فهذه الأديان تعبّر بوضوح عن تنوّع الطبيعة البشرية وتسعى إلى خلق وحدات متماسكة بداخلها، وهذا ما أراد توينبي بقوله: «**إنّ الدين يربط الإنسان بأخيه الإنسان ومن ثمّ بالعالم الطبيعي**»[6].

فإن نجح أفراد المجتمع في التماسك إنسانيا، نجحوا بذلك في الارتباط بالطبيعة وبالتالي محاكاتها، فينتج عن هذه المحاكاة حضارة إنسانية. وتكمن وراء الوصول إلى هذه الصورة من النجاح قوة هي ذاتها القوة التي تسلّحت بها البروليتاريا الداخلية، فصمدت أثناء معاناة حضارتها لسكرات الموت. و لم تمت-كما الحضارة- بل خلقت لنفسها عالما جديدا برؤى جديدة ورسالة جديدة، هي رسالة الروح، فالبروليتاريا هي إذن هؤلاء الأفراد الذين «**ينقدون مدينة الدمار مما قدر لها إذ يحوّلونها إلى سلام الله**»[7] بدين الله.

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 276.

2- Id. 325.

(*) أموس **Amos**: وكان هذا النبي في مملكة الشمال المعروفة باسم "مملكة إسرائيل "و كان يدين المظالم الاجتماعية التي ظهرت في عهده.

(*)(*) اوزي **Osée**: وظهر في مملكة إسرائيل أيضا و يدين هو الآخر الفساد الديني و الأخلاقي في عهده. لمزيد من المعلومات راجع موسى معيرش، الديني و السياسي في اليهودية و الإسلام بين المقدّس و المدّنس، مرجع سابق، ص، **51**.

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 326.

(*)(*)(*) قام توينبي بترتيب الأديان هنا حسب تواريخ ظهورها.

4- Id.

5- مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، ص، 366.

6- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 325.

7- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 183.

يقول "تشارلز فرانكل" أنّ البروليتاريا الداخلية هي الفئة التي«**يجب أن نتّجه إليها من أجل النظام الخاص الذي يسمح بولادة مجتمع جديد من موت مجتمع قديم**»[1]، فهذا هو دليل ما ذهب إليه توينبي في أنّ« **الديانة هي الشرنقة التي تولد فيها الحضارة الجديدة**»[2]، حيث ينطلق أفراد خلاّقون، يموتون بالنسبة للحضارة الماضية ليولدوا في مجتمع جديد، مجتمع معطياته الآن غير معطيات الماضي، «**فهم إذ يرون أسوار مدنهم تتهافت، يمدّون ببصرهم إلى أبعد من هذه المدن، إلى مدينة أخرى أسوارها أبدية، مدينة ليست من الجسد ولكن من الروح، مدينة لا يمكن أن تموت، لأنّها خارج نطاق الزمن**»[3]، تلك هي مدينة الله، مدينة الدين.

إذن فالذي أبدعت فيه البروليتاريا الداخلية هو«**خلق دين أسمى، ففي الدين الأسمى رؤيا قادرة على إيجاد التحوّل، وهي التي تحيل الموت حياة... وتستعمل الأديان الجديدة تعابيرا مختلفة، ولكنّها جميعا تحمل إلى الجنس البشري رسالة تحوّل واحدة**»[4].

فالأديان وحدها تستجيب لمشاعر الإنسان، فتضبطها وتقوّمها وتؤمّنها ممّا تخشاه، فتجد فيها الروح الإنسانية إذا ما يهديها في حيرتها، ويقوّيها في ضعفها، ويرفعها ويرقّيها في مراتب إنسانيتها، ذلك لأنّ للدين« **أثره العملي في توجيه السلوك الفردي والاجتماعي وفي تكييف النظم والمؤسسات وفي تحديد الفضائل والأخلاق والقيم، فهو... مرآة صالحة تعكس لنا مفاهيم الحضارة وصورها العامة**»[5].

إذ حين تضطرب أحاسيس ومشاعر أفراد المجتمع بطبيعتهم الذاتية وبفعل الأحوال والظروف المعيشية التي يتقلّبون فيها، يصبح الإنسان صورة من الاضطرابات النفسية، باختصار«**يخشى الموت الذي يحرمه لذائذ الحياة ويلقيه في أغوار المجهول**»[6]. هذا ما يستدعي قيام ديانة «**كوسيلة لمساعدة الناس على البقاء، ثم أصبحت فيما بعد و بطريقة متزايدة، وسيلة لتوجيه طاقات المجتمع نحو غايات معيّنة**»[7].

ومعنى ذلك أنّها- الديانة- قد تضمّنت العقائد التي توّصل إليها المجتمع في أصل الإنسان وجوهره وفي مصدر الكون وطبيعته وفي منشأ الحقيقة وسبل بلوغها. هذا ما دفع توينبي للقول :«**إنّ الدين مظهر من مظاهر الحضارة بل وأهم مظهر لها**»[8]. كونه المجال الذي تتجلى وتبرز من خلاله، ويؤكّد "كولن ولسون" على هذه الأهمية بقوله: «**إنّ الأمر الوحيد الذي يستحق أن يكافح من أجله الإنسان، هو أن يكون قدّيسا**»[9]، مضيفا بأنّ توينبي قد تفطن إلى هذا من قبل فقد رأى تلك الحقيقة في كل الأديان.

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 319.

3- تشارلز فرانكل؛ أزمة الانسان الحديث، ص، 183.

4- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- قسطنطين زريق؛ في معركة الحضارة، ص، 138.

6- المرجع نفسه؛ ص، 94.

7- رشتون كولمبورن؛ أصل المجتمعات المتحضّرة، ص، 113.

8- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 319.

9- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 157.

وهو ما دفعه إلى تبنّي موقف توينبي معتبرا أنّهما قاما بنفس المحاولة لتبيين أهمية الروح، وما يقابل ذلك من لا أهمية مشاكل عالمنا[1].

لكن ورغم هذا التوافق، إلا أنّ "كولن ولسون" يخالف توينبي من زاوية أخرى، إذ يرى بأنّ العنصر الذي يجعل من أي دين قوة تستقطب حولها الحضارة، يتألّف من الأسطورة والعقيدة، وليس من الحقيقة العامة -ذلك أنّ توينبي يرى بأنّ الأديان كلّها، هي طرق مختلفة تؤدّي إلى حقيقة واحدة- في حين أنّ "ولسون" يرى أنّ المؤمن المسيحي لا يكون كذلك إلا إذا سلّم بأنّ السيّد المسيح هو الله متجسّدا وأنّ جميع البشر يخلصون عن طريقه[2].

فنستطيع بذلك- يواصل "ولسون"- احتمال أن تعلن الكنائس مثلا، أنّ المسيح لم يكن أفضل من النبي محمّد صلى الله عليه وسلّم، فذلك «**سيؤدّي إلى نبذ الناس للمسيحية، وإنّ ذلك ليدعوا إلى الرثاء إلا أنّه صحيح بالفعل... وإذا كان الدين يختلف بالنسبة للفرد العادي عنه بالنسبة للقدّيس أو الفيلسوف، فلابد أن يكون الدين، أكثر من مجرّد إدراك الفيلسوف للحقيقة الخالدة، لابد أنّه أسطورة وعقيدة وطقـــوس**»[3].

إنّ المنطق الذي قدّم به "ولسون" وجهة نظره يبدو في البداية مقبولا إلا أنّ تعميمه يطرح أكثر من سؤال، ففي الوقت الذي قد يكون فيه مقبولا بالنسبة للمسيحي والبوذي... فمن دون شك لن يكون كذلك بالنسبة للمسلم ، فإذا جئت وقلت له بأنّ النبي محمّد صلى الله عليه وسلّم، لم يكن أفضل من عيسى أو موسى عليهما السلام أو بوذا مثلا، لما صدّقك أولا، ولما أدّى به ذلك إلى نبذ الإسلام- مثلما صار مع المسيحية- ثانيا. بل إلى البرهنة منه – أي من الإسلام- بالحجة والبيان، على أنّ محمّدا صلى الله عليه وسلّم كان أفضل الأنبياء وخاتمهم أجمعين.

فالفرق بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب أو الوثنيين يكمن هنا، في درجة الإيمان والثقة الكبيرتين في القرآن الكريم- كتاب الله الذي لم يحرّف- فإيمان المسلمين بكتابهم يتجاوز أي محاولة للتشكيك، أو لفرض أي احتمال كان، لذا قلنا أنّ ما يجهله "كولن ولسون" عندما أقام هذه الحجة أنّ هناك ديانة سماوية، يعلو إيمان الناس بها إلى أن تكون فوق كل هذه الاعتبارات.

إنّ تسليم المسلمين-مثلا- بأنّ الشرق تشرق من المشرق وتغرب من المغرب، هو ذاته التسليم بأنّ القرآن هو الحقيقة الأزلية، ومنه لا مجال للمسلمين- كما للمسيحيين هنا- من عرض مثل هذه الاحتمالات.

1- المرجع السابق؛ ص، 158.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

ولكن "كولن ولسون" يعود ويقول أنّه لا يستطيع أن يهاجم توينبي من هذه الزاوية، لأنّ الجانب المهم في أبحاثه-أي توينبي- في الأمور الإيجابية التي يتوّصل إليها، من ذاك إدراكه «**بعدم كفاية التفكير العقلي الخالص، فيحاول أن يعثر على إيمان ما**»[1].

و نعود إلى الحديث عن الأديان العليا، بحيث نجد "محمود صبحي" يرى أنّها تستفيد«**من الوحدة التي تقيمها الإمبراطوريات بين أقاليمها، سواء كانت وحدة سياسية أو لغوية أو تشريعية أو مالية أو انتشار شبكة المواصلات بين أجزائها، فذلك كلّه ممّا يساعد على انتشارها**»[2]. ومن هنا تقوم الأديان العليا أثناء فترة تكوين الإمبراطورية أو الدولة العالمية التي تلي انهيار الحضارة التي كانت قائمة «**بدور العذارى(*) الكامنة في شرانقها**»[3]. وذلك لنقلها مقوّمات الحياة وأبجديات التعايش إلى الحضارة الجديدة، بعدما حافظت بطريقتها الخاصة عن هذه الحياة. في هذا الصدد يقدّم توينبي مثالا عن الحضارة الهلينية، إذ يقول:« **عند انهيار الحضارة الهلينية، تكفّلت الأديان العليا بإنقاذ الجنس الإنساني بأكمله، وليس فقط إنقاذ أولئك الذين آمنوا بها، فقد قامت بملأ الفراغ الذي تلا انهيار الحضارة ومداواة الجراح، حتى حين قيام حضارة أخرى... هكذا توّلدت الحضارة الغربية عن الحضارة الهلينية، عن طريق الديانة المسيحية**»[4].

و لم يكن الدور الذي لعبته الأديان العليا في الحضارة الهلينية متفردا بل إنها قامت بدورها هذا في كل حالة مشابهة وهذا هو القاسم المشترك بين هذه الأديان، إذ أنّ كلا منها قد نما وترعرع في إطار حضارة معيّنة، فإذا أخذنا البوذية نجدها قد نمت داخل الحضارة الهندية، في حين أنّ اليهودية كانت وليدة الحضارة السريانية، في الوقت الذي كانت فيه الزرادشتية تنشأ من صلب الحضارة الإيرانية، وأخيرا كانت كل من المسيحية والإسلام قد ولدتا من التقاء الحضارتين السريانية والهلينية[5].

وهذا ما نجد الإشارة إليه بوضوح في ما قاله "محمود صبحي" في أنّ الأديان تقوم بدور الأم في انتساب الحضارات الحالية فقد توّلدت حضارة الشرق الأقصى عن الحضارة الصينية، حيث قامت بوذية المهايانا(*)(*) بدور الأم، وأنجبت الحضارة السندية الحضارة الهندية، وقامت العقيدة الهندوكية بدور الأم كذلك، أما الحضارتان الإيرانية والعربية، فهما ابنتا الحضارة السريانية عن طريق الإسلام[6].

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 287.

(*) أي أنها تتكون في الداخل دون أن ينتبه أحد إليها حتى تخرج للمجتمع بما كانت تنجزه في الخفاء.

4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 318.

5-Id. 326- 328.

(*)(*) بودية الماهايانا: مذهب من البوذية انتشر في الصين و التبت و هي لا تنادي بإماتة الشهوات و إنما ممارسة الحياة الاجتماعية و الزواج في حدود الفضيلة، Maha تعني كبير، أي أن العربة كبيرة تتسع للكثيرين في طريقهم إلى النرفانا: السعادة الأبدية. راجع أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص، 267.

6- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 89.

وتضيف "آمنة تشيكو" بأنّ الأديان لا تحمل فقط جذور الحضارات القديمة وتحتضنها من أجل إنجاب حضارات جديدة فحسب ولكنّها تضفي على هذه الأخيرة بعضا من خصائصها ومميزاتها من أعراف وقيم ومبادئ، فتصوغها بذلك في قالب جديد بكسائها حيوية وانسجاما وقدرة على الخلق لا تحدوها قدرة. مثال ذلك: احترام العمل اليدوي اليوم في الحضارة الأوروبية الحديثة، هو ثمرة التعاليم التي جاءت بها المسيحية بعد أن كان محتقرا في حضارة الأب: الحضارة الهلينية[1].

والدليل على ذلك في ما يقوله إنجيل "متّى": «**إن تحرصوا على أن تكونوا هادئين وتمارسوا أموركم الخاصة و تشتغلوا بأيديكم**»[2]. فهناك قيم قديمة لم يعطى لها أهمية إلا في إطار الحضارات الحالية، وتضيف أنّ أخطر كارثة يمكن أن يواجهها عالم اليوم، هو أنّ الشعوب-خصوصا الشعوب الغربية- قد«**استعاضت عن الفراغ الديني بإيديولوجيات لا تفترق عن الأديان البدائية من حيث وثنيتها، حيث عبادة الذات وإن تستّرت تحت شعار القومية أو الاشتراكية، متمثّلة في تأليه الدولة أو الحاكم**»[3].

إنّ هذا هو ما حذّر منه توينبي بقوله:« **على الأديان العليا أن تقاوم بكل ما تستطيع من قوة، لتتجاوز كل العقبات والحواجز التي من شأنها أن تسير بالحضارة في اتجاه علماني، سواء أكان ذلك اجتماعيا أم ثقافيا**»[4]. وفي هذا تحذير واضح من خطورة ترك الأديان، أو التديّن شكليا، واستبدال قيم الدين السامية داخل الروح الإنسانية بقيم وأيديولوجيات معيّنة، فتصبح هي الإله المشرّع والكتاب الذي لا يجوز الحياد عنه، ذلك أنّ أولئك الذين يعتبرون الأديان سرطانات، فهم أولئك الذين استبدلوا عبادة الإله بعبادة دكتاتور أو دولة دكتاتورية، هنا يبيّن توينبي بأنّه: «**تبدو الأديان في إطار هذه الدول العالمية كسرطان اجتماعي**»[5]، فقد استفادت هذه الأديان العليا من قبل من ما وفرته لها الإمبراطوريات باعتبارها دولا عالمية فارضة لهيمنتها، من ظروف ملائمة للتطوّر والانتشار الواسع[6].

غير أنّ رغبة الإنسان في السيطرة على الطبيعة، يقول "فضل الله محمد إسماعيل":«**أقل أهمية... من إثراء الجانب الروحي فيه، وإنّ ما نقوله اليوم ليس إلا ترديدا لما قاله سقراط منذ أكثر من ألفي عام، حين أعرض عن دراسة الكون للبحث في داخل الإنسان عن تلك الطاقة الروحية الكامنة فيه**»[7]، حيث اتخذ لنفسه شعارا وجده مكتوبا على أحد أبواب معبد دلفي وهو **اعرف نفسك بنفسك**، ممّا جعله ينزل بالفلسفة من السماء إلى الأرض. إن تلك الطاقة الروحية هي المعيار الحقيقي لرقي الإنسان في كل المجالات.

1- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 89.

2- 1تسالونيكي؛ 4/ 11.

3- آمنة تشيكو؛ المرجع نفسه؛ ص، 90 .

4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 319.

5-Id. 312.

6-Id. 277.

7- فضل الله محمّد إسماعيل وعبد الرحمن خليفة؛ الأيديولوجية وفلسفة الحضارة، ص، 320.

إنّ هذا بالفعل، هو جوهر البعد الديني الحضاري لدى توينبي، لأنّ ما وصل إليه الإنسان من منتهى الارتقاء في كل ميادين حياته، ما هو إلا نتاج الارتقاء الروحي السابق[1]. ومعنى هذا أنّ السمو بالحياة الروحية هو مفتاح الارتقاء والازدهار، والتنامي المتواصل في المجتمع ومن ثمّ الحضارة. **«إنّه لا أمل في استقرار السلام أو طمأنينة الإنسان إلا بالاستناد إلى الدين، إنّ التاريخ يصبح قصة عابثة يرويها أبله، إذا لم يكتشف الإنسان فعل الله الواحد الحق»**[2].

وقد كان توينبي أكثر دقة وإيضاحا، عندما بيّن الفرق بين الديانات: الهندوكية واليهودية والزرادشتية، وبين نظيراتها البوذية والمسيحية والإسلام، وهو ما نلمسه في قوله:**« إنّ الديانات الهندوكية واليهودية و الزرادشتية، تلزمك حين اعتناقها بأن تصبح فردا في مجتمعها، تعيش تماما كما هم الهندوس أو اليهود أو الزرادشتيون»**[3]. نفهم من هذا محاولة توينبي، إظهار التعصّب الواضح من هذه الديانات على مبادئها وتعاليمها، وهذا ما يفسّر عدم انتشارها وعزوف الناس عليها في العالم بقدر الديانات الثلاث الأخرى: البوذية والمسيحية والإسلام، **«التي فتحت باب الإيمان على مصراعيه، وبقيت تسعى لأن تصبح كلّ منها ديانة العالم بأسره ولو أنّ ذلك لم يتحقق لأي منها، إلا أنّها نجحت على الأقل في أن تضم إليها شعوبا كثيرة»**[4]، بل وقارّات بأكملها، وذلك بفضل سياسة التبشير أو الفتوحات، والعمل المتواصل على كسب أكبر عدد ممكن من المؤمنين.

ويذهب "تشارلز فرا نكل" إلى أنّ المغزى العام من عملية الحضارة كلّها عند توينبي، هو أن يعدّ هذه الروح الإنسانية عن طريق التحدّي والاستجابة، **«إعدادا يؤدّي إلى هذا التحوّل، أي التخلّص من جمودها وماديتها، ودخولها في شركة القدّيسين»**[5].

نخلص من كل هذا لنقول بأنّ الأديان العليا قد انبعثت عند توينبي من رحم الحضارات التي زامنتها، فنمت وازدهرت أكثر في إطار الدول العالمية، ومن ثمّ انتشرت في أصقاع العالم.

وبما أنّ توينبي قد عرض الحضارات الحالية الباقية عن الحضارات القديمة، وعرض الديانات التي كانت ركيزتها الأساسية في القيام، فنستطيع أن نتكلم إذا عن قانون تولّد الحضارات عن الأديان، ذلك أنّ الحضارات الخمس الحالية، المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية والإسلامية والهندية وحضارة الشرق الأقصى، قد ولدت من حضارات سابقة عليها عن طريق الأديان العليا، وهذا ما يفسّر ارتكاز توينبي على دور الدين بالدرجة الأولى في عملية الحضارة، لما لهذا الدين من قوة روحية، إنمائية لأسس الحضارة.

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 332.

2- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 280.

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 326- 328.

4- Id.

5- تشارلز فرا نكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 183.

فماذا لو تلتقي هذه الديانات«**لقاءا روحيا حميما، بعضها مع بعض، ومهما تكن نتيجة ذلك الحدث الروحي العظيم الوشيك، فمن الواضح أنّه يحتمل له، أن يفتتح حقبة جديدة في الحياة البشرية، في هذا العالم**»[1].

2- المبحث الثاني: مفهوم الدولة

مثلما عرض توينبي للأديان العليا، يعرض كذلك للدول العالمية **Etats universelles** مهد هذه الأديان، والتي تأتي- إن صح القول- كحل مؤقت إثر انهيار الحضارة.

إنّ هذه الدول هي بالدرجة الأولى علاقات قانونية، لكنّها تحتاج إلى الروابط الروحية لتزيد روابطها القانونية متانة، ولو أنّها قد تصدّت في وقت من الأوقات لظهور الأديان العليا بها وتغلغلها بداخلها، ورغم أنّ السمة البارزة في تديّنها كانت الوثنية، إلا أنّها مع ذلك كانت الميدان الأوّل الذي نمت فيه هذه الأديان وتبلورت لتخرج من ثمّ إلى العالم ويتعاظم شأنها .

فما هو مفهوم الدولة أولا ؟ ومن ثمّ، ما هي الدول العالمية تبعا لتوينبي ؟

1- آلبان. ج. ويدجري؛ التاريخ وكيف يفسّرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ص، **283**.

2-1- لغـــة و اصطلاحـــا:

أ - لغـــة:

جاء في لسان العرب أنّ الدولة هي الفعل والانتقال من حال إلى حال، مثلا الانتقال من حال الشدة إلى الرخاء[1]. ومعنى ذلك أنّ الدولة تمر بمراحل فمن الشدّة الى الرخاء ومن الضعف الى القوة. وتعرض لها أحوالا بحسب هذه المراحل.

ب- اصطلاحـــا:

إنّ الإنسان عند "أرسطو" ARISTOTE **(384ق.م-322)**حيوان اجتماعي، لا يستطيع أن يعيش إلا داخل دولة وإلا كان حيوانا أو إلها، فتكون الدولة بذلك هيئة ضرورية في حياة الأفراد والمجتمعات.

إنّ أهم الدول وأقواها على الإطلاق، هي تلك التي نمت في رحاب حضارة ما وتطوّرت من خلالها، ولعلّ الداعي الأول لقيام دولة ما، هو التجمّع البشري الذي وصل إلى مرحلة لابد فيها من وضع علاقات قانونية تنظم شؤون الأفراد، وتحدّد حقوقهم و واجباتهم اتجاه بعضهم البعض، واتجاه ذلك المجتمع الذي يعيشون فيه، حتى لا تعمّ الفوضى ولا تتقهقر النظم الاجتماعية.

فالعامل الأوّل لقيام الدولة إذا، هو تجمّع عدد من الأفراد يحتاجون إلى وجود قانون وسلطة تسهر علن مراقبة هذا القانون وتطبيقه.

ومنه فالأفراد هم الذين يضعون اللبنة الأولى للدولة تماما كما الحضارة، وهم من يعمل بالدرجة الأولى على تحديد وتنمية هذا التنظيم، الذي خضع في تطوّره لتأثير مختلف الأحداث التي عرفها التاريخ، فجعلته يتغير من شكل لآخر ممّا استلزم تباين وتعدّد واختلاف التعريفات الموضوعة من طرف جموع الفلاسفة والسياسيين وغيرهم ممّن شغلهم موضوع الدولة، فكتبوا وعلّقوا وانتقدوا وأسسوا النظريات المختلفة، لتحديد هذا المفهوم.

فمـــا هـــو مفهـــوم الدولـــة عنـــد هـــؤلاء ؟

يعرف "لالاند" الدولة على أنها: «**مجتمع منظم ذو حكومة مستقلة، ويضطلع بدور شخص معنوي اعتباري مميز اتجاه المجتمعات المماثلة الأخرى التي يقيم معها علاقة** »[2].

ويقول عبد "الوهاب الكيالي" في موسوعة السياسة: «**تعود نشأة الدولة إلى ميل الإنسان نحو الحياة الاجتماعية، التي تصبح صعبة في غياب عقد اجتماعي يضع قواعد التصرّف والحقوق والواجبات**

1- ابن منظور؛ لسان العرب، المجلّد الثاني، ص، 431.

2- أندريه لالاند؛ موسوعة لالاند الفلسفية، المجلّد الأول A-G، ص، 369.

الاجتماعية للأفراد، ويتضمّن وجود سلطة عليا في المجتمع، قادرة على التحكيم والحفاظ على القانون»[1].

ومعنى هذا أنّ الدولة تنشأ لتحفظ مصالح الناس ومصالح المجتمع عن طريق قوانينها، وبالتالي تدفع أفراد المجتمع إلى احترامها إذ تُعدّ«**الكيان السياسي والإطار التنظيمي الواسع لوحدة المجتمع، والناظم لحياته الجماعية، وموضع السيادة فيه، بحيث تعلو إرادة الدولة شرعا فوق إرادات الأفراد والجماعات الأخرى في المجتمع**»[2].

ولا يكون تجسّد ذلك لا يكون إلا من خلال امتلاك سلطة إصدار القوانين واستخدام هذه السلطة في تطبيق هذه القوانين، بهدف ضبط حركة المجتمع وتأمين السلم والنظام، وبالتالي تحقيق التقدّم والرقي في الداخل، والأمن من العدوان في الخارج.

ويقوم نشوء الدولة «**على تشكيل سلطة عامة مزوّدة بجيش وبوليس وسجون، والأنظمة المختلفة للقهر**»[3]. فهذا هو الجهاز الحاكم في الدولة، من وجهة نظر الماركسيين الذين فسّروا الدولة على أنّها التنظيم السياسي للطبقة السائدة في الاقتصاد ويؤرّخ من ثمّ لظهورها بانقسام المجتمع إلى عدة طبقات، حيث إذا قامت الدولة في مجتمع قائم كليا على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، تصبح أداة في أيدي الطبقة المستغلّة السائدة، تستعملها كيفما شاءت لخدمة مصالحها البعيدة بطبيعة الحال عن مصالح العامة من الناس.

ويذكر "عبد المنعم الحفني" في معجمه الشامل للمصطلحات الفلسفية، أنّ الدولة «**تنظيم سياسي يكفل حماية القانون و وتأمين النظام لجماعة من الناس، تعيش على أرض معيّنة بصفة دائمة**»[4].

وإن نظرنا إلى الدول القديمة، نجدها قد قامت على أساس اجتماعي- ثقافي- ديني، مثال ذلك: دولة المدينة Cité- Etat عند الإغريق، فقد اعتبر كل من "أفلاطون" PLATON (**428** ق.م-**347**) و"أرسطو" دولة المدينة، «**نموذجا مثاليا للمجتمع، لكونها قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي اقتصاديا واجتماعيا وأخلاقيـــا**»[5]، إذ أنّه في العالم الهليني، خرجت المدن الدول إلى الوجود، «**نتيجة لفرض الوحدة السياسية على مجتمعات كانت على قدر من الضآلة، لا تسمح بأن تؤلّف كل منها على حدة، دولة لها كيانها وفعاليتها**»[6]. وقد قدّم توينبي مثالا عن ذلك متمثلا في اسبرطة Sparte، التي تكوّنت من اتحاد بين خمس قرى[7]، فعلى مثل هذا النموذج، تكوّنت المدن الدول.

1- عبد الوهّاب الكيالي وآخرون؛ موسوعة السياسة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، **1991**، ص ص، **702-703**.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- م. روزنتال، وب. يودين؛ الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط5، **1985**، ص، **202**.

4- عبد المنعم الحفني؛ المعجم الشامل- المصطلحات الفلسفية –، ص، **352**.

5- نقلا عن عبد الوهّاب الكيالي وآخرون؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، **41**.

7- المصدر نفسه؛ ص، **42**.

وحسب توينبي فاللفظة اليونانية التي استخدمت للدلالة على المدينة الدولة والتي كانت قد تكونت نتيجة لعملية الإسكان المشترك هذه هي **بوليس** Polis، و معناها الأصلي هو القلعة، إذ كان من الطبيعي أن تقيم المجتمعات التي تسكن سكنا مشتركا داخل مدينة دولة، قلعة مشتركة، تحتمي بها وتنمو وتزدهر داخل أسوارها[1]. فمهما كانت أنظمته المجتمع الاجتماعية والاقتصادية... فإنّه يحتاج إلى جهاز الدولة، ليمثّل السلطة العليا في البلاد ويسهر على تطبيق القانون والنظام.

وتدخل الدولة عند "ابن خلدون" مرحلة الهرم عندما يأتي الترف والفساد الناتج عن الملك الذي هو غاية عصبية القبائل والعشائر، وهي إذ نزل بها هذا الداء واستبد بأركانها تأتي عصبية أخرى لتزيلها و هكذا [2].

ويذهب "إدريس هاني" إلى أنّ "ابن خلدون" يربط بين نشوء الحضارة ورسوخ الدولة: «**كون الدولة هي مناط الصنائع وغاية الحضارة، فالظاهرة السياسة هي أسمى هدف للظاهرة الحضارية، يظهر ذلك جليا في التمركز المفرط الذي تبدو فيه الملازمة بين المركز السياسي والنشاط الحضاري واضحة تماما**»[3].

ويضيف أنّ هذا الربط للحضارة «**بالدولة بوصفها أقوى ظاهرة في العمران على الإطلاق، ما يعني أنّ الحضارة هي صناعة القوة**»[4].

ولعلّ "ابن خلدون"، هو أول اجتماعي قام بهذا الربط وخلص إلى أنّ الحضارة هي حضور الدولة ورسوخها، مما يزيد من تعاظم دور الدولة. يقول:«**الحضارة في الأمصار من قبل الدول، وإنّها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها**»[5].

ويفيدنا "إسماعيل زروخي" في هذا الشأن بقوله بأنّ الدولة والحضارة : «**يسيران جنبا إلى جنب، فكلمّا قامت الدولة من جانبها بواجباتها في إحلال الحق والعدل في جميع الميادين من حياة المجتمع، طال عمرها واتسمت حياتها بالحيوية والقوة**»[6]. وفي هذا تأكيد واضح على دور الدولة بالنسبة للحضارة.

في حين يؤكد "سبينوزا " SPINOZA **(1632-1677)** على ضرورة تجسيد حرية التفكير وتحديد المواقف في إطار الدولة [7]، بكل ديمقراطية، إذ من شأن ذلك أن يؤّمن للدولة السلام والازدهار.

1- المصدر السابق؛ ص، **41**.

2- محمّد العبده؛ البداوة والحضارة، نصوص من مقدّمة ابن خلدون، الكتاب التاسع، المنتدى الإسلامي، لندن، ط**1**، **1993**، ص، **59**.

3- إدريس هاني؛ حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، ص، **100**.

4- المرجع نفسه؛ ص ص، **100- 101**.

5- عبد الرحمان ابن خلدون؛ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص، **408**.

6- إسماعيل زروخي؛ الدولة في الفكر العربي الحديث، دراسة فكرية فلسفية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط**1**، **1999**، ص، **525**.

7- سبنوزا؛ رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط**3** ، **1981**، ص، **43**.

وإنّ تصوّر "سبينوزا" للدولة، هو تصوّر اجتماعي، أي أنّ الدولة مجموعة قام أفرادها بإبرام عقد بينهم من أجل تفويض حقهم إلى عنصر أو إلى مجموعة من العناصر– وهو ذاته تصوّر "جون جاك روسو" J. Jacques Rousseau **(1712-1778)** للعقد الاجتماعي- غير أنّه قد فضّل أن يستعمل كلمة دولة، ممثّلة للسلطة العليا التي تنشأ عن هذا العقد الاجتماعي، من دون أن تكون حقا إلهيا أو ضرورة تاريخية، كما هو الحال في تصوّر الدولة عند "هيجل".

يرى "هيجل" أنّ«**الدولة، هي الوجود بالفعل للفكرة الأخلاقية، فهي الروح الأخلاقي من حيث هو إرادة جوهرية، تتجلّى وتظهر، وتعرف وتفكّر في ذاتها، وتنجز ما تعرف بمقدار ما تعرف... فإنّ هذه الغاية النهائية، لها حق أعلى أو أسمى من الفرد، ذلك لأنّ واجب الفرد الأسمى هو أن يكون عضوا في الدولة**»[1]. ويواصل "هيجل" إلى حدّ التصريح بأنّها«**الروح وقد وهبت نفسها التحقيق الفعلي في مسار تاريخ العالم**»[2].

ونخلص من هذا العرض مع "إسماعيل زروخي" على أنّ مفهوم الدولة في الفكر النهضوي العربي، أصبح يتحدّد «**من خلال ما توصّلت إليه المجتمعات الإنسانية، من وقائع حولها، هذه الوقائع التي جسّدتها الممارسة اليومية للشعب، الذي أصبح يستحوذ على زمام الدولة والحكم**»[3]، بل يوضّح المؤلف أكثر بقوله بأنّه حتى معاني السياسة -في هذه الحقبة من الزمن-«**تأسست وفق مفاهيم جديدة، تراعى فيها متطلبات الحياة في المجتمع**»[4]. إذ تعدّ هذه هي الصورة التي خلصت إليها الدولة في فكرنا العربي الحديث.

وينطلق اليوم المفهوم المعاصر في فهم الدولة، «**من التأكيد على السيادة القانونية: إصدار القوانين وتفسيرها وتطبيقها، وعلى السيادة السياسية: احتكار وسائل العنف والإكراه لضمان طاعة المواطنين، وصيانة الاستقلال إزاء الدول الأخرى، وأخيرا الحق في إقامة العلاقات معها**»[5].

إنّ الدولة إذا، هي جمع من الناس يستقرّون في إقليم جغرافي معيّن، يخضعون لسلطة سياسة ذات سيادة، فالدولة لم تنشأ منذ البدء بهذا الكل، ولهذا اختلف الفلاسفة والسياسيون في وضع تعريف جامع مانع لها، إذ أعطاها كل واحد منهم مفهوما يتوافق ومنظوره الخاص.

1- هيجل؛ أصول فلسفة الحق، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، دط، 1996، ص، 497.

2- المرجع نفسه؛ ص، .504

3- إسماعيل زروخي؛ المرجع السابق، ص، .146

4- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- عبد الوهّاب الكيالي وآخرون؛ المرجع السابق، الصفحات نفسها.

إنّ المجتمع مركب للعلاقات الاجتماعية التي تكوّنت من خلال هذه الجماعات والروابط، والشيء الذي يحكم هذه العلاقات، هو ما يعرف باسم الوعي المتبادل قصد سدّ الحاجات، وأنّه لتحقق ذلك وجب أن ينظم الأفراد أنفسهم تحت لواء الدولة.

2-2- الدول العالمـــية عند آرنولـــد توينـــبي:

إنّ الحضارة متى عجزت عن الاستجابة للتحدّي بنجاح تمر بمرحلة فوضى، تسعى فيها الأقلية المسيطرة إلى إحلال النظام، ولا يتأتى ذلك إلا بالقوة، عن طريق فرض دولة عالمية.

ويشرح توينبي أولا، معنى تسمية الدول العالمية، بقوله :«**ليس معنى الدولة العالمية في أنّها تغطي كل مساحة الأرض بسلطانها، وإنّما في أنّها تحتل أهمية كبيرة جدا بالنسبة لأولئك الذين يعيشون تحت ضلّها، وبالنسبة كذلك للمحيطين بها عبر الحدود، لذا نعتت بالعالمية تعبيرا عن قوّتها العظيمة وهيلمانها**»[1].

وبهذا تكون عالميتها في قوّتها وليس في مكوّناتها كالمساحة الجغرافية الشاسعة مثلا، إذ لا يقصد توينبي بقوله "عالمية" البعد الجغرافي، إنّما المعنى الضمني المعبّر عن قوة السلطة وبسالة النفوذ.

إنّ الدولة العالمية، هي نتاج تلك الأقلية المسيطرة التي كانت تتمتع في وقت من الأوقات بالقدرة الإبداعية[2]، حيث تتّجه هذه الأقلية المسيطرة بعد فقدانها لطاقتها الخلاقة «**إلى تعويض قصورها بالتوسّع الخارجي وإقامة الإمبراطوريات تسكينا لنقمة الجماهير**»[3].

فالاستعمار في نظر توينبي «**معاناة غير سارة**»[4]، وإن كانت له إيجابيات، حيث أنّه كان مثلا«**ثمنا للتدرّب كأجير في صنعة الحضارة، وقد مرّ الرومان أنفسهم بفترة من الخضوع للنظام الاستعماري الأترسكي** »[5].

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 250.
2- Id.
3- آمنة تشيكو؛ مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وآرنولد توينبي، ص، 89.
4- آرنولد توينبي؛ الوحدة العربية آتية من النيل إلى النيجر، ص، 27.
5- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

ويعطينا توينبي مثالا عن ذلك بمراكش المغربية، حيث يقول: «**إنّ الرومان، فالعرب، فالفرنسيين، فعلوا لمراكش ما فعله الأترسكيون ذات يوم لروما**»[1]، ويكمل أنّ هذا ما فعله الرومان والنورمانديون لبريطانيا أيضا.

ويحدث هذا في ذات الوقت الذي تتّجه فيه البروليتاريات الداخلية إلى التحضير للخروج بأديان عليا، والبروليتاريات الخارجية إلى إنتاج شعر الملاحم والبطولات«**فيحاول الزعماء- إذا- أن يكافحوا من أجل خلق دولة عامة**»[2].

وتبدو الفترة التي تقوم فيها الدول العالمية، كصيف هندي متأخر- للحضارة- إذ ينخدع الناس إزاء هذا الشعور بالهدوء والاطمئنان والدعة والسلام، ويظنون أنّ كل شيء يسير على ما يرام، ولكن يقول "تشارلز فرانكل" :« **ظهور الدولة العالمية، هو بحد ذاته دلالة على أنّ الحضارة قد بلغت حدا يجعل داءها مستعصيا**»[3]. وهذا ما يوافق رأي توينبي في هذا الصدد حيث يرى أنّ **الدول العالمية تقوم بعد انهيار الحضارة في فترة تعتبر كصيف القديس مارتن(*) التي تستر الخريف ولكنّها تنذر بقدوم الشتاء**»[4]. فهذه إشارة واضحة على أنّ الدول العالمية تنحو إلى الأفول، تماما كالحضارات التي سبقتها.

ولتوضيح رأي توينبي أكثر في هذه النقطة، نستدّل بالمثال الذي قدّمه "فرانكل" حيث يقول :«**أثناء وجود الدولة العالمية، تحدث في مرحلة منتظمة رعشة منذرة بالخطر، تذّكر المريض المسجّى على فراش الموت أو يجذر بها أن تذّكره بأنّ مرضه لم يبارحه**»[5]، ومثال ذلك- يوضّح- في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، حيث جاءت فترة خواء العرش المنذرة بالخطر، في الفترة الممتدة بين موت "مرقص أوريليوس"-Marc Aurèle(**121-180**) سنة 10م، واعتلاء ديوقلتيان Dioclétien (**245-313**) سدة الحكم سنة 284م، هنا يوضّح "فرانكل" أنّه«**مع أنّ الدولة العالمية تشفى من هذه الحمى القصيرة الأمد، فإنّها في النهاية تخور قواها وتموت**» [6].

ويلخّص لنا "مصطفى النشار"، المظاهر البارزة لتلك الدول العالمية في ثلاث نقاط:

أولا: بعدما تقوم الدول العالمية بعد انهيار الحضارة، تتولى مباشرة تحقيق الوحدة السياسية لكيان تلك الحضارة، ولكن لا نستطيع أن نعتبر قيامها بشيرا بهدوء الحال واستقرار الأحوال الاجتماعية.

و ثانيا: إنّ الأقلية المسيطرة هي مصدر انبعاث الدول العالمية، ويكون ذلك بعد فقدانها لطاقتها الإبداعية، فتخسر بموجب هذا ولاء الجماهير وإعجابها الذي كانت تتمتع به.

1- المصدر السابق؛ الصفحة نفسها.

2- كولن ولسون؛ سقوط الحضارة، ص، 135.

3- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 181.

4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 250.

5- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 181.

6- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

و ثالثا: يعتبر انبعاث الدول العالمية لمّ للتشعث في فترة التحلل[1].

ونلاحظ من هذا، أنّه رغم أنّ الدول العالمية تبدو كمظاهر تحلل اجتماعي إلا أنّها في نفس الوقت« **محاولات لكبح جماح هذا التحلل والتغلّب عليه**»[2]، يقول توينبي:« **إنّ الشعوب التي تعيش تحت هيمنة الدول العالمية، تعتقد تمام الاعتقاد بأنّ دولتها أبدية وتؤمن بأنّ هذه الهيئة الأرضية هي "أرض الميعاد"... إنّ روما – مثلا- هي المدينة التي أسست لتدوم إلى الأبد**»[3]، وهذا هو دليل تأليه الدول العالمية والاعتقاد بخلودها، ذلك أنّ روما قد اعتمدت على بسط نفوذها بالدرجة الأولى على القوة العسكرية، فبعد أن كان التوسّع الخارجي مجرّد محاولة للتغطية على مشاكل داخلية، فإنّ إقامة الإمبراطوريات لم تعد وسيلة لحل المشاكل الداخلية بل أصبحت غاية في حد ذاتها[4].

إذ ينظر توينبي إلى الرومان والصينيين، على أنّهما أكثر الشعوب التي عكفت على إعطاء دولها العالمية هذه الصفة من قوة السيطرة، يقول: «**إنّ الرومان والصينيين، كانا على يقين في أنّ إمبراطوريتيها تحتضنا العالم**»[5].

لكن هنا تكمن أولى مظاهر أفول الدولة العالمية ونذير زوالها، إذ أصبحت الحرب الوسيلة التي اتخذت لتحقيق هذه الخطوة الأولى من خطوات تقدّم الحضارة الهلينية[6] على باقي الحضارات، وبالتالي حفظ دوامها بالاعتماد على الوسيلة ذاتها. و لم يلبث أن يدوم ذلك طويلا، إذ أنّ «**مواطن الضعف في النظام الإمبراطوري لم تلبث أن انكشفت، بما انطوت عليه القرون المتأخرة في حياة الإمبراطورية من توتّر**»[7].

إذا وكما أوعز توينبي انهيار الحضارة إلى الاهتمام بالمكتسبات العسكرية، فسّر كذلك زوال الدول العالمية، بجعل الحرب مبتغاها الأول وركيزتها الأساسية لبسط النفوذ، يقول:«**إنّ فن الحرب وحده، هو الذي يحرز التقدّم على حساب جميع فنون السلام، ولكن قبل أن ينهي القاتل إبادة خصومه، فإنّ هؤلاء يستطيعون الحصول على تحكّم فائق المهارة في استخدام آلاتهم المبيدة**»[8]، ويواصل توينبي:«**إنّ باستطاعتهم اجتياح كل شيء**»[9].

1- مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، ص، 365.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 250.

4- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص، 278.

5- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 250.

6- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 47.

7- السيّد الباز العريني؛ تاريخ أوروبا العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1968، ص، 09.

8- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 143.

9- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

ويعرض لنا مثالا عن دولة الإسكندر الأكبر، الدولة العالمية التي عاشت فترة من القوة لكن لم يكن مآلها إلا الدمار، يقول:« **إثر وفاة الإسكندر ... لم تلبث الأمجاد التي تبلورت فيها جهود عهدين زاهرين متتاليين، أن انحلّت إلى فساد وفوضى. بيد أنّ وقع هذا الانهيار لم يظهر في مقدونيا(*) وحدها، بل في هيلاس(*)(*) جميعها، وفي نصف الجزء الباقي من العالم»**[1].

ويعود توينبي ويتساءل:«**هل يستطيع الرئيس الجوبيتيري(*)(*)(*) لدولة عالمية ما، أن ينجح في كبح جماح تلك الشهوة التي لا تشبع لفتوحات جديدة ؟»**[2].

لكنه لا يتلقى الإجابة من هذا الرئيس الجوبيتيري أو من غيره، وإنّما من التاريخ الذي ينبئه بكبوة لم تعقبها صحوة في تاريخ أي من هذه الدول، ويظهر ذلك جليا حين يذكر لنا حسرة **أحد** الغاليين(*)(*)(*)(*) وهو يرثي روما:« **ارفعي رأسك المنتصر يا روما الإلهية، إنّ النجوم لا تغيب عن أعيننا إلا لتعود أكثر بريقا... إنّ القمر لا ينهي دورته إلا ليعود بضوء جديد»**[3].

كذلك يستشهد بقول القدّيس "جيروم" Saint-Jérôme **(345-491)** بعيدا من أرض فلسطين، عندما وصله نبأ حصار روما: «**... لقد حوصرت المدينة التي ملكت العالم بأسره»**[4].

وليس ذكر هذه الأمثلة من طرف توينبي، إلا توضيحا لمسألة انهيار الدول العالمية، رغم ما يمكن أن تحقّقه من هيمنة أسطورية، إذ لم يكن قيام الدولة العالمية الهلينية«**بالدواء الشافي للمرض الذي تعانيه الحضارة الهلينية، بل كان لا يعدو أن يكون عقارا ملطفا وقتيا»**[5].

ويضيف توينبي:«**إنّ العالم العربي، قد تلقى نفس الصدمة عند سقوط الخلافة العباسية سنة 1258م غير أنّه على الأرجح، كان لتلك الصدمة الأثر الأعمق في نفوس الشعوب الإسلامية مقارنة مع صدمة روما»**[6].

(*) مقدونيا: إقليم جنوب شرق أوروبا في شبه جزيرة البلقان، تتقاسمه اليوم دولة اليونان و جمهورية مقدونيا و بلغاريا.

(*)(*) هيلاس: بلاد اليونان في القديم.

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 135.

(*)(*)(*) الرئيس الجوبيتيري هو الرئيس الإله في الميثولوجيا اليونانية، وهو الذي يسود السماوات و الأرض و يحفظهما. انظر اتين جلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مصر، ط3، 1996، ص، 336.

2- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 174.

(*)(*)(*)(*) نسبة إلى غالية: فرنسا **Gaule**.

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 251.

4- Id. 252.

5- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 266.

6- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 252.

وذلك راجع إلى أنّ مواطني الدولة العالمية قد اعتبروها الهدف الذي تهدف إليه جهود كل البشر، فعكفوا بذلك على تقديسها وإنزالها منزلة الكائن الخالد ولو أنّه أشار في إحدى محاضراته إلى القوة التي من شأن العالم العربي أن يكوّنها و«**التي يمكن أن تكسبها البلاد العربية إذا توّحدت**»[1]. إذ يرى بكل موضوعية أنّ في الإسلام مقوّمات ومكوّنات جد قوية إذا ما استثمرت تمكّن من بناء حضارة إسلامية متكاملة يمكنها أن تلعب دورا رياديا بين الحضارات الأخرى خاصة إذا ما توحّدت ضمن نسق بناها كل الدول العربية والإسلامية.

ومع ذلك فقد قدّمت الدول العالمية فوائد عدّة وعادت بمنافع لها أعظم القدر والأهمية في التاريخ، بفضل مالها من نظم مواصلات ومستعمرات ولغات وأنظمة وقوانين وتقاويم وخدمات مدنية ونقود وعملات...[2]. وأكثر مستفيد من هذه الدول العالمية هو- كما رأينا- الأديان العالمية، إذ أنّه«**في الإطار السياسي والاجتماعي للدول العظمى وبفضله، نجحت المسيحية والإسلام والهندوكية والمهايانا، في أن تصبح ديانات قائمة بذاتها، وتنتشر بعد ذلك في أصقاع العالم**»[3].

ويوضّح توينبي أكثر بأنّ المسيحية والأديان الوثنية المزامنة لظهورها، قد تبلورت في ضل الإمبراطورية الرومانية، واستفادت بوذية المهايانا من السلام الذي وفرته لها الإمبراطورية الصينية، فانبثقت بذلك حضارة الشرق الأقصى، وكذلك الخلافة العباسية، فعلت بالمثل مع الإسلام[4]. وهذا ما أدّى إلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. ورغم أنّ بعض هذه الدول قد حاول قمع هذه الديانات في وقت من الأوقات، إلا أنّها - الديانات- تمكّنت بفضل المؤمنين بها من الصمود بل و الانتشار، إذ تعد أعظم المستفيدين[5].

وهكذا فإن سير الانحلال والأفول الذي لاحظه توينبي في كل حضارة انتهى أمرها إلى الموت «**يشبه نغما ذا ثلاث ضربات ونصف الضربة: هزيمة (فترة الأزمنة) وتجمّع (فاصل سلمي مؤقت) ونكسة(حرب أشدّ عنفا) وتجمّع ثان(إنشاء دولة عالمية) ونكسة (أزمة داخل الدولة العالمية) وتجمّع (زوال الأزمة المؤقت)، وأخيرا الموت**»[6]. هكذا حدّد "تشارلز فرانكل" عملية انحلال الحضارة ليبيّن لنا موقع الدول العالمية منها، ويرى

1- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، 13.

2- مصطفى النشار؛ فلاسفة أيقظوا العالم، ص، 265.

3– TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 279.

4– Id. 277.

5- آلبان.ج. ويدجري؛ التاريخ وكيف يفسّرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ص، 233.

6- تشارلز فرانكل؛ أزمة الإنسان الحديث، ص، 181.

بأنّ هذه العملية تستغرق عادة ثمانمائة سنة وألف ومائة من السنين، وفي رأيه أنّه متى بلغت حضارة ما مرحلة الدولة العالمية فإنّه يكاد يكون من المؤكّد أنّها لن تستفيق من جديد.

ومجمل القول أنّ الدول العالمية سحرت النفوس والقلوب عبر التاريخ عندما مثّلت مرحلة سلام بالنسبة للشعوب التي شهدت انهيار حضاراتها وعاشت بمرارة أوجاع عصر الاضطرابات، وكذلك من خلال إنجازاتها الأسطورية عل الصعيد العسكري خاصة.

إلا أنّ عرض توينبي للتاريخ أكّد لنا أنّه مهما تطول مدة صمود الدولة العامية، فستمر حتما بعصر الخمود، صحيح أنّها هدفت في بادئ الأمر لأن تكون أبدية، إلا أنّ كل محاولة من هذه القبيل، قد كانت في الحقيقة أملا وهميا[1].

3- المبحث الثالث: دور الدول العالمية في تبلور الأديان العليا

بلغت الإمبراطورية الرومانية درجة من القوة والهيمنة شرقا وغربا، فرفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة، فأطلقت على القيصر أغسطس لقب إله وقرّرت عبادته مع الآلهة، ورصدت له شهرا في السنة لا يزال معروفا باسمه إلى اليوم. وصحب هذا تفاني الشعب في إقامة الشعائر والطقوس الدينية، ومع أنّها انطوت على قدر من الشعور الديني إلا أنّها لم تفد في وقت الشدّة وعند وقوع الضرر، و لم تبذل الحلول لما يتعلّق بالحياة الحاضرة والمستقبلة من مشاكل.

مثل هذه الأوضاع، سنحت الفرصة للأديان الآتية من بلاد الفرس وجبال الأناضول وسوريا... من التغلغل مبدئيا في المجتمع الروماني، على أنّه قد حدث في الوقت ذاته أن أضحى لديانة جديدة التفوّق على سائر الديانات التي تنتمي إلى أصل شرقي وكانت هذه هي الكنيسة المسيحية. في هذا الوقت لم يعد هناك شك في أنّ مفوّضا عن الشمس التي لا تقهر(*) سوف ينقش صليب المسيح فوق قرص الشمس... وقد أثبت الإمبراطور الدردنيلي "قسطنطين"، أنّه كان بصيرا بحقائق عصره، فقرّر أن يكون واسطة هذه الثورة المقدّرة المحتومة. ونجحت المسيحية– تبعا لهذا- في التقدّم عل حساب الوثنية، إذ أغلقت المعابد أبوابها الواحد تلو الآخر في حين انتشرت الكنائس في كل مكان.

فما هي المسيحية ؟ وما هي مذاهبها ؟ وكيف انبثقت من رحم الدولة العالمية الإمبراطورية الرومانية ؟

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 269.

(*) الشمس التي لا تقهر: آثر أورليان، ألا يكون حكمه قائما على أساس أنّه إله في حد ذاته، بل باعتباره نائبا عن إله غير آدمي، لا تستطيع أسلحة الجنود أن تنال منه، وكان هذا هو إله الشمس التي لا تقهر. راجع آرنولد توينبي، تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 263- 264.

3-1- المســـيحية و مذاهبـــها:

أ - التعريف بالمســـيحية :

اشتقت كلمة المسيحية Christianisme من كلمة مسيح Jésus- Christ عليه السلام، ذلك أنّه مسح بالماء والزيت كما يرى البعض في حين يذكر آخرون أنها جاءت من كلمة المسيا Messie ومعناها المنقض أو المخّلص.

والمسيحيون Chrétiens هم جماعة المسيح أي أتباعه الذين آمنوا به وصدّقوا بالإنجيل، والمسيحية تبعا لهذا «**هي الديانة التي يؤمن بها المسيحيون، إنّها ديانة من ديانات التوحيد**»[1].

ويذكر الكتاب كذلك قول المسيح عليه السلام:«**إنّ أوّل كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل، الرّب إلهنا ربّ واحد، وتحب الرّب إلهك، من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك**»[2].

وفي هذا تأكيد واضح من الكتاب على وحدانية الله.

ويذكر كذلك إنجيل "متّى" عن قول السيد المسيح: «**لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل**»[3].

ومعنى هذا أنّه بعث عليه السلام ليكمّل ما قد أتى به الأنبياء الذين سبقوه، وهو بهذا يؤكّد بوضوح لبني إسرائيل أنّه لا مجال لتكذيبه أو مواجهته، لأنّ المنبع الذي استقى منه هو ذاته المنبع الذي استقى منه موسى عليه السلام، أي ذات المنبع الذي يؤمنون به

وأيضا نقرأ في قوله هذا نوعا من التحذير من خطورة التعرض لهذا الإلهام الربّاني الجديد وإن حدث ذلك فلن يكون مصير المعتدين إلا ما كان أجدادهم قد لاقوه في كل مرة كانوا يتصدّون فيها لوحي من عند الله وتكذيب للأنباء.

وأما المسلمون فينعتون المسيحيين بالنصارى والعقيدة المسيحية هي عندهم العقيدة النصرانية، وإنّ الكتاب المقدّس Bible لدى المسيحيين، يشتمل مع العهد القديمAncien Testament أي التوراة Torah على العهد الجديد Nouveau Testament أي الإنجيل Evangile.

1- فيلسيان شالي؛ موجز تاريخ الأديان، ص، .225

2- إنجيل "مرقس"؛ 12/ 29- 30.

3- إنجيل "متّى"؛ 5/ 17- 18.

ويرى "فيسليان شالي" أنّ«**كلمة العهد Testament، هي ترجمة سيئة لكلمة Alliance (التحالف) والمسألة هنا هي مسألة التحالف بين الله والإنسانية**»[1].

وقد بُعث المسيح عليه السلام في مجتمع اليهود وفي وقت تمادوا فيه في الفجور وارتكاب المُحرّمات، فإنّ ردّهُم«**عن فعل المنكرات والآثام، وتعطيلهم لشريعة الله، وانصرافهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى الوقوع في المعاصي، وإسرافهم في ذلك على أنفسهم وإنكارهم للروح والروحانيات**»[2]، دفع بالمسيح عليه السلام لدعوتهم إلى طريق الرشاد والصلاح، إذ كان هدفه تصحيح ما فسد من أخلاقهم وتوجيههم لفعل الخير بصفتهم ممثّلين لكتاب سماوي عظيم، كتاب موسى عليه السلام، لأنّ أعمالهم هذه قد أساءت لتعاليم التوراة. وهو بالتالي لم يستهدف دينهم ولم يكفر بإلههم **يهوه**، وإنّما جاء متمما لما نزل على موسى من قبله.

ويذكر القرآن الكريم واصفا وضعهم هذا:« **ضربت عليهم الذلّة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**»[3].

فلا غرابة يرى "محمد أحمد الحاج" أن يقف اليهود في وجه السيد المسيح عليه السلام، معلنين له العداء رغم أنه منهم ونبي من أنبيائهم، لأنّهم قد اعتادوا من قبل على مثل هذا الأفعال[4].

وأساس العقيدة المسيحية هي الإيمان بالله وبالتالي مخالفة الوثنية، إذ يؤمن المسيحيون بأنّ الله هو الإله الذي آمن به سيد الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام وهو ذاته إله موسى واليهود، وإله محمّد والمسلمين[5].

إذ يعترف القرآن بأنّه استمرار للتوحيد المسيحي، بل ولأهل الكتاب من يهود ومسيحيين، يقول تعالى في كتابه العزيز: «**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون**»[6].

1- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 227.

2- مصطفى شاهين؛ النصرانية: تاريخا وعقيدة.. وكتبا ومذاهب، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، دط، 1992، ص، 53.

3- القرآن الكريم؛ سورة آل عمران، الآية، .112

4- محمّد أحمد الحاج؛ النصرانية من التوحيد إلى التثليث، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1992، ص، 141.

5- نهى نجار؛ موسوعة الأديان السماوية والوضعية: الديانة المسيحية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص، 62.

6-سورة العنكبوت؛ الآية، 46.

ويذكر القرآن كذلك: «**فإن كنت في شك ممّا أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربّك فلا تكونن من الممترين**»[1]. فهذا تأكيد من القرآن وبالتالي من الإسلام بصدق ما جاء به عيسى عليه السلام ومن سبقه.

ويعدّ المسيحيون أنفسهم إحدى الجماعات الثلاث التي تنتمي إلى إبراهيم عليه السلام، والتي تؤمن بإله واحد أحد[2]. ويؤكّد القرآن الكريم على أنّ عقيدة المسيح هي«**التوحيد الكامل**»[3]، أي التوحيد الذي لا يشوبه شرك ويبيّن ذلك "محمد أبو زهرة " بقوله: «**التوحيد في العبادة فلا يعبد إلا الله، والتوحيد في التكوين فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد في الذات والصفات فليست ذاته بمركبة**»[4]، أي أنّها متزّهة عن مشابهة الحوادث.

ونستدّل دائما من القرآن على أنّ عيسى عليه السلام ما دعا إلا لهذا التوحيد الكامل: «**و إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيدا ما دامت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم**»[5].

إنّ هذا هو استجواب الله – عزّ وجلّ- لعيسى عليه السلام يوم القيامة، فهذا النص القرآني ليثبت بكل وضوح أنّه عليه السلام ما دعا إلا للتوحيد الكامل لله – جلّ جلاله- وإنّ كلّ ما يخالف هذا النص القرآني إنّما دخل المسيحية من بعد عيسى عليه السلام.

فمسيحية اليوم تقول-على خلاف ما ورد في القرآن- بالأقانيم(*) الثلاث : الأب والابن والروح القدس، فهم يعتقدون أنّ «**"الآب"، يعدّ صورة سامية لا تلحق، خالق الدنيا وبارئ البشر... ويرون في "الابن" مخلّصا، قصد به أن يردّ التاريخ إلى هدفه الذي أراده الله منه، ويرون أنّ "الروح القدس" هو الذي يطهّر الناس**»[6]. فهذه الأقانيم الثلاث«**هي جوهر واحد، وإن اختلفت في الوظائف والأعمال، فتنسب بعض الخواص إلى الأب كالعناية والرعاية، وينسب الفداء إلى الابن، كما ينسب التجديد والتقديس إلى**

1- سورة يونـــس؛ الآيـــة، .94

2- نهى نجار؛ المرجع السابق، ص، .62

3- محمّد أبو زهرة؛ محاضرات في النصرانية، الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1989، ص، .84

4- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- سورة المائدة؛ الآيات، 116- 117- 118.

(*) الأقنوم: يؤمن المسيحيون بأنّ في الله تعالى، الإله الأحد، ثلاثة أقانيم جوهرية أزلية.والأقنوم حالة في الوجود والعمل، واللفظ يوناني الأصل يعني الصفة أو الشخص. راجع نهى نجار، موسوعة الأديان السماوية والوضعية: الديانة المسيحية، مرجع سابق، ص، 194.

6- ألبان. ج. ويدجري؛ التاريخ وكيف يفسّرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ص، 102.

الروح القدس»[1]، وعلى هذا يضيف "محمد أحمد الحاج" أنّ هذه الأقانيم هي ثلاث مظاهر لجوهر واحد، ليس بمنفصل ولا بمنقسم ولا بمجزّأ [2].

إنّ هذا هو ما يؤمن به المسيحيون وهم بهذا يضعون نقاط الفصل الكامل بين الإسلام والمسيحية، وبين المسيحية واليهودية كذلك، فقولهم بأنّ «**الإله الواحد هو ربّ الكون، وسيّد التاريخ، وقد تكلّم بالأنبياء، وظهر في شخص يسوع**»[3]، يُعطي لله سبحانه وتعالى صفة الآدمية، وهذا يعني أنّه قد تعرّض لما تعرّض إليه المسيح من صلب، ولكن ينفي القرآن الصلب عن السيّد المسيح في قوله تعالى:«**و قولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتبّاع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما**»[4]، ذلك أنّ صلب المسيح قد بقي موضع اختلاف بين المسيحيين أنفسهم حتى ظهر الإسلام إلى العالم بنوره، وأرسل محمّدا صلى الله عليه وسلّم موضّحا بالقرآن حقيقة الأمر، وهو أنّ المسيح عليه السلام لم يصلب وإنّما ألقى الله بشبهه على شخص آخر، و أنّ المسيح قد رفعه الله تعالى إليه سليما[5].

فمسألة صلب المسيح إذا ليست بمسألة جماعية، إذ أنّ هناك طوائفا من المسيحيين أنفسهم تنفي الصلب، منهم يذكر لنا "مصطفى شاهين": الساطرينوسيون والكاربوكراتيون والمر كينيون والبارديسيانيون والتاتيانيسيون والبارسكاليونيون والبوليسيون[6].

وكان الذي ألقى الله عليه شبه المسيح عليه السلام، هو أحد تلامذته:

"يهوذا الإسخريوطي" Juda d'Iscariote، يقول "سليمان مظهر" أنّه عندما أتى الجنود للقبض عليه: « **أنقذه الله من أيديهم وطهّره منهم وألقى شبهه على شخص آخر، هو تلميذه الخائن يهوذا الإسخريوطي**»[7]، الذي كان قد دلّ اليهود والجنود على مكان المسيح، وأصبح كل من يراه لا يشك البتّة في أنّه تلميذ المسيح، بل المسيح ذاته، «**وهكذا أُخذ يهوذا وهو في شبه المسيح، حيث صلب وقتل ونجا المسيح من شرّهم، إذ أعلمه الله من قبل بما سيتم، وقد اختفى المسيح عن أعين أعدائه ثم رفعه الله بروحه وجسده حيّا إلى السماء**»[8].

1- محمّد أحمد الحاج؛ المرجع السابق، ص، 214.
2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.
3- نهى نجار؛ المرجع السابق، ص، 63.
4- سورة النساء؛ الآيات، 157-158.
5- محمّد أحمد الحاج؛ المرجع نفسه، ص، 302.
6- مصطفى شاهين؛ المرجع السابق، ص، 81.
7- سليمان مظهر؛ قصّة الديانات، مكتبة مدبولي، مصر، دط، 2002، ص ص، 414 - 415.
8- المرجع نفسه؛ ص، 415.

في حين يذكر إنجيل "متّى":«**ولّما كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس البنطي الوالي**»[1]، ونستخلص من هذا أنّ الاستشهادين عن الصلب بعيدان تماما عن بعضهما.

ويرى "محمد أحمد الحاج" أنّ«**هذه النصوص، من شأنها أن تغذّي الحقد المسيحي على اليهود، فقرّر اليهود، بذل جهودهم لتغيير هذه النصوص وتحريفها**»[2]، لاسيما فيما يتعلّق بقضية الصلب، حيث يورد مقتطفا عن تقرير قدّمته **الجمعية الأمريكية اليهودية** سنة 1952م، يقول التقرير:«**فبفضل جهودنا، أصبح 58% من الكتب البروتستانتية حاليا اليوم من العبارات العدائية المحقّرة لليهود، وقد توصّلنا إلى نتائج مماثلة في الكنائس الكاثوليكية، إلا أنّ ذلك كان على نطاق أضيق**»[3]، وهذا دليل قاطع على تورّطهم.

إذا نخلص إلى أنّ فكرة الأقانيم الثلاث هي الخلفية المؤسسة لفكرة تأليه المسيح، لكن لابد من التأكيد قبل أن نعرض نقطة أخرى أنّ الإيمان بالله الواحد هو«**أولى نقاط الإيمان المسيحي التي تفتتح " قانون الإيمان"، الذي يتلوه المسيحيون صبحا ومساءا في صلاتهم، فيقولون: "نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى"**»[4]، فهذا الإيمان هو الإيمان بإله واحد في ثلاث أقانيم : آب وابـــن وروح قدس.

ولكن نجد من المسيحيين ذاتهم من ينتقد هذه الفكرة حيث يرى "شارل جينيبير" بأنّ مسيحية اليوم بكل ما تحتوي عليه من عقائد وطقوس وشعائر، غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة السيّد المسيح عليه السلام[5].

ويضيف موضّحا أنّها تبدلّت منذ أن دخلها القديس بولس، وذلك عندما قام بترجمة كلمة **عبد الله** التي كان غالبا ما يذكرها المسيح عليه السلام إلى كلمة **طفل**، رغم أنّ الخيار كان أمامه ما بين كلمتي **طفل وخادم**- يوضّح أكثر "شارل جينيبير [6]- واختار بولس أن يترجمها بكلمة **طفل** ومنه أصبحت العبارة **طفل الله** «**وكان لذلك تغييرا هائلا في المسيحية**»[7].

1- إنجيل "متّى"؛ 27/ .1

2- محمّد أحمد الحاج؛ المرجع السابق، ص، 156.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- فهى نجار؛ المرجع السابق، ص، 61.

5- شارل جينيبير؛ المسيحية نشأتها وتطوّرها، ترجمة:عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، دت، ص، 08.

6- المرجع نفسه؛ ص، 135.

7- المرجع نفسه؛ ص، 08.

وأما الركيزة الثانية في العقيدة المسيحية فهي فكرة التجسّد، وهي من أهم العقائد في الإيمان المسيحي حيث يؤمن المسيحيون بأنّ رسالة الله الأزلية تجسّدت في شخص المسيح: «**إنّ رسالة الله أو كلمة الله أوحيت في يسوع الإنسان، وعليه فإنّ المسيح لا ينقل كتابا "موحى" بل يجسّد وحي الله، إنّه وحي الله، وفي ذلك اختلاف أساسي بين المسيحية والإسلام**»[1].

وأما الأمر الثالث الذي تقوم عليه هذه العقيدة فهو الفداء، حيث أنّ المسيح عليه السلام قد تعرض لآلام الصلب، كونها راجعة إلى إرادة الأب، وبتلك الآلام محا خطايا العالم[2]، أي أنّه ضحّى من أجل خلاص كل البشر[3].

يقول إنجيل "يوحنّا":«**هو ذا حمل الله الذي يرفع خطيّة العالم**»[4]، فقد «**قدّم يسوع حياته قربانا لشعبه دون أن يلجأ إلى العنف حتى لمجرّد الدفاع عن النفس**»[5].

ففي القرآن الكريم قدّم إبراهيم عيه السلام ابنه إسماعيل ذبيحة لله، غير أنّ الله قد منّ عليه بكبش عظيم فداءا لإسماعيل، وفي العهد القديم قدّم عليه السلام ذبيحة لله كبشا عوضا عن ابنه إسحاق، أمّا في العهد الجديد، كان المسيح هو ذاته الحمل الذي رفع خطيئة العالم، بتضحيته بنفسه على الصليب[6]، وفكرة الخطيئة الموروثة والتي تعتبر إحدى أسس العقيدة المسيحية الحاضرة، هي فكرة جاء بها بولس من البيئة الفلسفية التي نشأ فيها [7].

وقد دوّنت هذه العقيدة الأناجيل الأربعة التي اعترفت بها الكنيسة، وكلمة **إنجيل** Evangile أولا ذات أصل يوناني وتعني الخبر السعيد Bonne nouvelle، وقد قام المسيح باستعارة الكلمة المقابلة لها في اللغة العبرية ومنه أتت كلمة "إنجيل". وعلى الرغم من أنّه يوجد ما لا يقل عن ستين إنجيلا، إلا أنّه لم يعترف إلا بأربعة منها كأناجيل شرعية [8]، وهي إنجيل **متّى** Matthieu، وإنجيل **مرقس** Marc، وإنجيل **لوقا** Luc، وأشهرهم إنجيل **يوحنّا** Jean [9].

أما إنجيل **برنابا** Barnabé، فلم تعترف به الكنيسة ولعلّ سبب ذلك هو ما ذكره في هذه الآية – مثلا- عن ردّ فعل السيّد المسيح عندما أقبل الناس عليه يسجدون له كما يسجدون لله:« **مرحبا بك يا**

1- نهى نجار؛ المرجع السابق، ص، .80

2- آلبان. ج. ويدجري؛ ص، 102.

3- نهى نجار؛ المرجع نفسه، ص، 89.

4- إنجيل "يوحنّا "؛ 1/ 29.

5- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، .246

6- نهى نجار؛ المرجع نفسه، ص، .95

7- محمّد أحمد الحاج؛ المرجع السابق، ص، 145.

8- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 229.

9- عصام الدين محمّد علي؛ وقفة بين أصحاب الديانات وأنصار المذاهب، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1990، ص، 211.

إلهنا»[1]، فاضّجر قلبه من سماع ذلك ونهرهم قائلا: «**انصرفوا عني أيّها المجانين، لأنّي أخشى أن تفتح الأرض فاها وتبتلعني وإياكم لكلامكم الممقوت**»[2]، فهذا الكلام الممقوت، هو أحد ركائز العقيدة المسيحية اليوم بل وأهمّها.

وكذلك يذكر "عبد الغني عبود" عن إنجيل **برنابا** عن السيّد المسيح:« **إنّي أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض، أنّي بريء من كل ما قال الناس عنّي، من أنّي أعظم من بشر لأنّي بشر، مولود من امرأة وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام**»[3]، وهذا يكاد يطابق ما ذُكر في "القرآن": «**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم**»[4].

إنّ هذا من دون شك هو السبب في رفض الاعتراف بإنجيل **برنابا**، ذلك أنّه نقل الحقيقة كما نقلها الإسلام وبالتالي تنافى بوضوح مع كل ما جاءت به الأناجيل الأخرى.

وهناك سبب آخر أيضا لعدم الاعتراف بما كتبه **برنابا**، والمتمثّل في اختلافه مع بولس «**الذي يعتبر المصدر الأساسي من مصادر انحراف النصرانية عن توحيدها، والذي كان يتخلّى عن العقيدة النصرانية لتلاؤم دعوته الأمم الوثنية، فنادى بإلوهية عيسى عليه السلام**»[5]، ولا غرابة في أن يصدر مثل هذا التعريف عن يهودي، ويشهد عليه **برنابا** بقوله: «**والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشّرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله... والذين ضلّ في عدادهم أيضا بولس، الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر هذا الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع**»[6]، وذلك أنّ **برنابا** هو أحد الرسل الذين أوكل إليهم المسيح مهمة نشر تعاليم الإنجيل الصحيحة، في حين أنّ بولس فلم يقابل المسيح ولم يره قط، ونتيجة لما افتراه بولس، قام **برنابا** بكتابة هذا الإنجيل لينقل الحقيقة للناس.

ولكن هناك من المسيحيين، من ينتقد حتّى هذه الأناجيل المعترف بها من طرف الكنيسة ويشك بالدليل والبرهان عن تضارب رواياتها، من ذاك عدم توافق الأناجيل الثلاث: متّى ولوقا ومرقس، في رأي "فيسليان شالي" وإنجيل **يوحنّا**، إذ يقول بأنّه يرى: «**فرقا واضحا في اللهجة واختلافات عقائدية جدّية**»[7]،

1- عبد الغني عبود؛ المسيح و المسيحية و الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، يناير 1974، ص، 75.

2- المرجع نفسه؛ ص، 76.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- القرآن الكريم؛ سورة المائدة، الآية، 117.

5- محمّد أحمد الحاج؛ المرجع السابق، ص، 294.

6- المرجع نفسه؛ ص، 284.

7- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 230.

وهذا ما يكشف عددا من التناقضات، «**مثال ذلك أنّك ترى في الأناجيل المتوافقة، أنّ رسالة المسيح لم تدم إلا سنة واحدة، لكنّها تصبح ثلاث سنوات في إنجيل يوحنّا ثم إنّ نشاط المسيح يبرز في الجليل، بصورة خاصة أما في إنجيل يوحنّا، فكان في منطقة يهوذا**»[1]، وهذا تضارب واضح، ولكن قبل أن نحكم على هذا نورد كذلك ما قاله "شارل جينيبير" في شأن عدم توافق الأناجيل، حيث أنّ كُتّابها وجدوا أنفسهم أمام مادة تاريخية صعب مراسها.

«**فمجموعات الحكم لم تكن تلتزم في دقة بالظروف والأحداث التي أنطقت المسيح بها، واختلف سردها- الذي لم يقم على أساس طبيعي- من كتيب لآخر، وكذلك كان الأمر فيما يتعلّق بالروايات الخاصة بالسيرة نفسها، فهي لا تحكي سوى فصول ومقتطفات من حياة المسيح لا رابط بينها**»[2].

إذ يتبيّن من هذا بوضوح اختلاف التفاصيل باختلاف الرواة، ممّا يجعلنا متيّقنين بأنّهم «**لم يلتمسوا الحقيقة... بل على العكس من ذلك اتّبع كل هواه وخطّته الخاصة في تنسيق وترتيب مؤلّفه**»[3]، ولا يتوقف "شارل جينيبير" عند هذا، بل يقرّر أنّنا «**لنلحظ في ثنايا هذه السيرة الإنجيلية، نقصا كثيرا وفجوات خطيرة، نلحظها حتّى في إنجيل مرقس، الذي بلغ به الحرص، أن تحاشى الحديث عن مولد عيسى وطفولته**»[4].

فعندما يأتي هذا التبيين في النقص من طرف مسيحيين من أمثال : "فيلسيان شالي" و"شارل جينيبير"، فهذا أكبر دليل يمكن أن نتّخذه، لنثبت أنّ النص الحقيقي للإنجيل قد فُقد. وهذا ما يفسّر الكثير من مواطن الغموض التي تشوب هذه العقيدة، ممّا ترك الفرصة لمن يقول مثلا: «**هل وجد المسيح حقّا؟ أو أنّ قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها- أسطورة من الأساطير، شبيهة بخرافات كرشنا، وأوزيريس، وأتيس و أدونيس...**»[5].

صحيح أنّ كل الأديان معرّضة للهجوم عليها بالأدلة والبراهين لكنّ الديانة المسيحية، كانت في كثير من الأحيان بعيدة عن مثل هذا التشكيك، ذلك لأنّها ديانة الحضارة المسيطرة على العالم الآن، الحضارة الغربية، غير أنّ هذا لم ينقضها من التشكيك والانتقاد اللاذع، مثل ما أوردناه عن قول "ول ديورانت".

ويوجز لنا "حسين علي حمد" في قاموسه العقيدة المسيحية والتي تتلخص في:

- **الإيمـــان بإله واحد في ثلاث أقانيم: أب و ابن و روح قدس.**

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- شارلر جنيبير؛ المرجع السابق، ص، .37

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه؛ ص، .38

5- ول ديورانت؛ قصة الحضارة، ترجمة : محمّد بدران، الجزء الثالث، المجلّد الثالث، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، مصر، دط، 1956، ص ص، 202- 203.

- **الإيمـــان بالدينونة.**
- **الإيمـــان بالصلب، واتخاذ الصليب شعارا لهم.**
- **الصوم والصلاة والعماد والاعتراف، وقد خالفهم في بعضها البروتستانت.**
- **بتوليـــــة مريـــم.**
- **استحـــلال أكل لحم الخنزيـــر.**
- **والاقتصار على زوجة واحـــدة [1].**

ونخلص من هذا العرض للتعريف بالمسيحية، أنّ هذه الديانة قد انطلقت من أرض فلسطين منذ نحو الألفي سنة ورغم ملاقاة نبيها عيسى عليه السلام الكثير من العراقيل التي كانت تحول دون نشره لتعاليم الإنجيل السمحاء، إلا أنّ تعرّض اليهود لها ورفضهم لفكرة أنّ المخلّص سيغير أو يضيف على ما أتى به موسى عليه السلام، دفعهم أكثر لقطع الطريق أمام المسيحية وخاصة بعد تبشيرها بالنبي محمّد صلى الله عليه وسلم، وهذا ما لم يقبله اليهود على الإطلاق. كذلك تعرّض الإنجيل للكتابة من طرف العديد وفقدان النسخة الأصلية أو أنّها دُوّنت أصلا محرّفة، في حين أنّ القرآن حُفظ كما هو لقوله تعالى في سورة الحجر: «**إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافـــظون**»[2].

ب - نشأة الكنيسة و انبثاق المذاهب المسيحية:

جاء السيد المسيح عليه السلام إذا بتعاليم جديدة، فاقت في قوة استحالة الناس إليها أشدّ أساليب القهر التي كان يمارسها الرومان على شعب الإمبراطورية في فلسطين، أو حيل الكهنة اليهودية في خداع الناس، ذلك أنّها حملت معانيا جديدة ومفاهيم يئس الناس-وقتذاك- من مجرّد الحلم بالعيش في كنفها، كالمحبّة والإخاء والمساواة والعدل والسلام...

وجمل السيد المسيح عليه السلام تباشير السعادة تلك، في تجمّع له ذات يوم على أحد التلال القريبة من قرية **كفر ناحوم** على شواطئ بحيرة الجليل-أين كان يقيم مع حواريه "بطرس" وأخوه "اندراوس"- ووقف أمام الناس وألقى عليهم في ذلك اليوم ما عرف فيما بعد "بموعظة الجبل"، وتتضمن هذه الموعظة أهم تعاليم الإنجيل التي تترفع عن تعاليم الكهنة والحاخامات الذين سبقوه[3].

ويذكر لنا إنجيل "متّى" هذه الطوبيات Béatitudes للسيّد المسيح عليه السلام، يقول الإنجيل أنّ يسوعا«**لما رأى الجموع صعد إلى الجبـــل، فلمّا جلس تقدّم إليه تلاميذه ففتح فاه وعلّمهم قائلا :**

طـــوبى لمساكين بالروح، لأنّ لهم ملكوت السماوات.

1- حسين علي حمد؛ قاموس المذاهب والأديان، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط**1**، **1998**، ص، .**211**

2- سورة الحجر؛ الآية، **09**.

3- سليمان مظهر؛ المرجع السابق، ص، .**394**

طـــوبى للحزانـــى لأنّهم يتعـــزون.
طـــوبى للو دعاء، لأنّهم يرثـــون الأرض.
طـــوبى للجياع و العطاش إلى البّر، لأنّهم يُشبعون.
طـــوبى للرحماء، لأنّهم يُرحمون.
طـــوبى للأتقياء القلب، لأنّهم يُعاينون الله.
طـــوبى لصانعي السلام، لأنّهم أبناء الله يُدعون.
طـــوبى للمطرودين من أجل البّر، لأنّ لهم ملكوت السماوات.
طـــوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين.
افرحوا و تهللوا، لأنّ أجركم عظيم في السماوات. فإنّهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم »[1].

كانت هذه إذا كلمات السيّد المسيح عليه السلام المستمدّة من إنجيل "متّى" وقد أكّد عليه السلام بهذه الموعظة، عن التباعد الكبير بين ما جاء به وبين ما يقوم به الكهنة من اليهود، أو ما يأمر به الوثنيون من الرومان أن يقوم به شعب فلسطين وغيره من شعوب الإمبراطورية الرومانية آنذاك، من مخالفات أخلاقية وعبادات وثنية وما إلى ذلك. وإنّما كانت هذه الكلمات، كلمات تشد الأزر وتبشّر أهل الأخلاق الطيّبة بما لهم من أجر.

وقد التف أتباع المسيح- بعد رفعه عليه السلام- حول بعضهم بعضا حيث«**كان جميع المؤمنين معا، وكان كل شيء مشتركا بينهم، وكانوا يبيعون أملاكهم وأمتعتهم ويوزّعونها على الجميع، على حسب حاجة كل واحد، ويلازمون الهيكل كل يوم بنفس واحدة ويكسرون الخبز في البيوت ويتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب، مسبّحين الله ونائلين حظوة لدى جميع الشعب**»[2]، أي باقي الذين لم يؤمنوا بعد من يهود ووثنيين، فقد اعتصمت هذه الطبقة المقهورة من الناس بما جيء به إليها من قانون إلهي ولقد كانت هذه الجموع من المسيحيين الأوائل تترصّد عودة المسيح القريبة، ولّما تأخرّت هذه، بدأت الكنيسة في الانتظام[3].

إذا ما مهّد لهذه المؤسسة من أجل أن تقوم هو اتحاد المسيحيين عملا بوصية السيّد المسيح عليه السلام فانتظارا لعودة **المسيا** الموعود كان هذا التشكّل ضروريا من أجل الحفاظ أولا، على تعاليم الإنجيل الموروثة، وثانيا، من أجل نشرها، يقول أحد القدّيسين على لسان توينبي:«**إذا ما انتشرت الكنيسة في العالم، فإنّها**

1- إنجيل "متّى"؛ 5/ 1- 12.
2- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 256.
3- المرجع نفسه؛ ص، 257.

ستحفظ وتصون تعاليمها بكل هِمّة، أفضل لها من أن تبقيها تحت سقف واحد»[1].

ويريد توينبي من إيراد هذا القول أن يبيّن أهمية الحرص على انتشار الكنيسة في العالم، لأنّ ذلك سيكسبها قوة من كل مكان بانضمام جموع الناس إليها، هاربين إلى تسامحها من بطش الحكّام وأولي الأمر، وهذا ما سيحفظ لها البقاء برأيه، إذا ما ازداد عدد مناصريها وبالتالي تعرض حقائقها، وتنشرها، وتنال الموافقة من كل مكان، خير من أن تفعل ذلك بلسان واحد[2]. وأراد توينبي من هذا أن يبيّن أنّه على قدر ما تتعدد لغات الكنيسة، على قدر ما تنتشر العقيدة المسيحية أكثر فأكثر. وتكتسب بذلك أكثر من جبهة في محاولة أولى لتخطّي سيطرة الإمبراطورية الشديدة القسوة.

وقد تمنّى أتباع المسيح عليه السلام عودته المرتقبة في زمانهم «**ووجدت هذه الأمنية صدى طيبا، وانظّم الكثيرون إلى الطائفة الجديدة(*)... ونظّم زعماء الطائفة أتباعهم وأقاموا بينهم مجتمعا سُمّي بمجتمع "الأخيار"**[3]، حيث كان لابد من تعميد كل من يرغب في الانضمام إلى هذه المجموعة الخيّرة، وبالتالي اعتناق المسيحية، عملا بسنّة المسيح عليه السلام الذي قصد "يوحنّا المعمدان"(*)(*) Jean- Baptiste ليعمّده، حيث كان المسيحيون يجتمعون في بيوتهم الخاصة ليُعمّدوا أو يعمّدوا «**وكان الحمام أو حوض السباحة هو المكان الذي يمنح فيه العماد(*)(*)(*) وفي الأصل اليوناني، فإنّ كلمة "جرن المعمودية" تعني حوض السباحة وكلمة "العماد" تعني الغطس»**[4].

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 286.

2- Id.

(*) الطائفة الجديدة: تتضمن هذه الطائفة الجديدة، أي جماعة المؤمنين الأوائل التي زامنت القرون الثلاث الأولى:الكتبة المسيحيين الأولين، الذين اتّبعوا طريقة الرسل وهم أولئك الذين أوكل إليهم السيّد المسيح، نشر تعاليم الإنجيل التي لقّنها لهم قبل أن يرفع فعرضوا على الناس التعليم الديني الموروث بأسلوب بسيط، أودعوه مؤلفات وجيزة أو رسائل شخصية، فأطلق عليهم اسم "الآباء الرسوليين".– وفي مطلع القرن الثاني اعتنق الديانة المسيحية فئة من الوثنيين المثقّفين، فسخّروا أقلامهم ومواهبهم للدفاع على الديانة المضطهدة وتنوير الوثنيين أصحاب النوايا الحسنة، فسمّوا "الآباء المدافعين".- ولم يكن دوما لدخول هؤلاء الوثنيين في الكنيسة النتائج الطيّبة فقد كانت ديانة الكثيرين منهم سطحية، إذ لم يفهموا المعتقد المسيحي فهما صحيحا فنشأت عن تأليفهم بدع كثيرة، أرغمت بعض الآباء على الدفاع عن صحة العقيدة المسيحية وسلامتها فحملوا لقب "الآباء الجدليين"- ورأى بعض المسيحيين المثقّفين فيما بعد أنّ أنجع وسيلة لمحاربة البدع هي سبك الحقائق المسيحية في قوالب علمية تستند إلى معطيات الفلسفة اليونانية، فانكبّوا على دراسة الدين المسيحي وأخرجوا للناس "اللاهوت العلمي" الذي ازدهر أثناء القرن الثالث بين علماء مدرستي الإسكندرية وأنطاكية. راجع فهي نجار المرجع السابق، ص ص، 149 - 150.

3- سليمان مظهر؛ قصّة الديانات، ص، 419.

(*)(*) يوحنّا المعمدان هو النبي "يحيى" عليه السلام.

(*)(*)(*) العماد: أول الأسرار وأساسها الذي لا بد منه للدخول في الجماعة المسيحية، يقوم عادة على تغطيس كلّي أو على الأقل برش الماء على الرأس، ويتبع ذلك سر المبايعة الذي به ينال المؤمن موهبة الروح القدس الكاملة. وحسب القدّيس بولس يمثّل التغطيس موت المسيح ودفنه، ويرمز الخروج من الماء إلى القيامة بالاتحاد معه. راجع فهي نجار، المرجع نفسه، ص ص، 111- 112.

4- جميل مدبك؛ موسوعة الأديان في العالم: المسيحية، Edito Creps، بيروت، لبنان، دط، 2000، ص، 34.

ويتم ذلك وفق الذيذاخة Didaché(*).

وإنّ هذا الجمع من الرجال والنساء هم الذين عرفوا فيما بعد "بالأخ والأخت" وسموا «"**بكنيسة الرسولين"، أي الرسل وأجيال المسيحيين الأوائل، وتمتد الحقبة المعنية على وجه التقدير بين سنة 30 و100م**»[1]. وقد اجتمعوا على فعل الخير، من التصدّق على الفقراء والبائسين ومساعدة المحتاجين وغيرها من الأعمال الطيّبة، فبدأت قوّتهم هذه تتنامى شيئا فشيئا، ممّا أدّى باليهود إلى توخّي الحذر منهم ومحاولة إزالتهم من الوجود، فتزول بذلك التعاليم التي جاءت في نظرهم لتحجب تعاليم التوراة.

وقد حفظ التاريخ ردّ أحد اليهود لأذى إخوانه عن المسيحيين حيث قال:«**جماليل Gamaliel حفيد الحاخام "هليل" الكبير، الذي كان يسوع يعجب بتعاليمه... تنحوا عن هؤلاء الناس ودعوهم وشأنهم، فإذا كان عملهم وتعاليمهم هي تعاليم البشر، انتهت إلى لا شيء، أما إذا كانت من عند الله كما يدّعون فإنّكم لا تستطيعون القضاء عليها**»[2]. وهذا ما يُحفظ لأولئك اليهود القلائل الذين حافظوا على شريعة موسى، وكانوا على علم واف بالكتاب فأدركوا صحة ما جاء به المسيح عليه السلام، ولأنّهم كانوا قلّة ولشدة بأس اليهود كافة لم يذكر لهم دور كبير إلا ما ذُكر مثلا عن هذا الحاخام.

في حين أيّد القرآن الإنجيل و التوراة معا، وذلك في الآية الكريمة من سورة آل عمران: «**الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان**»[3].

فكوّن بذلك المؤمنون الأوائل مؤسسة بشرية وإلهية معا حيث«**يستطيع الإنسان أن يجد فيها النور، والغفران، والنعمة، للتسبيح بمجد الله**»[4]، وهذه المؤسسة الفريدة آنذاك في تصميمها قد أطلق عليها المسيحيون الأوائل الناطقون باللغة اليونانية تسمية Ekklesias(*)(*) أي كنيسة وتدلّ على "اجتماع الشعب"في اللغة اليونانية[5].

(*) الذيذاخة **Didaché**: هي عبارة عن كتاب "للمرسلين"، وضع في بداية القرن الثاني للميلاد في سورية، و هو يتضمن دستورا أخلاقيا، حول موضوع "الطريقين"- أي طريقي الحياة و الموت- و كذلك تعليمات طقسية و رعوية. راجع جميل مدبك، موسوعة الأديان في العالم: الديانة المسيحية، مرجع سابق، ص ص، 33- .34

1- نهى نجار؛ موسوعة الأديان السماوية و الوضعية: الديانة المسيحية، ص، .143

2- سليمان مظهر؛ المرجع السابق، ص، 419.

3- القرآن الكريم؛ سورة آل عمران، الآيات، 2-3-4.

4- نهى نجار؛ المرجع نفسه، ص، 106.

(*)(*) **Ekklesias** : هي **Ecclésia** أي مجلس الشعب قديما في أثينا. انظر نهى نجار، المرجع نفسه، الصفحات، 106- 107- 108.

5- نهى نجار؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وتذكر رسالة "بطرس" الرسول الأولى في هذا الشأن:«**وأمّا أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكي، أمة مقدّسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب، الذين قبلا لم تكونوا شعبا، وأما الآن فأنتم شعب الله الذين كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون**»[1]، وتواصل الرسالة:« **فاخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرّب**»[2].

وفي هذا دعوة من الإنجيل لكي ينتظم المؤمنون وفق مجموعة محايدة، ويمثّلوا تعاليم السيّد المسيح عليه السلام أحسن تمثيل، وهذا ما فعلوه بالفعل، بإنشائهم هذا التكتّل المعنوي في بدايته. لأنّهم ذكرت الرســـالة:« **لهذا دعيتم، فإنّ المسيح أيضا تألّم لأجلنا، تاركا لنا مثالا، لكي تتّبعوا خطواته... لأنّكم كنتم كخراف ضالة، لكنّكم رجعتم الآن إلى راعي نفوسكم وأسقفها**»[3]، فوصية المسيح عليه السلام بالالتفاف والاتحاد، هي الخلفية التي اعتمد عليها أنصاره فيما بعد، مشكّلين الكنيسة، حسب ما يرويه العهد الجديد من الكتاب المقدّس.

وبعد أن انظّم المؤمنون تحت لواء العقيدة المسيحية وتحت لواء هذا التمثيل أصبحوا شعبا جديدا، شعبا يعبد الله الواحد وليس شعبا يقدّم القرابين للأوثان. هذا الشعب الجديد هو الذي رمزت إليه كنيسة البرّية في الكتاب المقدّس، حيث ورد في أعمال الرسل: «**هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل، نبيا مثلي سيقيم لكم الرّب، إلهكم من إخوتكم له تسمعون، هذا هو الذي كان في الكنيسة في البرّية مع الملاك الذي كان يكلّمه في جبل سيناء ومع آبائنا**»[4]، أي أنّ هذا التجمّع المسيحي، هو الكنيسة التالية بعد الكنيسة الأولى في عهد موسى عليه السلام، وتجمّعهم هذا حول تعاليم السيّد المسيح عليه السلام، هو الذي إذا الذي بشّر به موسى عليه السلام، فيما ورد من الآية.

ويوضّح لنا توينبي أكثر ويقول:«**تنطوي تحت كلمة "كنيسة"، سلطة كنسية موحدّة**»[5] ، أي مجموعة من البشر التفّت حول مجموعة معتقدات دينية وتختص بها العقيدة المسيحية هنا، وعليه«**فلفظة "كنيسة"، تعني معناها الأول والأساسي؛ وهو جماعة المسيحيين لا البناء حيث تقام شعائر العبادة، ولا الأطر التنظيمية التي تطوّرت على مر الأيام، وهي توازي كلمة "أمّة" عند المسلمين لا كلمة "مسجد"**»[6] ، من هنا إذا نستشف المعنى الأول لكلمة **كنيسة**، قبل أن يتجسّد كبناء تقام فيه الطقوس المسيحية.

1- رسالة بطرس الأولى؛ 2/ 9- 10.

2- الآية؛ 13.

3- الآية؛ 21- 25.

4- أعمال الرسل؛ 7 / 37- 38.

5- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 319.

6- نهى نجار؛ موسوعة الأديان السماوية و الوضعية: الديانة المسيحية، ص، 106.

ويذكر العهد الجديد تعرّض الكنيسة بهذا المعنى الأول للاضطهاد المرير، يقول الكتاب:«**وحدث في ذلك اليوم، اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة، ما عدا الرسل... وأما شاول(*) فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجرّ رجالا ونساءا، ويسلّمهم إلى السجن**»[1]، إذا فالمقصود من **كنيسة** هنا، هو تجمّع المسيحيين المعنوي، «**تلك هي الكنيسة**»[2]، أيضا اليوم، حيث لا يزال هذا المعنى الأول سائدا إلى جانب الكنيسة البناء:«**حياة الله التي أتت بالمسيح، وبالروح القدس الرّب المُحيي، تنسكب في قلوب البشر فتجعلهم أبناء الله وهياكل للروح القدس، أي توحّدهم بالله، وتوحّدهم بعضهم ببعض وتصيّرهم جسدا واحدا للمسيح**»[3]، فهكذا هو مفهوم المسيحيين اليوم كذلك للكنيسة.

و«**أما الكنائس بالمعنى الإنشائي، فقد بدأت إقامتها ابتداءا من منتصف القرن الثالث ويُعدّ البيت-الكنيسة- الذي في "دورا-أوروبوس" Doura Europos على نهر الفرات(نحو عام 250م) أقدم بناء مسيحي معروف**»[4]، أي أقدم كنيسة ولو أنّ هناك من يشير إلى أنّ كنيسة القديس "بطرس" في الفاتيكان، هي أولى الكنائس.

وهذا بعدما اقتصرت العبادة في بادئ الأمر، أي في مطلع القرن الثاني بالتحديد، على بيوت كان يهبها المسيحيون الأوائل ليتم فيها التجمّع وتقام فيها العبادة أيام الاضطهاد.

فالصورة التي نقلها الكتاب المقدّس عن تحرّش القدّيس بولس بالمؤمنين قبل أن يصبح قدّيسا للمسيحيين، توضّح بجلاء، بغض اليهود من للمؤمنين المسيحيين، رافضين بذلك قيام ما سمّي بكنيسة مسيحية على أرضهم.

و لم تنتشر الكنيسة بهذا المعنى الأول، خارج القُدس انتشارا واسعا، إلا بعد الاضطهاد الذي تعرّض له "استفانوس" Stéphane أول الشهداء المسيحيين، الذي قتل رجما بالحجارة على يد اليهود والوثنيين، يشهد العهد الجديد:«**وأخرجوه خارج المدينة ورجموه... فكانوا يرجمون استفانوس، وهو يدعو ويقول: أيّها الرّب يسوع اقبل روحي، ثم جثا على ركبتيه وصرخ بصوت عظيم، يا رب لا تقم لهم هذه الخطيّة، وإذ قال هذا رقد**»[5]، أي استشهد. ويواصل الكتاب:«**وكان شاول راضيا بقتله**»[6]، أي أنّ أشدّ من تحدّى وواجه الكنيسة المعنوية كان شاول اليهودي و سُجّل عليه ذلك في أعمال الرسل.

(*)شاول: هو الاسم اليهودي للقديس بولس.

1- أعمال الرسل؛ 5/ 1-3.

2- نهى نجار؛ المرجع السابق، ص، 103.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- جميل مدبك؛ موسوعة الأديان في العالم: المسيحية، ص، 34.

5- أعمال الرسل؛ 7/ 58- 59- 60.

6- 8/ 01.

وخلال القرنين الأولين، أصبح هنالك تسلسل في المراتب لهذه المجموعة المؤمنة، حيث كلّف كل فرد بدور معيّن، لابد أن يقوم به بصفته عضوا في المجتمع الجديد،«**فهناك رؤساء بالعمر Presbytérien**(*) **ومراقبون Episcopi**»[1]. وبدأت تتنامى أدوار هؤلاء شيئا فشيئا، وكلّها موجّهة لخدمة الطبقة المقهورة، لأجل النهوض بها وتعزيز قوّتها.

و ابتداءا من القرن الثاني «**تزايدت أهمية البريسبيتيرات والإبيسكوبات... وأصبح واحد من المديرين رئيسا للكنيسة... وانفرد وحده بلقب أسقف**(*)(*)، **وعندئذ أصبح الأسقف هو الخلف الوحيد للرسل**»[2]، وأما الشمّاس فهو«**الخادم المساعد**»[3]، وكان عمله مرتبطا بالأسقف. وأما القس، فتركز عمله في الوعظ والتعميد وترأس خدمة الأفخارستيا[4]، وهكذا ضبطت درجات الخدمة الثلاث: الأسقف والشمّاس والقس.

وقد كان هناك عدد من المؤمنين، اختاروا حياة العفّة والبتولية، فازدهرت معهم الحياة الرهبانية وغايتها الأولى الهرب من العالم والبحث عن الله[5]، والانصراف للتعبّد والزهد من الحياة فانعزلوا في أكواخ صغيرة، وكهوف ودواميس في الصحاري والمناطق الغير مأهولة، وكان هدفهم في ذلك«**مصارعة الشيطان، الذي كانوا يرونه في كل مكان وكانت الحركة الرهبانية تسعى إلى إعادة البشرية إلى ما كانت عليه قبل الخطيئة الأصلية**»[6].

وأمثال أولئك كثيرون ممّن لعبوا الدور الأول في إقامة الحياة الديرية(*)(*)(*) نذكر منهم على وجه الخصوص: أبو النسّاك والزهّاد الذين عاشوا في براري مصر، القدّيس أنطونيوس Saint Antoine (**251-356**)، وباخوميوس Saint Pacôme (**292 - 346**)، وباسليوس Saint Basile (**399-379**)، والقدّيس

(*) **Presbytérien** : كلمة يونانية تعني الشيخ ومجموعها شيوخ.

1- فيلسيان شالي؛ موجز تاريخ الأديان، ص، 257.

(*)(*) أسقف **Evêque** : و أصل الكلمة يوناني وتعني المشرف. والأسقف هو الرأس الروحي في الجماعة المسيحية المحلية التي تعرف بالأبرشية. انظر نهى نجار، المرجع السابق، ص، **193**.

2- فيلسيان شالي؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- جميل مدبك؛ المرجع السابق، ص، 42.

4- المرجع نفسه؛ ص، 41.

5- جميل مدبك؛ المرجع نفسه، الكنائس الشرقية الأرثوذكسية والكاثوليكية، ص، 131.

6- المرجع نفسه؛ المسيحية، ص، 66.

(*)(*)(*) الحياة الديرية: بني أول دير في صعيد مصر سنة **323**م من طرف الزاهد باخوميوس(**286- 346**)، وأعطى جماعته مجموعة قوانين تنظّم حياتهم اليومية، من عمل وصلاة. ويحاط الدير بسور تقوم في وسطه الكنيسة ويقيم به جماعة الرهبان الذين يعيشون في طاعة الرئيس، يساعده أحد الإخوة في الإرشاد الروحي. وعند موت باخوميوس كان قد بنا تسعة أديرة، كما بنت أخته مريم ديرين للنساء. راجع جميل مدبك، المرجع نفسه، الصفحات، **64- 65- 66- 67**.

بندكت Saint Benoît de Nursie (**480- 547**) صاحب القاعدة البندكتية المشهورة، متّبعين ما ورد في العهد الجديد من نصيحة لطرد الشيطان والتمسّك بالإيمان.

يقول الكتاب:« **أيّها الأولاد لا يضلّكم أحد، من يفعل البر فهو بار، كما أنّ ذاك بار- أي المسيح- ومن يفعل الخطيّة، فهو من إبليس، لأنّ إبليسا من البدء يخطئ**»[1].

و«**تعتبر القرون الثلاث الأولى أهم عصر تاريخي مرّت به الكنيسة، فهو عهد التأسيس والانتشار السلمي، وزمن الوحدة الشاملة والمحبّة الخالصة، وأيام البطولة والشهادة الرائعة، وعصر الإيمان الحي، الذي نقل إلى الأجيال التابعة تعاليم السيّد المسيح ورسله القدّيسين** »[2].

ويستدّل المسيحيون عن وجوب هذا القيام للكنيسة، بما ورد في الكتاب المقدّس في أنّ السيّد المسيح عليه السلام اعتمد على أبرز حواريّه "بطرس" في بناء الكنيسة. ورد في إنجيل "متّى": «**وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات، وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولا في السماوات**»[3]، أي أنّ السماء تبارك قيام الكنيسة.

وعبر التاريخ انشقت الكنيسة المسيحية، إلى كنيستين: كاثوليكية غربية في روما وأخرى أرثوذكسية شرقية في القسطنطينية [4].

وأدّى هذا الانقسام إلى ظهور العديد من الفرق التي تباينت آراؤها حول العقيدة المسيحية منها: الكاثوليكية، والأرثوذكسية، والبروتستانتية، الأكثر انتشارا، إضافة إلى الآريوسية والنسطورية، واليعاقبة، والمارونية...

ويرجع هذا الانقسام إلى الاختلاف بشأن الأقنوم الذي انبثق منه الروح القدس، حيث ذهبت جهة إلى أنّ انبثاقه كان من الأب فقط، وذهبت الجهة الثانية إلى القول بأنّ انبثاقه كان من الأب والابن معا. فأخذت كنيسة روما بالرأي الذي يقول بانبثاق الروح القدس من الأب و الابن معا، وذلك في مجمع القسطنطينية الذي عقد سنة 869م. في حين اعتنق الرأي الأول بطريرك القسطنطينية، الذي عقد بدوره مجمعا في القسطنطينية سنة 879م، وأفضى إلى أنّ الروح القدس، منبثق من الأب وحده[5]، و عرف هذا المجمع فيما بعد بالمجمع الشرقي اليوناني.

فنتـــج عن هذا انقسام الكنيسة إلى كنيستيـــن رئيسيتيـــن: الكنيسة الشرقية اليونانيـــة والكنيسة الغربية اللاتينية.

1- رسالة "يوحنّا" الرسول الأولى؛ 3/ 7- 8.

2- فهى نجار؛ المرجع السابق، ص، .143

3- إنجيل "متى"؛ 16/ 18- 19.

4- حسين علي حمد؛ قاموس المذاهب والأديان، ص، .210

5- مصطفى شاهين؛ النصرانية: تاريخا وعقيدة.. وكتبا ومذاهب، ص، .248

والثلاث فرق الرئيسية التي ترتّبت عن هاتين الكنيستين هي: الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية. ورغم الاختلافات أصبح لكل كنيسة نظام يتمثل في:

- رجال منقطعون كل منهم يسمى Priest أي قسيس أو رجل دين.
- أطلق على هؤلاء Clergy أي رجال الدين للتمييز بينهم وبين العلمانيين.
- كبير القسس في كل مدينة يطلق عليه Bishop أي أسقف أو مطران.
- الأساقفة في المدن الرئيسية، أطلق على كل منهم اسم Archbishop أي رئيس الأساقفة في دائرته.
- رؤساء الأساقفة بطريرك Patriarch:
- قبل القرن الحادي عشر كان كل من الأساقفة ورؤساء الأساقفة يطلق عليه لقب: Pape [1].

وقد اختص بهذا اللقب رئيس أساقفة روما دونا عن غيرهن وحدث ذلك في القرن الحادي عشر في عهد البابا "جريجوري السابع"Grégoire VII .

(1)- الكاثوليـــك:

إنّ كلمة كاثوليـــك Catholique ذات أصل يوناني وتعني العموم والعالمية، والمقصود بها في الديانة المسيحية أنّها ديانة عالمية عامة[2]. والكاثوليك هم جماعة المسيحيين الذين يعتبرون أنّ الكنيسة يسوسها مجموع الأساقفة، برئاسة البابا الممثل الأول لكنيسة روما[3]، والذي يعتبر تلميذ وخليفة السيّد المسيح عليه السلام على الأرض «**وإرادته لا تقبل النقاش** »[4].

وبهذا يعتبر الكاثوليك أتباع الكنيسة الكاثوليكية العامة، وهي أعرق وأكبر الطوائف النصرانية، ومركزها روما، وأتباعها في العالم الغربي عموما [5]، فهي كبرى الكنائس العالمية، لأنّها «**ذات التاريخ الطويل في الدين والسياسة، وهي التي حملت لواء الحروب الصليبية، وحاملة لواء محاكم التفتيش**»[6]، وممّا لا شك فيه أنّ تلك الحروب وتلك الأعمال اللاإنسانية قد «**أخرّت الضمير الإنساني والعقل الإنساني قرونا، ولولاها لكان وجه العالم اليوم غير هذا الوجه الشاحب الكئيب**»[7]. وقد سميت بالرومانية، لأنّها ورثت الإمبراطورية الرومانية. وكان البابا في القرون الوسطى«**يعلن أولوية السلطة الروحية على السلطة الزمنية، وكثيرا ما يمارس عملا كنسيا، تُعجب به حتى العقول النيّرة مثل أوغست كونت**»[8].

1- المرجع السابق؛ الصفحة نفسها.

2- أحمد عبد الغفار عطار؛ الديانات و العقائد في مختلف العصور، الجزء الثالث: المسيحية و المسيح، مكّة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1981، ص، 523.

3- نهى نجار؛ المرجع السابق، ص، 196.

4- حسين علي حمد؛ المرجع السابق، ص، 167.

5- ناصر بن عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل؛ الموجز في الأديان و المذاهب المعاصرة، ص، 76.

6- محمّد أحمد الحاج؛ النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص، 165.

7- أحمد عبد الغفار عطار؛ المرجع نفسه، ص، 527.

8- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 258.

وتنتظم الجماعة المنظّمة والمتسلسلة المراتب على النحو التالي: البابا ثم الكاردينالات ثم البطاركة ثم المطارنة، ثم الرهبان[1]، ويؤلّف هؤلاء- على هذا النحو- ما يسمّى«**بالهيئة الكهنوتية**»[2].

وتؤمن الكنيسة الكاثوليكية وبالتالي جموع الكاثوليك في العالم، بأنّ السيّد المسيح عليه السلام«**مساو في خصائص الألوهية لله الأب والروح القدس منبثق عنهما**»[3]. وهؤلاء هم من قال فيهم القرآن الكريم: « **لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة**»[4]. ومعنى هذا، أنّها تؤمن بالطبيعيتين أو المشيئتين، «**فالمسيح أقنوم إلهي بحث ولكن له ذاتان وكيانان، هما الإله والإنسان وأنّ مريم العذراء قد ولدت الاثنين جميعا**»[5]، تعالى الله عما يعتقدون.

ويبلغ عدد أتباع هذه الكنيسة اليوم حوالي خمسمائة مليون نسمة يتوزّعون في بلدان كثيرة منها: إيطاليا وإسبانيا، وأيرلندا، وبلجيكا، والبرتغال، والنمسا، وفرنسا، وأمريكا اللاتينية[6].

وقد اتّجه بعض الكاثوليك الملتزمين في القرن الحالي، إيمانا منهم بقيم الدين السمحاء إلى«**تأسيس جماعات**(*) **اتخذت أسماءا مختلفة، لكنّها تسير كلّها في تيار التجديد للحياة المسيحية وحاولت أن تضّم إليها كل فئات المجتمع المسيحي**»[7]. وتعدّ هذه خطوة جبارة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي اشتهرت بفرض السلطة بالقوة وعندما تأتي مثل هذه المبادرات من كاثوليك، نؤمن بأنّ العقل المسيحي قابل وقادر على ردع التجاوزات الدينية المسيحية، فذلك يسهم إلى حد كبير في تدعيم الحضارة الغربية.

(2)- **الأرثوذكـــس**: إنّ Orthodoxe كلمة من أصل يوناني معناها "استقامة الرأي" وتطلق على الفكر اللاهوتي الموافق لتعليم الرسل[8]، ويراد باستقامة الرأي أو الرأي الحق أو المذهب المستقيم في المسيحية، «**أنّها**

1- المرجع السابق؛ ص ص، 258- 259.

2- المرجع نفسه؛ ص، 259.

3- ناصر بن عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل؛ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

4- سورة المائدة؛ الآية، 73.

5- حسين علي حمد؛ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

6- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

(*) فقد أسس ألبير ديمان Albert de Mun حركة ACJF لتنظيم شباب الطبقة المتوسطة عام 1886، وأسس الأب كرداني حركة J.O.C سنة 1925 لخدمة ورعاية الطبقة العمالية التي كانت قد أهملت زمنا طويلا من قبل الأنشطة الكنسية. وقامت حركة الشباب المزارعين J.O.C سنة 1930، وكان من الطبيعي أن تضم هذه الحركات الشباب من الجنسين وامتدت إلى مختلف بلدان أوربا. وقد وضع البابا بيوس الحادي عشر إطارا لاهوتيا لهذه الأنشطة لتكون طاقة مجدّدة للحياة المسيحية، وعونا لرجال الإكليروس في أداء رسالتهم. انظر جميل مدبك، المرجع السابق، ص ص، 188- 189.

7- جميل مدبك؛ المرجع السابق، ص، 188.

8- نهى نجار؛ المرجع السابق، ص، 193.

الديانة الحق التي تمتاز بصحة الاعتقاد»[1]. والأرثوذكس هم جماعة الناس المنتمون لهذا المذهب والكنيسة الأرثوذوكسية هي كبرى الكنائس الشرقية ومركزها الأصلي القسطنطينية.

ومعظم أتباعها يتمركزون في شمال وغرب آسيا، وشرق أوروبا. وحاليا ليس لها مركز معيّن، فكل كنيسة من كنائسها لها صفة الاستقلال[2]، ولقد منحت هذه الدول الشرقية كلّها «**منحت نفسها الحق بتأسيس كنائس مستقلة، لكل منها رئيسها وتراتبها ونظامها: مثل الكنيسة الروسية، والإغريقية، والصربية ...»**[3].

وقد انفصل الأرثوذكس عن الكنيسة الكاثوليكية عام 1054م، وأعلى رتبها البطريرك ويليه المطران ويليه الأسقف، ثم القس، ثم القس العادي [4].

وترفض الكنائس الشرقية الأفكار المتعلقة«**بالمطهر، وبالحمل بلا دنس، وبعصمة البابا، وفيها يتزوج الكهنة، وتقام الشعائر بلغة البلاد، في صورها القديمة»**[5]. وتعتقد هذه الكنائس أنّ الروح القدس هو نفسه عيسى بن مريم، لأنّ عيسى— في نظرهم- هو الله متجسّدا، وقبل تجسّده يلقّب بلقب "الآب"، وبعد تجسّده يلقّب بلقب "الابن"، وبعد قتله وصلبه وصعوده إلى السماء يلقّب بلقب الروح القدس[6].

ويوضّح أكثر "حسين علي حمد" في قاموسه، أنّ المسيح أقنوم واحد «**تمّ بعد الإتحاد بدون اختلاط و لا امتزاج، لذلك فالعذراء تدعى بحق أم الله – تنـــزّه تعـــالى- لأنّها لم تلد إنسانا عاديا، بل ابن الله المتجسّد»**[7]. وهؤلاء هم الذين ذكرهم القرآن الكريم في قوله:« **لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم»**[8]، داعيا بذلك القرآن الكريم للتوحيد الكامل .

1- أحمد عبد الغفار عطار؛ المرجع السابق، ص، 523.

2- ناصر بن عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل؛ المرجع السابق، ص، 76.

3- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 260 .

4– حسين علي حمد؛ المرجع السابق، ص، 165.

5- فيلسيان شالي؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6- مصطفى شاهين؛ النصرانية: تاريخا وعقيدة.. وكتبا ومذاهب، ص، 253.

7- حسين علي حمد؛ المرجع السابق، ص ص، 165- 166.

8- سورة المائدة؛ الآية، 72.

وخلال القرن التاسع عشر، ظهر في حياة الكنيسة الروسية طبقة "الأستاريت"(*) Starets وهي طبقة الرهبان الشيوخ وتبلورت على يد "سرا فيم ذي ساروف" De SAROV **(1759-1833)** وأضحى "الإستاريت"، هؤلاء الشيوخ الأجلاء مرشدي النخبة الروحية الروسية، وقد نجحوا في الاستيلاء على قلوب الناس وحملهم على الاعتراف بخطاياهم بكامل إرادتهم. حيث كان عامة الشعب والأشخاص البارزون، يأتون جمّا غفيرا، ويسجدون أمام استاريت "ديرنا"، ويعترفون لهم بكل ذنوبهم، ومعاناتهم، ملتمسين منهم الإرشاد إلى طريق الرشاد[1]، وذاع صيتهم أكثر عندما اكتسب استاريت "زوزيم" بصيرة ثاقبة، «**فمنذ النظرة الأولى إلى إنسان مجهول، كان يحرز لماذا أتى وإلى ماذا يحتاج وكذلك ما الذي يعذّب ضميره، فكان التائب تأخذه الدهشة والخجل، بل الرعب أيضا**»[2]، ذلك أنّه يجد نفسه مكشوفا لذلك "الإستاريت" قبل أن يتفوّه ببنت شفة. ويروى أنّه لكم كانت تلك الجلسات إيجابية النتائج، بحيث كان يدخل الكثيرون وللمرة الأولى خائفين قلقين ويخرجون منشرحي الصدور حرّاء تخلّصهم من أثقال القلوب التي كانت تكبس أنفاسهم.

وتصنّف هذه المحاولات في الشفاء الديني مع تلك المحاولات الكاثوليكية- الآنفة الذكر- من أجل إعطاء الدين المسيحي الصورة الحسنة.

(3)- البروتستانت: لقد أدّى ما فعلته كنيسة روما الكاثوليكية وما تعتقد إلى قيام طائفة قوية هي طائفة البروتستانت، التي ظهرت في أوائل القرن السادس عشر، ومعنى الكلمة: الاحتجاج والاعتراض[3].

وأطلق هذا الاسم بالتالي على مجموعة الكنائس التي تنتمي إلى حركة الإصلاح(*)(*)، فهي إذن حركة إصـــلاح دينـــي، «**نهضت لإصلاح الكنيسة، بل لإصلاح المسيحية عامة، لأنّها رأت الكاثوليكية قد فسدت**»[4].

فقد ابتعدت-في نظرهم- الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كثيرا عن الكنيسة الأولى، كذلك ضاق درع العديد من الملوك والحكّام من تلك السيطرة الروحية المطلقة التي كانت تمارسها روما عليهم، وتسلب بموجبها كل ما يقع تحت سلطانها، «**فالأملاك العقارية التي استولت عليها الكنيسة شيئا فشيئا، كبرت حتى صارت تثير الغيرة، فأدّت هذه الأسباب المعنوية، والسياسية، والاقتصادية، إلى قيام الإصلاح الديني**»[5].

فقد احتّج رواد هذا الإصلاح الذي قام باسم الإنجيل والعقل على«**الغفرانات**(*)(*)(*) **وسلطة البابا،**

(*) الإستاريت **Starets** : شيخ روحي، ناسك في روسيا كان يتولى الإرشاد الروحي.

1- جميل مدبك؛ المرجع السابق، ص ص، 178- 179.

2- المرجع نفسه؛ ص 179.

3- أحمد عبد الغفار عطار؛ المرجع السابق، ص، 524.

(*)(*) الإصلاح **Réforme**: حركة التجديد الإنجيلي التي قامت في القرن السادس عشر لأسباب شتّى.

4- أحمد عبد الغفار عطار؛ المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 261.

(*)(*)(*) الغفرانات **Les indulgences plénières** : صكوك الغفران الممنوحة من طرف الباباوات.

والتبتل، وإكرام القدّيسين، والمطهر، والقدّاس»[1].

وتسمّى كذلك هذه الكنيسة بالكنيسة الإنجيلية L'Eglise Evangélique، ذلك أنّ أتباعها يتبعون الإنجيل– كما ورد-«**دون غيره، ويفهمون بأنفسهم، ولا يخضعون لفهم سواهم له، فالجميع متساوون ومسئولون أمام هذا الكتاب»[2].**

ويرفض البروتستانت بوضوح سلطة البابا و الخضوع الأعمى له، «**حتّى إنّ العلمانيين، يشتركون في اختيار الكهنة، وليس بالمؤمنين من حاجة إلى وسيط كهنوتي للإتحاد بالله، وهذا هو الكهنوت العالمي وأما رجال الدين فإنّهم يتزوجون»[3].**

كذلك ليس للكنائس رئاسة عامة، إنما يوجد لكل كنيسة رئيس يسوسها ولا يتخذون الصور والتماثيل لتزيين كنائسهم[4]. وكان هذا تحدّيا واضحا لكنيسة روما وحربا تشن على مبادئها الكاثوليكية.

وتعتنق هذا المذهب العديد من الدول في العالم كألمانيا، وانجلترا، والسويد، والداني مارك، وسويسرا، وهولندا، واسكتلندا، وايرلندا الشمالية وكذلك الولايات المتحـــدة الأمريكية.

وقد قاد هذا المذهب بتحدّي لم يسبق له نظير، رجل دين هو "مارتن لوثر" الألماني Martin LUTHER **(1483- 1546)** و"زونجلي السويسري" ZWINGLI **(1484-1531)** و"كلفن" الفرنسي CALVIN **(1509-1564).**

وقد كان "لوثر" شديد الانتقاد لكنيسة روما ممّا أثارها عليه، فطردته من سلك رجال الدين، وأصدر البابا «**قرارا حكم فيه بحرمان لوثر، وكفره واتهامه بأنّه فاسد العقيدة زائفها، ووجّه إلى لوثر إنذارا فما كان من لوثر إلا أنّه خرج بالإنذار إلى أكبر ميادين البلدة، وأحرقه علانية»[5].**

فكان هذا التحدّي الغير مسبوق مثيرا لغضب البابا، فقرّر محاكمته، ولكن تصدّى الناس له والتفافهم حول "لوثر" حال دون ذلك« **ومن هنا عرف هؤلاء الأنصار بالبروتستانت، بمعنى المحتجين لأنّهم احتجّوا على قرار البابا وعلى تنفيذه »[6].**

وحقق "لوثر" بهذه الخطوة انتصارا معنويا، فقد كان أمل هؤلاء الأتباع المعجبين الذين وافقوه على ثورته ضد سلطة البابا، فقام بإلقاء محاضرات كثيرة، وألّف العديد من الكتب عن موضوع سلطان البابا، حوالي أكثر من أربعمائة كتاب وكتيب، كما قام بترجمة الإنجيل إلى اللغة الألمانية...

1- حسين علي حمد؛ المرجع السابق، ص، 52.1

2- مصطفى شاهين؛ المرجع السابق، ص، .250

3- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

4- حسين علي حمد؛ المرجع السابق، ص ص، 52- 53.

5- أحمد عبد الغفار عطّار؛ المرجع السابق، ص، 525.

6- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

ووجد مع ذلك وقتا يقوم فيه بوعظ الناس وتنظّيم الكنائس التي انفصلت عن كنيسة روما[1]، وما إن انقضى أجله حتى انتشرت **اللوثرية** Courant Luthérien في جميع أنحاء ألمانيا، والنرويج، والسويد، والداني مارك، وغيرها... وعرفت الكنائس التي انتمت إلى هذه الطائفة "بالكنائس البروتستانتية".

وكان لهذه الثورة الدينية أن مهّدت لعصر النهضة فيما بعد في حين يذهب البعض إلى أنّ ثورة "لوثر" هذه لم تكن داعية إلى التحرر من سلطة البابا من أجل التحرر نفسه، بل خاف "لوثر"- كرجل دين-«**أن يصيبه من الكنيسة ما أصاب غيره، من الاضطهاد والتعذيب والإحراق، فحاربها ليبعد عن نفسه ظلمها و جبروتها**»[2].

وقد قامت الكثير من المحاولات لتوحيد هذه الفرق المسيحية انطلاقا من نقاط الاتفاق بينها، ولو كانت قليلة، إلا أنّ كل تلك المحاولات لم تنجح، على الرغم من أنّ هناك بعض صور التقارب [3].

ويؤكّد توينبي أنّ«**هدف الإصلاح البروتستانتي هو العودة إلى الممارسات الأولى للكنيسة البدائيـــة**»[4]، في حين يقر بما أتى به البروتستانت من تجديد في قوله: «**لقد وهب البروتستانت حياة جديدة ليس للعهد القديم فحسب، إنّما أيضا للعهد الجديد**»[5]. وهذا إعجاب واضح منه بما قام بتغييره البروتستانت.

ويلتقي الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت في النقاط التالية:

1- الإيمان بيسوع المسيح على أنّه الإله المتجسّد.

2- الإيمان بيسوع المسيح على أنّه ابن الله الحبيب.

3- الإيمان بيسوع المسيح على أنّه أقنوم الابن في الثالوث.

4- الإيمان بخطيئة آدم التي ورثها أبناؤه.

5- الإيمان بأنّ يسوع المسيح في طبيعته الناسوتية واللاهوتية، قد بذل نفسه على الصليب تكفيرا للخطيئة الأصلية[6].

هذه هي مواطن الاتفاق، وهذه هي مبادئ العقيـــدة المسيحية وإن تعددت فرقها.

1- سليمان مظهر؛ قصّة الديانات، ص، 457.

2- أحمد عبد الغفار عطّار؛ المرجع السابق، ص، 529.

3- فيلسيان شالي؛ المرجع السابق، ص، 263.

4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 463.

5- Id. 464.

6- مصطفى شاهين؛ النصرانية: تاريخا وعقيدة.. وكتبا ومذاهب، ص، 253.

3-2- المسيحيـــة و الإمبراطوريـــة الرومانيـــة:

قبل أن تظهر الدول العالمية ومن قبلها الأديان العليا إلى الوجود، كان المجتمع الروماني يعبد الآلهة المتعددة، حيث كان الاعتقاد السائد أنّ حياة الناس مرتبطة تمام الارتباط بالأقدار التي ترسم الآلهة طرقها كيفما شاءت، فكانت الديانات عندهم بمثابة وثاق يربط الناس في المجتمع بعضهم ببعض، بما في ذلك من تعبير عن علاقة الناس بآلهتها المقدّسة، إذ هي«**الوسيلة الإيجابية الإنسانية العقلية في خلق المجتمعات**»[1].

لكن وبقيام الدولة العالمية ومن ثمّ تقهقرها، فسح المجال لأمر آخر، «**لقد كان من المسلّم به آنذاك، أنّ الشريك الجديد، ينبغي أن يكون إحدى المنظمات الدينية العالمية، ترى ما تكون ؟ كان هذا هو السؤال المحير**»[2]. إذ يسمح التقهقر أو تصارع كتلتين من ظهور فرصة للتحرر وفرض ما هو جديد.

أيام الرومان كانت الصلاة هي «**وسيلة الناس في التحدث إلى الآلهة كما أنّ وسطاء الوحي من الكهّان، هم وسيلتهم في تلقّي رسالاتها وكان أعظم أبطال الشعب يعتبرون في بعض الأحيان منحدرين بدرجة ما من أصل إلهي**»[3]، "كهرقل"Héraclès (*) مثلا الذي اعتبر لبطولاته «**ابن إله... وضمّه مجمع الآلهة نظرا لخدماته-الجليلة- في سبيل الإنسانية**»[4].

ورغم اعتمادهم على الآلهة الوثنية أي رغم كون المجتمع مجتمعا وثنيا، فقد كان الرومان«**شعبا متماسكا كالبنيان المرصوص... وأحسّ الجميع بأنّ العائلة والمجتمع، يتأثران بقوى فوق إنسانية أو قـــل إلهية** »[5]، لذلك عرفوا بالآلهة **ربّات المدفأة** (*)(*) أو آلهة المترل Pénates والتي كانت جدّ مقدّسة.

فديانة العائلة ترتبط بالموقد العائلي، الذي يُعدّ رمز شعور الإنسان بأنّه امتداد لأسلافه وسابقيه. حيث كانت توقد نار داخل المترل وتغذّى باستمرار، لأنّ في ذلك اعتقادا باستمرار النسل ودوام السلالة- سلالة العائلة- فهي«**المركز المقدّس للبيت الروماني**»[6]، لما أوجدت من الشعور بالتقوى نحو الأسلاف ويعدّ هذا العامل، عاملا مهما في تطوّر الإمبراطورية الرومانية، ذلك أنّ حفظ تراث الأمة وتاريخ الشعب في الماضي،

1- رشتون كولمبورن؛ أصل المجتمعات المتحضّرة، ص، 145.

2- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص 238.

3- آلبان. ج. ويدجري؛ التاريخ وكيف يفسّرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ص، 54.

(*) هرقل Héraclès: أشهر أبطال الأساطير في اليونان و الرومان، كانت شجاعته خارقة و قوته جبارة، قام باثني عشرة عملا خارقا رفعته إلى مصاف الآلهة الخالدة.

4- جيفري بارندر؛ المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص 124.

5- آلبان. ج. ويدجري؛ المرجع نفسه، ص، 62.

(*)(*) ربّات المدفأة Pénates: هو الاسم الذي يطلق على آلهة المترل اللاتيني القديم على اعتبار أنّها تحرس مدفأة البيت.

6- إرنست كاسيرر؛ مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان، ترجمة: إحسان عباس، دار الأندلس، بيروت، لبنان، دط، 1971، ص، 180.

يلعب دورا كبيرا في حاضر الإمبراطورية، لذلك قيل: وجب الحفاظ على ذاكرة الشعب لأنّها مستقبل الأجيال.

وإنّ هذه الآلهة الرومانية هي«**مجموعة غير محدودة من الأرواح، تربطها معا صلتها بالعائلة- وهي صلة مشتركة- وقد وصفت بأنّها قوى، تتصوّر في جماعات، ولا تتصوّر أفرادا**»[1]، ويلعب ربّ الأسرة دور الكاهن والحاكم في نفس الوقت المكلّف بتقديم الذبائح لأرواح الأسلاف.

وعندما توسّع المجتمع وصار بحاجة إلى تنظيم سياسي يكفل تبيان أدوار الأفراد فيه، تشكّلت الفصائل، وهي عبارة عن«**مجموعة عائلات كانت تشكّل شبه حزب سياسي وتتعبّد لإله واحد، تقدّم له الأضحيات بحضور الجمع واشتراكهم، وتقام ولائم عامة، يحضرها أفراد الفصيلة... كما أنّه عند تأسيس المدن الكبرى، كان يوجد لكل مدينة مذبح مشترك**»[2]. ومعبد روما هو معبد **فستا**، وإنّ أي إنكار للآلهة أو مجرّد التقاعس في أداء الطقوس المقدّمة لها يعرّض الشعب لنقمتها وغضبها. وقد كان يقام عيدها في روما كل أربع سنوات، فتقدّم الأضحيات للتكفير عن الذنوب... وقد كانت سلطة آلهة المدينة سلطة مطلقة حتى أنّ أية هزيمة كانت تحدث لشعب أو مدينة، كانت تعتبر هزيمة للإله نفسه[3].

وفي هذا الوقت كانت الحكومة الرومانية بالغة الحذر من التغلغل السري«**للديانات الشرقية، كما أنّها لجأت في بعض الأحيان إلى اتخاذ تدابير صارمة للحيلولة دون انتشارها في الأراضي الرومانية**»[4]. من هذا ندرك القيمة الاجتماعية المعنوية الكبيرة التي كانت تحاك لعبادة الآلهة، وكيف كانت تتحكّم هذه القيمة وبشكل كامل بيوميات الحياة الرومانية وشؤون المجتمع عامة، فلا يوافق الشعب حكّامه وأباطرته على أية قضية تخص الإمبراطورية، إلا إذا وافقت عليها الآلهة المصونة وباركتها، وإنّ أي محاولة للمشي عكس التيار كانت تعتبر مخالفة خطيرة تعاقب عليها الآلهة أشدّ العقاب.

بهذا الأسلوب الديني في الحياة، سعى الرومان ونجحوا- لفترة من الزمن- في إخضاع المسكونة(*) كلّها لحكمهم الوحيد[5]، وهذا ما تعلّمته روما نتيجة احتكاكها باليونان فعندما اعتلى "أغسطس"(*)(*) Auguste سدة الحكم «**لم يسمح لنفسه أن ينال وحدة شرف التأليه، إذ لابد لاسمه أن**

1- المرجع السابق؛ ص، .181

2- يوسف الحوراني؛ الإنسان والحضارة، ص، .48

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 251.

(*) المسكونة: هي الكرة الأرضية لأنها تسكن.

5- آلبان، ج، ويدجري؛ المرجع السابق، ص، 62.

(*)(*) أغسطس (63 ق. م-14 بعد. م) : الإمبراطور الروماني الذي عرف عهده السلام و الازدهار و الإشعاع الثقافي فأصبح معروفا ب"عهد أغسطس".

يقترن باسم روما، فمن روما أخذ لقب Divi Filius أي ابن الإله (يوليوس)»[1]. وكذلك الأباطرة الآخرون الذين أصيبوا بجنون العظمة من أمثال:

"كاليجولا" Caligula، و"نيرون" Néron، و"دومتيان" Domitien، الذين طالبوا «**بأن يعبدوا في حياتهم وأن ينظر إلى كل منهم بوصفه سيّدا وإلها Dominus & Deus أي مالك العبيد وإله الفنانين»**[2]. كانت هذه هي الأوضاع قبل مجيء المسيحية، فقد كان مجتمع الآلهة لدى الرومان ينظر إليه على أنّه مجلس سماوي.

ونفسّر اهتمام الأباطرة بأمور الدين، عندما أكثروا من الهياكل وعزّزوا مركز الكهنة، وأقيمت الألعاب في مواسم الأعياد ومن بين المراسم الجديدة التي أدخلها "أغسطس" **"عبادة الإمبراطور"**، وسرت العدوى إلى حكّام المدن والمقاطعات الشرقية للإمبراطورية -خاصة- الذين اعتبروا أنفسهم آلهة.

أما في الغرب، فقد ظهرت عملية «**تأليه الأباطرة الممتازين بعد وفاتهم»**[3]، وهذا ما جعل توينبي يفسّر النكبة التي أصابت الإمبراطورية بسقوطها في يد البرابرة بقوله:«**سقوط روما سنة 410 هو عقوبة أوقعتها الآلهة غير المسيحية، بسبب وقف التعبّد لها في (391- 392)»**[4].

وهذا لا يعني أنّ توينبي يؤمن بالآلهة الوثنية، وإنّما حاول تحليل ذلك الوضع المأساوي الذي وصلت إليه هذه الإمبراطورية العظيمة، انطلاقا من تفسيرات أولئك المواطنين الذين عاشوا لأزمنة عديدة في عبادة غير منقطعة للآلهة والأباطرة فمنّوا بخيبة أمل كبيرة عند سقوط إمبراطوريتهم.

وقد استمرت **"عبادة الإمبراطور"** في القرن الثالث «**إلى أن غيّر أورليان Aurélien**(*) **مبدأ الحكم مضيفا إليه نعمة من الله، ممّا مهّد الطريق أمام المسيحية»**[5]، غير أنّه- يضيف توينبي- كانت«**عبادة الآلهة روما والإله قيصر، لم تكن غير عقيدة مصطنعة، قصد بإقرارها غرض سياسي معيّن فضلا عن أنّها لم تثر حماسة النفوس الهلينية»**[6]، ومعنى هذا أنّ العبادة كانت آلية ومفروضة بالقوة وهذا ما جعل الرومان— الضعفاء منهم- يدخلون في المسيحية عند ظهورها، فعصر الاضطرابات الذي تلا انهيار الحضارة ترك في النفوس إحساسا بأنّها تقع تحت رحمة قوى مدمّرة ومخرّبة داخل المجتمع وداخل ذواتها أيضا، لكنّها فقط لم تكن لتجد السبيل لردعها «**وكان ذلك نذيرا بإفلاس عبادة الإنسان»**[7].

1- جفري بارندر؛ المرجع السابق، ص، 124.

2- المرجع نفسه؛ ص ص، 124- .125

3- المرجع نفسه؛ ص، 126.

4- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 50.

(*) أورليان. Aurélien(212- 275) : حقق بانتصاراته العسكرية الباهرة و مركزية الإدارة وحدة الإمبراطورية الرومانية.

5- جفري بارندر؛ المرجع نفسه، ص ص، 125- 126.

6- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، .267

7- المصدر نفسه؛ ص، .241

وهكذا بدا الدين عند الرومان- قبل ظهور المسيحية-«**لم يكن منعزلا عن واقع الحياة اليومي، ولا يمكن أن يدرس منفردا معزولا عن النظام الاجتماعي أو السياسي، بل هو تابع بتطوّره لتطوّر اليقين الإنساني الذي يعزله بعين التجربة الشخصية عن الاعتقاد الإيماني الغيبي الخاضع لرغبة التسليم العفوي في الإنسان، لقوى الغيب المتحكمة في أقداره**»[1].

وقد كان الرومان يسيطرون على الشام وفلسطين« **يوم ولد المسيح عيسى ابن مريم**»[2]، وأرسل عليه السلام مبشّرا بالإنجيل و«**هجر الملاذ التي استغرقت في النفوس في تلك الأيام، واستولت عليها، ويبشّر بعالم الآخرة**»[3].

وأيّده الله بمعجزات كثيرة، يقول تعالى في كتابه العزيز:«**وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني** »[4].

ويذكر الكتاب المقدّس كذلك:«**وكان يسوع يطوف المدن كلّها والقرى، يعلّم في مجامعها، ويكرز (*) ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف بالشعب**»[5]، بتعاليم الإنجيل السمحاء.

وقد كان أول من تصدّى لدعوته عليه السلام اليهود، فقد وقفوا منه منذ البداية«**موقف التحدّي والتصدّي**»[6]، لكنّه عليه السلام وكما كل الأنبياء أكمل رسالته رغم تعرّضه للفتك من طرف الرومان بإيعاز من اليهود إلى حين رفعه إلى السمـــاء.

ويفسّر توينبي عداء اليهود هذا، في أنّ المسيحية قد انشقت عن الأصل الذي نشأت عنه ألا وهو الديانة اليهودية، يقول: «**فعلى النقيض من الترتيب المقرّر للضروريات الذي كانت تراه الديانة اليهودية، فلم يكن اهتمام الكنيسة المسيحية منصبّا على مجرّد صيانة كيانها بل استهدفت في المكان الأول سيادة سائر البشر**»[7]، وهي الرسالة التي ختمها الإسلام فيما بعد.

ومنذ نزول الرسالة بدأ عدد أتباع المسيح يزدادون شيئا فشيئا، إذ وجدوا فيها الدواء الشافي من عبودية الإمبراطورية الغاصبة، وقد سجّل لنا التاريخ ما نزل بالنصرانيين بعد المسيح عليه السلام من بلايا

1- يوسف الحوراني؛ المرجع السابق، ص، 50.
2- عبد الغني عبود؛ المسيح والمسيحية والاسلام، ص،37.
3- محمّد أبو زهرة؛ محاضرات في النصرانية، ص، 91.
4- القرآن الكريم؛ سورة المائدة، الآيات، 110.
(*) يكرز: معناها يبشّر.
5- إنجيل "متّى"؛ 9/ 35.
6– عبد الغني عبود؛ المرجع نفسه، ص، 77.
7- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 254.

وكوارث تماما كما حدث مع المسلمين الأوائل زمن قريش، فقد كانت الإمبراطورية وثنية العقيدة وجاء هؤلاء بالإيمان بإله واحد، وارتكز هذا الإيمان «**على التصديق بما أوحاه الله**»[1].

وقد اتخذوا الحسنى وسيلتهم في المعاملة، إذ كان ما«**لا يدع مجالا للشك، أنّه لم يكن ثمّة للديانات الشرقية في الازدهار والرواج بين ربوع العالم الهليني إن هي لجأت إلى العنف والقوة**»[2]. وكان من الطبيعي أنّ ردّ الفعل الأول كان«**تشدّد أباطرة الرومان في معاملتهم للمسيحيين، لأنّهم رفضوا احترام آلهة روما**»[3]، رغم أنّهم قد تساهلوا في كثير من الأحيان- لكن بتحفّظ- حيال شرب العقائد الجديدة، مثال ذلك أنّهم قد أدخلوا إلى روما عبادة الآلهة إيزيس(*) المصرية وعبادة الإله الفارسي ميثرا(*)(*)، لكن دون التعرّض للآلهة الرومانية أو المساس بها، وما نلاحظه أيضا أنّ هذه الديانات، كانت وثنية أيضا و لم تتغذّى من أي وحي سماوي كما هو الحال بالنسبة للمسيحية، وهذا ما لم يستطع أباطرة الرومان استيعابه.

وقد كان«**أوّل اضطهاد نزل بالمسيحيين في عهد المسيح**»[4]، ثم تلاه مسلسل الاضطهاد persécutions، وقد كان«**أشدّ ما نزل من أذى في عهد نيرون (سنة 64م) وتراجان (سنة 106م) وديوس (249-261م) ودقلديانوس**»[5]، إذ شعر هؤلاء في رأي توينبي «**بالمرارة والحقد وهم يرقبون الكنيسة المسيحية تنهض ببنائها كما لو كانت تقيم دولة معادية داخل الدولة العالمية**»[6].

ولعلّ الطاغيـــة "نيرون" كان أشدّهم إذ اتّهمهم بأنّهم هم«**الذين أحرقوا روما فأخذهم بجريرتها**»[7]، في حين روى عنه التاريخ، أنّه هو من «**أحرق روما عاصمة ملكه**»[8]. فقد «**تفنّن هو وأشياعه في هذا العذاب، حتى لقد كانوا يضعون بعضهم- المسيحيين- في جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم، وصلبوا بعضهم وألبسوا بعضهم ثيابا مطلية بالقار وجعلوهم مشاعل يستضاء بها**»[9]. ويروى أنّ "نيرون" نفسه كان يسير في ضوء تلك المشاعل الإنسانية، ولا نستغرب في هذه الفظاعة لأنّ الرومان قد

1- لويس غارديه وجورج قنواتي؛ فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام، الجزء الثالث، ترجمة: صبحي الصالح والأب فريد جبر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، يناير 1983، ص، 65.

2- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 242.

3- لبيب عبد الستّار، الحضارات، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط5، كانون الثاني 1974، ص، 202.

(*) إيزيس: آلهة عبدت في مصر.

(*)(*) ميثرا: آلهة عبدت في بلاد فارس.

4- محمّد أبو زهرة؛ المرجع السابق، ص، 102.

5- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

6- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 260.

7- محمّد أبو زهرة؛ المرجع نفسه، ص، 103.

8- العـــربي؛ العدد 487، يونيو 1999، ص، 60.

9- محمّد أبو زهرة؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عرفوا بالغطرسة والوحشية إزاء كل من يعترض طريق روما الإمبراطورية أو أن يحاول تغيير معتقد أو نظام بها و لم يكن ليمضي وقت طويل حتى حلّت قبور الشهداء المسيحيين، قبور الأبطال الهلينيين[1].

إلا أنّ هذا الاضطهاد قد شدّد عزائم المسيحيين، فأقبلوا على التضحية بأنفسهم في سبيل إحياء العقيدة الجديدة ونشر هذا الدين السماوي، فاستجمعوا قوامهم وصمدوا، وتقاسموا العيش«**حتى سيطر جو من المحبّة والتسامح، ولاقى الفقراء في هذا المحيط ترحيبا وخطورة لأنّهم أحق بالمحبّة فأتت نتيجة الاضطهاد معكوسة، وازداد عدد المؤمنين من الفقراء والعبيد خاصة، واختفى في المسيحية الأولى التمييز الطبقي أو الجنسي**»[2]. وهذا ما أكسب المسيحية قوة واشتدّ أزرها أكثر بمجيء"قسطنطين الأكبر" Constantin le Grand(*) **(274-337)** وما كان من رؤاه على أنّه سوف يقهر خصمه "ماكسنتيوس" تحت لواء السيّد المسيح، وأنّه سينقش على تروس جنوده اسم المسيح، وذلك أثناء مضيّه إلى روما لقتال عدوه [3]. وكان لانتصاره بشرى خير للمسيحية.

فقد صرّح "قسطنطين" بأنّ انتصاراته الحربية، كانت مكافأة له من المسيحيين عن اعتناقه للمسيحية [4]، ومنذ عام **313** م اعترف الإمبراطور... بحريـــة جميع الأديان في ممارسة طقوسها داخل الإمبراطورية ومن ضمنها المسيحية [5].

وانطلقت المسيحية بعد ذلك في لم شعثها وتقوية نفوذها«**وشهدت السنوات الواقعة بين 320-323م تشريعات لصالح الكنيسة، إذ صار للأساقفة سلطات قضائية، لها من القوة ما لسلطات القضاة المدنيين... وجاز للمواطنين أن يهبوا الأملاك الكنيسة**»[6]. وقد تميّزت- يقول توينبي- بإنشائها«**نظاما إداريا بدلا من أن تترك كل جماعة محلية من المؤمنين تختار الطريق الذي تريد... وكانت الكنيسة في سبيل المواءمة بين نفسها وبين نظم المجتمع الذي كانت تسعى لهدايته** »[7].

وبما أنّ الثقافة الرومانية كانت قد ظهرت عليها مظاهر الأفول فقد حملت إليها المسيحية، ثروة جديدة من القصص، و الأحداث، والصور، والأحكام، والأمثال [8]، مشتقّة من الكتاب السماوي.

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 247.

2- لبيب عبد الستّار؛ المرجع السابق، ص، 202.

(*) قسطنطين الأكبر Constantin le Grand : الإمبراطور الذي لم يضطهد قط رعاياه غير المسيحيين و الذي منح الكنيسة المسيحية امتيازات خاصة. راجع آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق، الصفحات، 20- 21- 22- 23.

3- السيّد الباز العريني؛ تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص، 70.

4- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص ص، 49-50.

5- نور الدين حاطوم؛ تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دار الفكر، دمشق، سوريا، دط، 1982،ص، 69 .

6- السيّد الباز العريني؛ المرجع نفسه، ص، 71.

7- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة الهلينية، ص، 249.

8- جوزيف هورس؛ قيمة التاريخ: دراسة فلسفية، ص، 30.

ولو أنّها قد لاقت بعد "قسطنطين" مجابهات ومحاولات لمحوها إلا أنّ الوقت قد فات، لأنّ تنظيم الإمبراطورية كان قد ساعد على نشرها،«**لأنّ روما كانت قد بسطت نفوذها على كل أنحاء المتوسط، وربطت العاصمة بالمستعمرات بواسطة شبكة متقنة من الطرق، ووحّدت اللغة والشرائع، فتوحّد بذلك العالم الروماني، حتى إذا وصل التبشير إلى روما سهل عليه أن يذهب في كل الاتجاهات**»[1]، مستفيدا بذلك من الوحدة المحكمة للعالم الروماني.

وأصبح بذلك«**نهر بردي يصب في نهر التيبر، أي أنّ المسيحية التي ظهرت في بلاد الشام قد انتقل مركزها إلى نهر التيبر في إيطاليا**»[2]، وهكذا أخضع مستضعفو الأديان العليا مجتمعا كان قائما على القوة. وأصبحت المسيحية «**الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية**»[3]، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أصبح المسيحيون يمثّلون أكثرية السكان، وبالتالي قوة اجتماعية، ثقافية وعقائدية لا يُستهان بها.

على أنّه لابد كذلك من ذكر اصطدام المسيحية بالفلسفة اليونانية وليس بالوثنية فحسب، إذ أنّه«**كان من بين من دانوا بالمسيحية، جماعة آمنوا بعد فلسفة، فكان من الطبيعي أن يتصدّوا بما تسلحوا به من فلسفة، للدفاع عن عقيدتهم الجديدة**»[4] في مواجهة الوثنية السائدة. ويذكر لنا "علي عبد المعطي محمّد"، أنّه من بين المذاهب الفلسفية التي كانت منتشرة آنذاك الأفلاطونية والأرسطية والرواقية والأبيقورية، «**ولقد كانت الأفلاطونية، هي المذهب المفضّل لدى المسيحيين وأيضا أعجب المسيحيون بقول أفلاطون بعالم معقول**»[5]، أي "عالم المثل" الذي يتجاوز العالم المحسوس، وأيضا في قوله بإله يعلو "عالم المثل"، فيكون بذلك "مثال المثل"، وهذا يتوافق إلى حد كبير مع مبادئ المسيحية في نبذ الوثنية والإيمان بالله المتزّه عن الصفات الآدمية، «**و لذلك فقد ظلّت المسيحية تعتبر الأفلاطونية أسمى المذاهب اليونانية وأقربها إلى الديـــن** »[6].

حتى بعدما جدّدت– الأفلاطونية- من طرف "مدرسة الإسكندرية الفلسفية"في القرن الثالث الميلادي، وبزوغ الأفلاطونية الجديدة والتي استغلّها المسيحيون كذلك. ويتجلى هذا التأثر في فلسفة "القدّيس أوغسطين" و"القدّيس توما الإكويني" Saint Tomas d'AQUIN **(1225-1274)**.

فقد سار "القدّيس أوغسطين" من النزعة الحسية المادية نحو النزعة العقلية الأفلاطونية المحدثة، «**أي من الفلسفة الخالصة التي لا تعرف الإيمان إلى الفلسفة المؤمنة، أي التي تقوم على الإيمان**»7.

1- لبيب عبد الستّار؛ المرجع السابق، ص، 204.

2- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر؛ في فلسفة الحضارة (اليونانية- الإسلامية- الغربية)، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، دط، دت، ص، 44.

3- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، .56

4- علي عبد المعطي محمّد؛ مقدّمات في الفلسفة، ص، 294.

5- المرجع نفسه؛ ص، 295.

6- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

7- عبد الرحمان بدوي؛ فلسفة العصور الوسطى، دار القلم، بيروت، لبنان، ط3، 1979، ص ص، 20- 21.

وكذلك هو الحال بالنسبة "للقدّيس طوما الاكويني" فلم يكن«**أرستطاليا صرفا في كل شيء، بل فيمل يتصل بصلة الله بالكون وبالغائية النهائية لكل الأشياء، تدخّل العنصر الأغسطيني الأفلاطوني فأثّر فيه إلى حد كبير**»[1].

وتجدر الإشارة كذلك إلى أنّ توينبي قام بالموازنة بين اضطهاد إسرائيل فلسطين وبين مذابح النازيين في حق اليهود إبّان الحرب العالمية الثانية (**1939- 1945م**) بعد دراسته للاضطهاد الروماني للمسيحية، فمثلما وصف اضطهاد الرومان للمسيحيين الأولين، أنصف كذلك عرب فلسطين- في خطوة جريئة- حيث قال بأنّ الاضطهاد الذي تكبّده اليهود «**فاقت فظائعه كل ما عانوا طوال تاريخهم القديم** »[2].

وفي هذا تأكيد على أنّ الاضطهاد الذي وقع ضحيّته المؤمنون بالنصرانية- من تضييق الخناق عليهم ومحاولة إعادتهم إلى الوثنية والقضاء على معتقداتهم الجديدة أيام الرومان- لم يصل إلى درجة اضطهاد الألمان لليهود في ألمانيا.

ولكن يواصل توينبي ويكشف لنا بأنّ درجة تلك القسوة من التعذيب والإبادة لم تصل إلى درجة اضطهاد اليهود أنفسهم للعرب المسلمين في أرض فلسطين، يقول:«**فقد طبّقوا المساوئ والآلام التي سبق أن طبّقها عليهم مضطهدوهم المسيحيين في الغرب**»[3] على عرب فلسطين الذين«**كانوا بدورهم الضحية البريئة لليهود الأوربيين... وربما كان الميل الذي يدفع الإنسان أو الأمّة للرّد على جريمة جار أقوى باضطهاد طرف بريء أضعف، وتطبيق نفس الظلم الذي عاناه الأول-أي اليهود-على البريء الضعيف الجديد- عرب فلسطين- هو أدنى الميول المنحطّة في الطبيعة البشرية** »[4].

هكذا وصف توينبي الإسرائيليين الحاليين، وهكذا نصر حق العرب تماما كما فعل مع المسيحيين في عهد الرومان، بل وينصح بإرجاع سيادتهم على أرضهم بل وأبطل التحجج بالمزاعم العنصرية التي تنطوي عليها ضمن الدعوة الصهيونية إلى جمع اليهود من أشتات الأرض في موطن واحد[5].

هكذا نخلص إلى نجاح الأديان العليا وعلى رأسها المسيحية في الانبثاق من رحم الدولة العالمية، الإمبراطورية الرومانية، وكيف ساهمت إمبراطورية القوة رغما عنها في تبلور الدين المسيحي وتحمّل رحلته الشاقة من أرض الرسالات شرقا إلى روما غربا ومن ثمّ إلى سائر أنحاء العالم، فبعد نجاحه في تبشير الهلينيين وصموده المستميت- وإن كان صمودا بغير سلاح لأنّ السلاح كان ذلك الكتاب السماوي- أمام وثنية الدولة العالمية وصراعه المرير مع الصورة الرومانية المتمثّلة في **"عبادة الإنسان"**.

1- المرجع السابق؛ ص، 132.

2- آرنولد توينبي؛ فلسطين جريمة .. ودفاع، ترجمة: عمر الديراوي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، حزيران 1961، ص، 14.

3- المصدر نفسه؛ ص، 15.

4- المصدر نفسه؛ ص، 19.

5- من الشرق والغرب؛ ص، 13.

«**و بعد أن ثبت لقسطنطين عيانا قوة الكنيسة المسيحية وذلك لّما انتصر بعد أن رأى الكتابة المشهورة(*) كان لزاما عليه أن يرى في المسيح "الإله الذي لا يقهر"**»[1] – وذلك بعد ما طرأ من تحريفات على الدين- وأن يرى في المسيحية الدين الناصر للإمبراطورية الرومانية والدين الذي من شأنه أن يسمو بها.

هكذا أضحت المسيحية الدين الأول للإمبراطورية الرومانية، وضلّت كذلك إلى حين القيام بالحضارة الغربية الحالية.

- تعقيـــب:

رأينا في الفصل الأول أنّ الدين هو الحلقة المتينة التي تربط الحضارة القديمة بالحضارة الجديدة، ذلك أنّه يؤمّن للمجتمع منفذا آخر للنجاة. وكيف أنّه ظهر في عصر الاضطرابات الذي يلي انهيار الحضارة وهي مرحلة من الفوضى تسبق الزوال التام، وكيف استمرّ في التواجد في إطار ما يسميه توينبي بالدولة العالمية، أي الدولة التي تقوم على أنقاض الحضارة لتوهم المجتمع أنّ حضارته لا تزال قائمة وأيضا قوية، بتعظيم العمل العسكري.

غير أنّ هذا السلام الزائف الذي توفّره هذه الدول العالمية للمواطنين، سرعان ما يتكشّف لتدخل الحضارة في المرحلة النهائية وهي التحلل التام. ولكنها بانقضائها تترك المجال فسيحا لنمو الدين أكثر فأكثر، أو الذي يصطلح عليه توينبي بالأديان العليا التي تستميت من أجل البقاء وتنقض بالتالي أفراد المجتمع من الفناء.

وإنها في الحقيقة ذات قوة عظيمة مستوحاة من دون شك من قوة الرسالة التي تحملها، فتصبر على الآلام التي تتجرّعها من محاولات الدول العالمية لتصفيتها، إلا أنّ ذلك لا يزيدها إلا إصرارا على البقاء ولا يمنحها إلا قوة إضافية تستعملها لتنشر تعاليمها وتستميل بها الأفراد للدخول فيها واعتناق مبادئها، فتكبر وتتعاظم في الوقت الذي تنحو فيه الدولة العالمية إلى الزوال نتيجة لاعتمادها الرئيسي على القوة العسكرية التي تهدم قبل أن تبني.

وخير مثال دلل به توينبي على صحّة وصدق فكرته، هو انبثاق الديانة المسيحية من رحم إحدى أكبر الدول العالمية التي شهدها التاريخ الإنساني: الإمبراطورية الرومانية empire romain وما إثبات توينبي هذا إلا تأكيد واضح على دور الدين القوي في التحكّم بمصير الحضارة، إذ تلعب الأديان دور الأرحام الحاضنة لنشوء وتولّد الحضارة، فللدين دور جوهري بالإضافة إلى المقومات الأخرى لبناء الحضارة.

(*) الكتابة المشهورة: في سنة 312م، كان قسطنطين يهاجم إيطاليا، التي كانت يومها مع شمال غرب إفريقيا تحت سلطة مكسينتيوس صهر قسطنطين، وقبيل المعركة التي وقعت في ضواحي روما الشمالية الغربية، والتي غلب فيها مكسنتيوس وقتل. حلم قسطنطين أنّه رأى الحرفين الأولين من اسم خريستوس باليونانية (يعني K H)، و أربع كلمات برّاقة باللاتينية، معناها: « بهذه العلامة ننتصر». وقد أمر يسوع قسطنطين- كما حلم- أن يضع الحرفين على قبّعته و أن يرسمها على تروس جنده، وقد صنع قسطنطين ما طلب منه أن يقوم به في الحلم، وبعد ذلك كسب المعركة الفاصلة في الحرب الأولى من حروب أهلية ثلاث، وقد كان هو الرابح في كل مرة. وقد عمّد و هو على فراش الموت سنة 337م. راجع آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص، 21.

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 56.

الفصل الثالث : المسيحيـــة و الحضارة الغربيـــة عنـــد توينبي

مـــدخل

1- المبـــحث الأول: المسيحية و بناء الحضارة الغربية

1-1- التبشير المسيحي في الغرب

1-2- دور الكنيسة في ارتقاء الحضارة الغربية

1-3- المسيحية و الحضارات الأخرى

2- المبـــحث الثاني: توينبي و مستقبل المسيحية

2-1- التسامح و التعصّب الديني عند توينبي

2-2- المسيحية و فكرة القومية

2-3- الفراغ الروحي بين الماضي و الحاضر

3- المبـــحث الثالث: توينبي و سقوط الحضارة

3-1- التقنية العسكرية و سقوط الحضارة

3-2- الحرب في الحضارة المسيحية الغربية

3-3-سكرة النصر

- تعقيـــب

مدخـــل:

توصّل توينبي إلى أنّ زوال الإمبراطورية الرومانية الغربية لم يكن ناتجا عن قوة هجمات البرابرة واجتياحهم لأراضيها بقدر ما كان نتيجة ضعف الإمبراطورية ذاتها، وكان ذلك على المستوى الاجتماعي مثلما كان على المستوى الإداري[1].

ولكن قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية بوقت قليل كان هناك من المفكرين الذين استفادوا من الحياة داخل الإمبراطورية ليفيدوا فيما بعد المسيحية الغربية، ويعد هذا عاملا ايجابيا لصالح الحضارة المسيحية الغربية التي قامت فيما بعد[2].

و الواقع أنّه منذ بداية التاريخ المسيحي، كانت المسيحية الغربية المتولّدة عن كنيسة روما، صاحبة الأمر و النهي في العالم المسيحي، رغم أنّه كانت هناك إلى جانبها المسيحية الشرقية على وجه الخصوص(*) والتي كانت طوال الوقت في صراع عنيف مع نظيرتها الغربية. وتمثّل هذا الصراع في انعقاد مجامع مسكونية(*)(*) conciles œcuméniques عدة إلى أن حصل الانقسام النهائي بين الكنائس الغربية(*)(*)(*) والكنائس الشرقية(*)(*)(*)(*). حيث نادى الكاثوليك بعقيدة تعدد الآلهة، ونادى الأرثوذكس بعقيدة تجسّد الإله[3]. وتولّت المسيحية الغربية مسؤولية القيام بالعلم الغربي، انطلاقا من روما العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية، والعاصمة الجديدة التي انطلقت منها المسيحية الغربية. وقد انتشرت المسيحية في هذا العالم عبر التبشير المسيحي الذي كان أول العوامل التي يسّرت من انبثاق الصورة الجديدة للعالم الغربي بتغلغل الديانة المسيحية إلى أعمق نقاط فيه.

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 47.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

(*) لأنّه كانت هنالك مسيحية يهودية، و مسيحية قبطية...

(*)(*) والمقصود من ذلك أنها عالمية وهي: مجمع نيقية concile de Nicée 325م، مجمع القسطنطينية concile de Constantinople 381م، مجمع أفسس الأول concile d'Ephèse 431م، مجمع خلقيدونية concile de Chalcédoine 451م. راجع مصطفى شاهين، المرجع السابق، ص، 259.

(*)(*)(*) التابعة للكنيسة الغربية اللاتينية ويقال لها كذلك الكنيسة الغربية فقط، وكنيسة روما، والكنيسة الكاثوليكية وقد تسمى كذلك الكنيسة البطرسية أو كنيسة بطرس، لأنّ أتباعها يعتقدون أنّ مؤسسها هو بطرس الرسول كبير الحواريين وأنّ باباواتها خلفاؤه من بعده. ورئيسها في الوقت نفسه رئيس دولة الفاتيكان، وهي التي تذهب إلى أنّ الروح القدس منبثق عن الأب والابن معا. والمشايعون لهذه الكنيسة أكثرهم في الغرب في بلاد ايطاليا وفرنسا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال وأمريكا الجنوبية وبلاد أخرى كثيرة. انظر مصطفى شاهين، المرجع نفسه، ص ص، 249- 250.

(*)(*)(*)(*) التابعة للكنيسة الشرقية اليونانية ويقال لها كذلك الكنيسة الشرقية فقط، وكنيسة الروم الأرثوذكس، وهي التي تذهب إلى أنّ الروح القدس منبثق عن الأب وحده، والمشايعون لها أكثرهم في الشرق وبلاد اليونان وتركيا وروسيا والصرب، وغيرها. ولهم بطاركة أربعة هم: -بطريرك القسطنطينية وهو كبيرهم. –يليه بطريرك الإسكندرية للروم الأرثوذكس. –ثم بطريرك أنطاكية. –ثم بطريرك أورشليم. انظر مصطفى شاهين، المرجع نفسه، ص، 249.

3- مصطفى شاهين؛ المرجع السابق، ص، 262.

وإلى جانب التبشير هناك أيضا عوامل أخرى يرى توينبي في معالجتها الوقوف على أهم الظروف التي ساعدت على بناء الحضارة الغربية، كالتسامح والتعصّب الديني إضافة إلى القومية والقوة العسكرية، دون إغفال دور الكنيسة الفعّال في ميادين شتّى من ميادين الحياة الحضارية، والتي تعتبر كلها من نواتج تأصّل المسيحية الغربية في المجتمع الغربي(*).

فكيف عملت المسيحية الغربية على بناء الحضارة الغربية ؟

وما هو موقف توينبي من هذه العناصر التي يعتبرها الأسس التي قام عليها صرح الحضارة المسيحية الغربية الحالي ؟

هذا ما سنحاول تحليله في هذا الفصل الأخير.

1- المبحث الأول: المسيحية وبناء الحضارة الغربية

من شأن عملية التبشير الديني أن تساهم مساهمة أساسية في نشر الدين من رقعة إلى رقعة، حتى تبلغ به أقصى الحدود التي كان يهدف الدين للوصول إليها، وفي التاريخ المسيحي لم يتوقف الدين المسيحي منذ ظهوره من محاولة الوصول إلى أبعد النقاط على الأرض والتغلغل في المجتمعات الغريبة عن المجتمع الغربي، فضلا عن الدور الكبير الذي لعبته الكنيسة المسيحية في تغيير أوجه المجتمع الغربي ذاته من نواحي عديدة، من ذاك جعله يعتقد أنّ حاضرته في وضع سيادة لا نظير له.

وبما أنّ العالم متعدد الحضارات فقد كان من الطبيعي أن تحتك الحضارة المسيحية الغربية بهذا العالم، بغض النظر عمّا يمكن أن يولّده هذا الاحتكاك من حوار أو صدام حضاري **choc des civilisations.**

فكيف يبيّن توينبي الدور الذي لعبه كل من التبشير بالمسيحية ومجهودات الكنيسة للوصول بالحضارة المسيحية الغربية إلى الدرجة التي هي عليها اليوم ؟ وما خلّفه تواجد المسيحية في المجتمع الغربي ؟

وكيف يبيّن احتكاك الحضارة الغربية بحضارات العالم المتبقية ؟

(*) المقصود به الشعوب التي تمثّل العالم الغربي **L'occident**.

1-1- التبشير المسيحي في الغرب:

لقد ظهرت المسيحية في أواخر العصر القديم ومنذ ذلك الوقت والمبشّرون المسيحيون يعملون على نشر تعاليم هذا الدين annonce de la Bonne Nouvelle في العديد من الأقطار عبر العالم.

وإنّ المقصود بالنشاط التنصيري أو ما يسمى بالتبشير، هو الدعوة إلى النصرانية[1]، أي إلى الدخول في الدين المسيحي واعتناق مبادئه. فمن شأن التبشير الديني النجاح في إرساء قواعد دين ما في مجتمع ما. وهو إذا ما نقل هذا الدين إلى هذه الديار التي تجهله فإنّه لا ينقل فقط هذا المعتقد الديني، وإنما قد ساهم كل تبشير ديني مورس على سطح المعمورة في نقل مدنية الحضارة التي تصحبه، أي مجمل نظمها الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية....

فيساهم بذلك في توسيع رقعة تلك الحضارة وتعزيز نفوذها وبالتالي الاستمرار في بناءها، كما يمكن أن لا يساعد على ذلك البناء ويكون عاملا حادا من بسط النفوذ.

فهل ساهم التبشير المسيحي في بناء الحضارة المسيحية الغربية ؟

وما أوجه الاختلاف بينه وبين الدعوة في الإسلام أو التبشير في البوذية مثلا ؟

لقد بدأ هذا التبشير بالمسيحية سريا، وكان على رأس المبشّرين بها في العالم الروماني- بصفته أول الأقطار الخارجية التي امتدّت إليها المسيحية– خلال القرن الأول للميلاد، تلاميذ المسيح عليه السلام، كالقدّيس "بطرس" Le prince des Apôtres الذي يعتبر المختار الأول من طرف السيّد المسيح للقيام بهذه المهمّة[2]. وكان ذلك يوم عيد العنصرة Pentecôte للسنة الثلاثين، حيث وجّه للناس أول دعوة للإيمان[3].

وإلى جانب "بطرس" هنالك أيضا القدّيس "بولس" L'Apôtre des gentils، الذي يعدّ أيضا أحد الذين نالوا الإلهام الروحي[4] وبالتالي كان واجبا الإقتداء به وإتّباعه.

وقد عمل جميع الحواريين على إثبات وفاءهم للسيّد المسيح بضرورة تحمل المسؤولية التي كلّفوا بها، والتي تتمثّل في نشر تعاليم الإنجيل في كل الأمم، ويكون هذا العمل باسم الأب والابن والروح القدس[5]، كانت هذه إذا مهمّتهم المقدّسة.

1- ناصر بن عبد الله القفازي وناصر بن عبد الكريم العقل؛ المرجع السابق، ص، 77.

2- DANIELOU (Jean) et MARROU (Henri), Nouvelle Histoire de l'Eglise, Des Origines à Saint Grégoire le Grand, Paris, Seuil, 1963, p.33.

3- ميرسيا الياد؛ تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، الجزء الثاني، ترجمة: عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا، ط1، 1987، ص، 374.

4- CAHIERS EVANGILE, A la Naissance de la Parole Chrétienne, Tradition et Ecritures au Deuxième Siècle, Numéro 77, Document autour de la Bible, Paris, Cerf, septembre 1991, p.18.

5- LOEW (Jaques) et MESLIN (Michel), Histoire de l'Eglise par Elle-même, France, Fayard, 1978, p.13.

ولقد كان انتشار المسيحية وحلولها محل العديد من الديانات الأخرى، أنها قامت بتخفيف آلام الحرمان الذي كان الناس يعانون منه وخاصة ذلك المتعلّق بالميراث ومتاع الدنيا، ذلك أنها دعت إلى الميراث الأخروي في جنة الخلود. وكذلك تقديمها يد العون للشعوب المغلوبة على أمرها، مثال ذلك الرعاية الإنسانية بكافة أشكالها مما عزّز فكرة حب الانتماء، وذلك لأنّ الناس قد اقتنعوا بأنّ الانتماء إلى مجتمع مسيحي هو الطريق الوحيد لاكتساب احترام الذات، فضلا عن إعطاء حياة الإنسان مذاقا ذا معنى.

هكذا حقّقت المسيحية انتشارها الواسع في روما وأنطاكية(*) والإسكندرية، وصحب هذا الانتشار شعور بالانتماء إلى مجتمع موحّد أساسه المحبة و التعاون وترسيخ القيم الإنسانية [1].

وتجدر الإشارة إلى أنّه لم تكن لتدخل السنة الأربعون من التقويم الميلادي حتى تسرّبت المسيحية عبر التبشير إلى جميع أرجاء اليهودية والجليل وسوريا بسرعة كبيرة، وقد امتدّت بشارة الإنجيل إلى مدن أخرى كثيرة كفينيقية وقبرص... ومنها إلى العالم [2]. وإن دلّ هذا على شيء، فإنّه يدل على نجاح أولى محاولات التبشير ناجحا تاما كفل لها الدوام والتواصل فيما بعد. فقد شعر كل من اعتنق هذه الديانة أنّ من واجبه أن يخرج وينشر البشارة للناس، وبهذا اعتبر كل مؤمن مسيحي نفسه مبشّرا، وبهذه الطريقة تزايدت أعداد المؤمنين المسيحيين ونما عدد أتباعهم يوما بعد آخر [3].

و لم يكن تقبّل الأفكار المسيحية وقفا على فئة معينة من الناس، بل عمل المبشّرون missionnaires على امتدادها لتشمل كل الأجناس والبلدان والحضارات.

وبالفعل تغلغلت المسيحية في المدن الرئيسية كما في القرى والأرياف. ومن روما انتقلت إلى إفريقيا الشمالية وأوروبا الغربية. وفي سنة ثمانمائة ميلادية، تقبّلت الشعوب الجرمانية تعاليم الإنجيل، ومن ثمّ باقي شعوب أوروبا الشرقية، وروسيا، وأوروبا الشمالية في القرن الثالث عشر، فالعالم [4].

وقد كان لهذه المحاولات الدور الأبرز في تغير أوجه الحضارة الإنسانية، وذلك بدخول شعوب كثيرة و أمم مختلفة في هذا الدين.

وكانت هذه الدعوات قد استمرت في شكل رحلات قام بها العديد من رجال الدين، كما هو الحال بالنسبة لأعمال "يوحنّا الآسيوي" Jean II (**حوالي 470- حوالي 535**) في آسيا [5]، ورحلة القدّيس "باتريك"

(*) أنطاكية **Antioche**: امتدت بشارة الإنجيل إلى مدن فينيقية وقبرص، و بلغت مدينة أنطاكية عاصمة سورية، فأصبحت هذه المدينة الواسعة مقرا هاما للديانة المسيحية، ففيها حمل المؤمنون لقب المسيحيين، وفيها ابتدءوا يبشرون الوثنيين أيضا بالمسيح، ولما كانت القدس مركز بالنسبة للعالم اليهودي، كذلك أصبحت أنطاكية نقطة الانطلاق بالنسبة إلى العالم الوثني. أنظر نهى نجار، المرجع السابق، ص، **146**.

1- ماهر عبد القادر محمّد وحربي عباس عطيتو؛ دراسات في فلسفة العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 2005، ص، 260.

2- نهى نجار؛ موسوعة الأديان السماوية و الوضعية: الديانة المسيحية، ص، 146.

3- سليمان مظهر؛ قصّة الديانات، ص، 427.

4- لبيب عبد الستار؛ الحضارات، ص، 204.

5- يوحنّا الآسيوي؛ تاريخ الكنيسة، الكتاب الثالث، الأجزاء الثالث والخامس و السادس، ترجمة: صلاح عبد العزيز محجوب إدريس، المجلس الأعلى للثقافة، دط، 2000، ص، 21.

Saint Patrick (**389-461**) قبلها في القرن الخامس الميلادي، أي بعد سقوط روما إلى البلاد الإسكندنافية[1]، حيث صاحب دخول هؤلاء للمسيحية كما يقول توينبي، تبديلات ثقافية واجتماعية، هي من دون شك مظاهر لعبت دورا هاما، ليس فقط في بناء الحضارة الغربية وإنما أيضا في توسيع نفوذها «**مثل قبول الاسكندفانيين الذين سكنوا في إنجلترا وفي فرنسا... إتّباع أسلوب قوانين "بندكت" في الرهبنة. وتمثّل المستوطنين الإسكندنافيين كان معناه أنّ طريقة الحياة التي تزوّدها المسيحية الغربية لأتباعها أصبحت جذابة للبرابرة(*)**».[2] ومعنى هذا أنّ المسيحية قد أضفت صبغة جديدة على حياة شعوب تلك الحضارات.

وبالطبع قد هوجم هذا التبشير في البداية من طرف الرومان ثم اليهود، ما دعا القدّيس بولس إلى إيجاد طريقة جديدة في نشر المسيحية، وتمثّلت هذه الطريقة في تعليم الدين– تماما كما العلوم الأخرى– في أماكن خاصة[3]، حتى بسطت الكنيسة سيطرتها النهائية وامتدّت لتكسب حضارات العالم، وكم كان لهذه الطريقة الفائدة الكبيرة في انتشار المسيحية.

غير أنّ كل محاولات الوقوف في وجه هذه البعثات التبشيرية، يؤكّد توينبي، باءت بالفشل، «**وذلك لأنّ منزلة المدنية المسيحية الغربية، كانت إلى ذلك الحين قد ارتفعت في أعين جيرانها الوثنيين**»[4]. وهذا أيضا مما يدعّم أكثر الحضارة المسيحية، والدليل على ذلك صمودها القوي في وجه كل محاولات توقيف التبشير.

إذ لم تنجح الأزمات السياسية في الشرق والغرب من الحد من مواصلة إعلان البشارة، سواء أكان ذلك بصفة تلقائية من طرف القدّيسين أو بصفة منظّمة من طرف الأمراء والكرسي البابوي.

ففي النصف الأوّل من القرن الثامن، كان الراهب الإنجليزي "بونيفاس" Boniface (**680-754**) أكبر مبشّر في الغرب، إذ نظّم كنيسة الإفرنج وأنشأ عدة أبرشيات وأديرة. وفي نهاية القرن الثامن دعا شارلمان Charlemagne (**742-814**) السكسون Saxons الذين كان قد أخضعهم قبل وقت قصير، إلى قبول التعميد. وفي القرن التاسع، تقدّم إعلان البشارة نحو هامبورغ Hambourg وبريمن Brème فباقي البلدان الإسكندنافية [5]. وينوّه توينبي، إلى أنّ هناك انشقاقات قد دبّت في الجسد المسيحي الكنسي منذ البداية، غير أنّ آثارها لم تظهر إلا فيما بعد، مثال ذلك تصادم الكنيسة الرومانية بنظيرتها الأيرلندية وذلك بعد دخول المسيحية إليها [6]، وهذا ما لا يخدم الحضارة.

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 53.

(*) الذين لم يكونوا قد قبلوا دينا سماويا إلى يومها.

2- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 149.

3– DOLEY (Tim) et autres, Guide Illustré de l'Histoire du Christianisme, Traduit de l'anglais par: Editions du Centurion, Paris, 1982, pp. 85-86.

4- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 150.

5- جميل سبك؛ المسيحية، ص، 106.

6- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 54.

ومعنى رأي توينبي، أنّه مثلما أعطى التبشير صورة جيّدة عن الحضارة المسيحية القائمة، بإمكانه أيضا أن يكون عاملا هدّاما لها.

ويضيف دليلا آخر عن المرسلين المسيحيين الغربيين من الجزويت Jésuites الذين عملوا بلا هوادة لتجديد وإنعاش الكنيسة [1] طوال الوقت، ومهمّتهم التبشيرية في الصين والهند.

إنّ هذه المهمّة قد كتب لها الفشل الذريع بسبب المنافسات والانقسامات الأليمة التي قامت بين هؤلاء الجزويت وبين بعثات الطوائف الأخرى من الروم الكاثوليك. يقول توينبي: **«لقد خابت هذه التجربة... بسبب خطأ الانشقاقات العائلية في أحضان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يومئذ»**[2].

وهذا يعني أنّ الانقسامات داخل الكنيسة ذاتها هي أهم الأسباب التي حدّت من نجاح التبشير المسيحي في هذا الجزء من الأرض، ولو أنّه اجتاز بعد ذلك قارات أخرى، وقد أضرّت هذه الانقسامات بالحضارة المسيحية الغربية أكثر مما أفادتها.

ويظهر ذلك جليا في اصطدام هذه العمليات التبشيرية المسيحية بالفتوحات الإسلامية وبديانات أخرى، إذ لم يكن لها من القوة ما يمّكنها من قهر ديانات أخرى ومنعها من الانتشار.

فالفتوحات الإسلامية مثلا على عكس التبشير المسيحي، حتى وإن صاحبها عدم تفاهم إلا أنّ ذلك لم يحدّ من انتشار الإسلام، فحدوده كانت تتّسع في الوقت الذي كانت فيه الدولة الإسلامية تعاني مشاكل داخلية كثيرة.

يرى توينبي، أنّ الإسلام قد استمر في الانتشار رغم غياب الحكومة التي يحتاج إليها لتسنده [3]. ومن هنا نستطيع القول بأنّ التبشير المسيحي على عكس الدعوة الإسلامية، لم يستطع أن ينجح إلا بعدما دفعته قوة الحضور الغربي على الصعيد الدولي.

وإنما أراد توينبي من إيراد هذا المثال، التدليل على قوة الإسلام كدين، وأنّ تلك القوة قد فاقت بكثير قوة التبشير المسيحي. ويضيف مؤكّدا لرأيه هذا: **«إنّ الباعث السياسي لهذا الاعتناق الجماعي للإسلام ظاهر للعيان.... فقد أدرك الجميع أنّ الإسلام كان أكبر قوة وقدرة على الحياة والاستمرار من الدولة الإسلامية، و هذا ما حمل رعايا الدولة من غير المسلمين على اعتناق دين حكامهم السابقين»** [4].

ومعنى هذا أنّ قوة الإسلام في ذاته، خلاف المسيحية التي تستمد قوتها من القوة العسكرية التي هي قوة خارجة عن الدين.

إذا فهناك فرق واضح بين التبشير المسيحي والدعوة في الإسلام، و يكمن في درجة قوة الدين وتأثيره على معتنقيه مما يضمن له الدوام.

1– CHRISTOPHE (Paul), L'Eglise dans l'Histoire des Hommes, du Quinzième Siècle à Nos Jours, France, Droguet- Ardant, 1983, p. 99.

2- آرنولد توينبي؛ العالم والغرب، ص ص، 60-61.

3- تاريخ البشرية؛ الجزء الثاني، ص، 141.

4- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

فقد اعتمدت المسيحية على الظروف المساعدة التي هيئتها لها الحضارة الغربية، على خلاف الإسلام الذي اعتمد على قوة النص القرآني، تلك القوة الكاهنة فيه، فالباعث على الدخول في الإسلام «**أصبح الآن شيئا أكثر من مجرد الحصول على مساواة مالية أو سياسية، لقد أصبح اهتماما صميميا مرتبطا بالبناء**»[1].

وقد انتصر الإسلام على المسيحية مثلا في فتح الهند، إذ كان السباق إلى ذلك: «**فقد اعتنق بوذيون هنديون الإسلام، لكن لم يكن ثمة مسلمون ممن اعتنق البوذية أو الهندوية**» [2].

وهذا دليل آخر يورده توينبي من تمكّن الدعوة في الإسلام من الفوز بقلوب الهندوس. فقد وجد الفاتحون المسلمون أنّه من المناسب معاملة الهندوس الذين عارضوا الإسلام على أنهم أهل كتاب مع أن هؤلاء كانوا بالطبيعة مشركين. إنما دفعتهم إلى ذلك سماحة الدين من جهة، ورغبة الفاتحين المسلمين القوية في أن تذوق الشعوب الوثنية حلاوة الإيمان بإله محمّد صلى الله عليه وسلم.

وهذا ما أدّى يقول توينبي: «**إلى فتح حوض جمنا– الكنج والبنغال في مدة أقصاها عشر سنوات 1992-1202م**»[3]. فقد حدّ ظهور الإسلام من انتشار المسيحية في أقطار عديدة وفشلت فيما بعد الحروب الصليبية في استرجاع الأراضي المقدّسة، غير أنّ المد الاستعماري الأوروبي قد رافقه قيام البعثات التبشيرية على نشر المسيحية في أرجاء العالمين القديم والجديد[4].

وهذا ما قوّى من مكانة الحضارة الغربية المسيحية وجعلها الأقوى حضورا في العالم اليوم.

وإنّه كما ملأت المسيحية الفراغ الروحي في العالم الوثني اليوناني الروماني، فعلت ذلك بالمثل ديانة أخرى لا تقل أهمية عن الإسلام، إنها بوذية الماهايانا في الصين.

يذكر توينبي، أنّ المبشرين البوذيين كانوا في غاية الحماسة، وكان الشعب الصيني الذي ستعرض عليه هذه العقيدة الجديدة على استعداد كامل لذلك بسبب جوعه الروحي الذي سبّبه خسران الكـــونفوشية مكانتها [5]، والتي كانت تدعو لرعاية حقوق الجماهير الشعبية، ودعم مصالح أفراد المجتمع في مواجهة التسلّط والقهر... سواء كان مصدره الحكام أو أفراد ذووا سلطة في المجتمع. ولقد اتضحت معالم الدعوة الكونفوشية خاصة بتوسيع قاعدة الملكية. ذلك أنّ تركيز الثروة في نطاق ضيق، كان قد أثار سخطا كبيرا في أوساط العامة، بالإضافة إلى ما سيتبع ذلك من خلل في العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد وأثر ذلك على المجتمع ككل[6].

1- المصدر السابق؛ الصفحة نفسها.

2- المصدر نفسه؛ ص، 123.

3- المصدر نفسه؛ ص، 124.

4- لبيب عبد الستار؛ الحضارات، ص، 204.

5-آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 70.

6- صلاح مصطفى الفوال؛ سوسيولوجيا الحضارات القديمة، ص، 192.

والسبب في خسارتها حسب توينبي، هو أنّ الموظفين الكونفوشيين قد أساءوا استعمال سلطاتهم فيما يخص مشاكل اجتماعية كثيرة، كانت أهمها: مشكلة الأراضي وتوزيعها على الفلاحين الصينيين، وقد قامت محاولات عديدة للحد من نشاط البوذية إلا أنّ الديانة قد اجتازت كل تلك العقبات وتمكّنت فعليا من الانتشار[1].

فقد عزّزت مكانتها في الشرق الأقصى وحدّت من عمليات التبشير المسيحي، وبالتالي أحبطت كل محاولاته التي تهدف إلى بسط السيطرة الكاملة للحضارة المسيحية الغربية على هذه الأقطار.

ونخلص مع توينبي إلى أنّ الهدف من انتشار الدين قد يختلف من أسباب اجتماعية واقتصادية كما هو الحال بالنسبة للبوذية، لأهداف سياسية كما هو الأمر بالنسبة للمسيحية أو لأسباب ذاتية كما هو الحال بالنسبة للإسلام. لقد قام هذا العمل على سواعد الرهبان من المسيحيين المخلصين والحريصين على نشر بشارة الإنجيل، فقد زاد في سلطة الكنيسة المسيحية بربطه لأجزاء شاسعة من العالم الوثني خاصة برباط واحد هو الحضارة المسيحية الغربية.

وإن أبدى هذا التبشير في البداية ضعفا اتجاه الفتوحات الإسلامية أو اصطدامه بعالم الشرق الأقصى، إلا أنّه سارع في كسب أكبر جزء ممكن من الأراضي وساهم في اشتداد عضد الحضارة المسيحية في مجتمعات عديدة.

وقد أراد توينبي من هذا العرض، أن يبيّن لنا كيف أظهر ممثّلوا الكنيسة الكاثوليكية روحا عالية في أحلك الساعات... في المساهمة الفعالة في مد جذور الدين المسيحي[2]. ذلك أنهم اعتبروها تكلفة مماثلة لتكلفة السيّد المسيح للحواريين[3]. الذي دخل **الهيكل** معلنا أنّه بيت لإله جميع الأمم لا لإله اليهود فقط[4].

ويشغل التبشير المسيحي في الوقت الحاضر نشاطا واسعا يمتاز بتنظيم وتخطيط محكمين، زد على ذلك الدعم الكبير المادي والمعنوي الذي توّفره حكومات عديدة من العالم الغربي.

وكما ينشط هذا العمل التبشيري في العالم، فإنّه ينشط كذلك في البلاد الإسلامية التي يعم فيها الجهل والفقر كإفريقيا وإندونيسيا وشرق آسيا، متخذا في ذلك كافة الأساليب من فتح لمدارس مسيحية بغية تنصير أبناء المسلمين وصرفهم عن دينهم، وكذلك في دور الشفاء للتقرّب إلى المرضى مرغّبين في المسيحية. وأيضا من هذه الأعمال فتح الملاجئ وديار الرحمة، وتوزيع المؤن باسم السيّد المسيح. وطبعا يصاحب هذا تشويه سمعة الإسلام و المسلمين وأنّ دينهم دين الجهل والفقر والمرض[5].

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 71.

2- المصدر نفسه؛ ص، 53.

3- http : edoc.bib. ucl. ac. Be : 81 / ETD-db/ collection/ available/ Belnuct d- 0529. 16/07/2007.

4- فراس السواح؛ الوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهود واليهودية واله العهد القديم ومقدّمة في المسيحية الغنوصية، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سوريا، دمشق، ط1، 2004، ص، 127.

5- ناصر عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل؛ الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص، 78.

1-2- دور الكنيسة في ارتقاء الحضارة الغربيـــة:

عندما سقطت الإمبراطورية الرومانية في غرب أوروبا في أوائل القرن الخامس الميلادي، وجدت الكنيسة نفسها أمام وضع لا مفر منه، وهو أنّها أصبحت المسؤول الوحيد عن رعاية ركاب الحضارة الغربية.

ولعلّ العامل الرئيسي الذي ساعد هذه المؤسسة الدينية «**على القيام بمهمّتها الحضارية طوال العصور الوسطى، أنّ المدينة – وهي وحدة التنظيم الإداري في العالم الروماني-كانت أيضا الوحدة الأساسية في التنظيم الكنسي**»[1]. ذلك أنّها اتّبعت «**في تنظيمها الأسقفي قواعد التنظيم الإداري الروماني**»[2]. الرائدة في ذلك الوقت. وإنما بحكّامها وموظّفيها تحمّلت كامل مسؤوليتها[3].

وبهذا تكون الكنيسة المسيحية قد ورثت تراث الحضارة الرومانية وأصبحت المفوّض الأول عن حضارة الغرب، بفضل تمكّن البابوية التي اكتسبت- مع مرور الوقت- طابعا عالميا واضحا، خاصة منذ عهد البابا "جريجوري العظيم"(**590- 604**) Saint Grégoire le Grand على السيطرة على أقاليم بعيدة، واضعة بذلك تحت هيمنتها شعوبا وقبائل كثيرة، فتعاظمت بالتالي إسهاماتها في كل المجالات من ثقافية وسياسية واقتصادية. وحتى قبل سنة 1914م كان التقدّم في هذه المجالات يتركز في أيدي الغرب المسيحي بما أنّه كان المسيطر على العالم كلّه[4]. ففيما تجلت هذه الإسهامات ؟

أ- الدور الثقـــافي و التربـــوي:

يقول توينبي: «**إنّ نجاح الثقافة أو إخفاقها عميق الارتباط بديانة الشعب**»[5].

كانت هذه هي القاعدة الأولى التي انطلق منها المؤمنون المسيحيون لتحسين الجو الاجتماعي والثقافي على الخصوص للمجتمع الذي طاله الفساد، وإن كانت هذه الأعمال قد بدأت بإقامة الأديرة والانعزال في الحياة الرهبانية، إلا أنّها اتخذت كذلك وجها آخر، تمثّل في البقاء في المجتمع ذاته والعمل باستمرار على نشر الفضائل.

واعتمد المسيحيون في ذلك على وصية القدّيس بولس والتي تتحدث عن ضرورة إنزال المسيحيين المحبّة الإنسانية في قلوبهم، تورد لنا الرسالة الأولى للكورنثيين:«**إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبّة فقد صرت نحاسا يطن أو صنجا يرن، وإن كان لي كلّ الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن**

1- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1972، ص، 14.

2- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- جورج سباين؛ تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر، ط2، 1954.

4- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، 20.

5- التحدّيات الكبرى؛ ص، 370.

ليس لي محبّة فلست شيئا، وإن أطعمت كلّ أموالي وإن سلّمت جسدي حتى أحترق ولكن ليس لي محبّة، فلا أنتفع شيئا»[1].

ولكم تمسّك المؤمنون الأوائل بهذه العظات وعملوا على نشر المسيحية بعدما تشرّبوا الفاضل من أخلاقها، ذلك أنّ القدّيس بولس قد أكّد على أنّ«**المحبّة تتأنى وترفق، المحبّة لا تحسد، المحبّة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبّح ولا تطلب ما لنفسها. ولا تحتّد ولا تظن السوء ولا تفرح بالحق. وتحتمل كل شيء وتصدّق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء. المحبّة لا تسقط أبدا**»[2]. لأنّه و باسم هذا الحب المسيحي اعترض البروتستانتي "سباستيان كاستيليون" Castellion على إعدام ميشال سرفيه Michel Servet الذي أحرق حيا بأمر من "كلفن"، بسبب رفضه لفكرة الثالوث المقدّس وقبوله مبدأ التسامح الديني. وفي القرن الثامن عشر طالب الأسقف غريغوار بحقوق متساوية لليهود والسود[3].

وقد خرجت هذه المحبّة الإنسانية من الكنيسة ذاتها في بداية انتشارها، حيث كان محمودا أن يتجه المؤمنون إلى«**اختيار البتولية والعفّة من أجل الملكوت**»[4]. وكانت هذه أولى الخطوات في النصح بضرورة تميّز المسيحيين عن غيرهم، وذلك بمناداتهم بالأخلاق الطيّبة لا والسمو بها إلى أعلى المراتب— إلى حد الاستغناء عن كل ملذات الحياة- فذلك وجه من أوجه الثقافة المسيحية السمحة الجديدة.

وكان هذا الاختيار الأخلاقي مبنيا بطبيعة الحال على النص الإنجيلي، حيث يورد إنجيل "متّى" قول السيّد المسيح عليه السلام إلى أحد الشباب:«**إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعالى اتبعني**»[5].

ويواصل السيّد المسيح عليه السلام الوعظ ذاته في قوله، بأنّه:«**يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات**»[6]. وبهذا حثّ عليه السلام-حسب الإنجيل- على الزهد والترفّع عن غوايا الدنيا، لما في ذلك من فائدة في استقامة الأخلاق، فكل«**من ترك بيوتا، أو إخوة أو أخوات، أو أبا أو أما، أو امرأة أو أولادا، أو حقولا من أجلي، يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية**»[7]. وهذا يعني أنّ الإنجيل دعا أوّل ما دعا إلى اختيار الطرق الصوفية والعمل على نشر التعاليم هي أولوية الأولويات، وإن كان هذا على خلاف ما نجده في الثقافة المسيحية اليوم- وإن لم يكن هذا بصفة مطلقة-.

1- رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس؛ 13/ 1-2-3 .

2- 13/ 4-5-6-7-8.

3- فيلسيان شالي؛ موجز تاريخ الأديان، ص، 255.

4- جميل مدبك؛ المسيحية، ص، 64.

5- إنجيل "متّى"؛ 19/ 21.

6- 19/ 23.

7- 19/ 29.

حيث يرى توينبي أنّ مستوى الأداء الأخلاقي للإنسان قد انخفض و لم يرتفع بل على العكس من ذلك ارتفع مستوى أدائه التكنولوجي، وذلك بسورة أشد في عصرنا الحالي «**ومن ثم فالتفاوت بين ما لدينا من التكنولوجيا والأخلاقيات هو اليوم أكبر مما كان في أي وقت مضى وليس هذا مذلا فحسب: إنّه خطر قاتل**»[1].

ويؤكّد الكتاب المقدّس على اتّباع المسيحيين الأوائل هذه العظات النبوية، إذ يذكر ذات الإنجيل على لسان "بطرس" الترحيب الكامل بهذا المنحنى في الحياة، في قوله للسيّد المسيح عليه السلام «**ها نحن قد تركنا كل شيء، وتبعناك**»[2]. وبالفعل، ترك الكثير من الزهّاد حياتهم العادية وانصرفوا للحياة الرهبانية. وهذه كانت أول خطوة تخطوها الكنيسة في لعب دور ثقافي هام إذا ما قُورن بالجو الذي ظهر فيه، أي تلك الحقبة من الزمان والتي تمتد من القرن السادس الميلادي وحتّى القرن الثاني عشر، والتي لم تصلها بعد بشائر الحضارة الإسلامية، في هذا الوقت نما الدور الثقافي للكنيسة.

وكما كان الأمر بالنسبة للرجال كان كذلك بالنسبة للنساء، إذ كانت«**العذارى(*) المكرّسات... يشاركن في حياة المؤمنين جميعا... ويطلب إليهن القيام بأعمال الرحمة وزيارة الفقراء والمرضى والتأمّل في الكتاب المقدّس**»[3]، اقتداءا "بمريم العذراء" أم المسيح عليه السلام وهذا من المظاهر التربوية.

وكانت المعاهد التعليمية التي حملت على عاتقها تحقيق هذا الهدف منذ القرون الأولى للمسيحية هي الأديرة، التي كانت بمثابة المؤسسات التعليمية الوحيدة حتى القرن الحادي عشر الميلادي[4]، وبالتالي«**أعظم المراكز الثقافية والحضارية(*)(*) في الشطر الأول من العصور الوسطى**»[5]. فالتعلم يؤكّد توينبي، قوة توحيدية كبرى تؤدي إلى تحقيق المساواة في المستويات ومن ثم ارتقاء المجتمع[6].

وفي هذا السياق يقول "عبد الغني عبود":«**لقد بدأت الكنائس تقوم بدورها في العملية التعليمية بعد ذلك إلى جانب الأديرة ... ثم كانت حركة الحياة كلّها تيسر في ضوء ما ترسمه الكنيسة... وحركة الحياة تلك تعتبر مؤثرا تربويا أكثر من أية مؤسسة تعليمية ... نظامية أو شبه نظامية** »[7].

1- آرنولد توينبي؛ التحدّيات الكبرى، ص، 436.

2- إنجيل"متّى"؛ 19/ 27.

(*) العذارى: هن الأخوات Sœurs اللواتي كرّسن حياتهن لخدمة الكنيسة، وخدمة الإنسانية.

3- جميل مدبك؛ المرجع السابق، ص، 64.

4- عبد الغني عبود؛ المسيح و المسيحية و الإسلام، ص، 113.

(*)(*) حتّى شبّهها البعض بأنّها كانت بمثابة جزر مضيئة، يشع منها بريق المعرفة، وسط بحر واسع من الظلمات، يعمه الجهل و الفوضى.

5- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص، 16.

6- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، 75.

7- عبد الغني عبود؛ المرجع نفسه، ص ص، 113- 114.

وقد أكّد توينبي أنّ استجابة الفرنسيسكان(*) والدومينيكان(*)(*) لتحدّي الكاثاري(*)(*)(*)- على سبيل المثال- تمثّلت في إعطاء نفس جديد للحياة في الغرب وذلك بفضل المؤسسات الرهبانية[1]. إذ استطاعت هذه الهيئات أن تنهض بدور مشهود له في المجهود الجبار المرتبط بنشأة الجامعات في ذلك العصر المظلم[2]. مثال ذلك أن أسندت إليهما – الفرنسيسكان والدومنيكان- مهمة التعليم اللاهوتي في جامعة باريس[3].

وقد ساهم متّبعوا الرهبانية في تثبيت القواعد الثقافية للمجتمع المسيحي مثال ذلك ما قام به القدّيس "هيرونيمس"، إذ يعود إليه «**الميل إلى الثقافة الكتابية، فالكتاب المقدّس الذي يكتشف في المجهود العقلي يصبح غذاء الحياة عند الراهب**»[4]، ولذلك فإنّ "هيرونميس"«**هو جدّ ذلك الراهب الذي سينصرف إلى خدمة الثقافة المسيحية لا بل إلى الثقافة كثقافة، يوم تغرق الحضارة الكلاسيكية بضربات البرابرة**»[5]، وقد غرقت بالفعل. وقد اشتهر الرهبان بطاعتهم لرئيس الدير في القيام بالأعمال الفاضلة، إذ مكّنت هذه الطاعة من ارتقاء درجات التواضع، تلك الفضيلة المأخوذة عن السيّد المسيح بالخصوص والتي كانت أساس هذا التقدّم الروحي، وفي هذا ارتقاء ثقافي نموذجي وضع الحد الفاصل بين حياة ما قبل الإنجيل والحياة ما بعده.

وقد لعب آباء الكنيسة دورا هاما في إطلاق هذه الحياة الثقافية الجديدة من دورهم، إذ أنّ«**مهمة التعليم في القرون الأولى من حياة الكنيسة، كانت منوطة -قانونا- بالأسقف الذي أعطي سريعا لقب أب**(*)(*)(*)(*)»[6]. وكان لهم الدور الحاسم في بعث نهضة ثقافية- أولية- أثمرت بظهور علوم جديدة، إذ«**استخدم الآباء كل الثقافات القديمة، منصّرين إيّاها**»[7]، ولأنّ اللغة اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية في العصور

(*) الفرنسيسكان **Les Franciscains**: جماعة إخوان مسيحيين، أسست عام **1210**م من طرف فرنسيس داسيس **Francis d'Assise** من مبادئها الفقر والتقشف، لكن مع ممارسة الوعظ و الإرشاد في المدن. راجع **Le Petit LAROUSSE Illustré, p. 483.**

(*)(*) الدومينيكان **Les Dominicains**: جماعة إخوان مسيحيين، أسست سنة **1215**م من طرف القدّيس دومينيك **Saint Dominique** واتشرت في كامل أوروبا، من مبادئها الوعظ والإرشاد بين الناس ومكافحة تيار الهرطقة الذي كان قد اشتّد في زمانهم.

راجع **Le Petit LAROUSSE Illustré, p. 376.**

(*)(*)(*) الكاثاري **Les Catharsis**: جماعة مسيحية معناها "الطاهر"، أسست في القرن الحادي عشر الميلادي، دعت إلى العودة إلى المسيحية الأولى ولكن كان لها أعداء كثيرون. راجع **Le Petit LAROUSSE Illustré, p. 213.**

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 184.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 21.

3- إميل برهييه؛ تاريخ الفلسفة: العصر الوسيط والنهضة، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، يناير 1988، ص، 157.

4- جميل مدبك؛ المسيحية، ص، 67.

5- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

(*)(*)(*)(*) في بعض الأحيان جاء اللقب في صيغة "بابا".

6- جميل مدبك؛ المرجع نفسه، ص، 86.

7- المرجع نفسه؛ ص، 87.

الوسطى، فدوّنت بها الكتب الدينية وأقيمت بها الصلوات والطقوس، وهذا ما جعل كتب الأدب الروماني استمرّت مفتوحة يستطيع أن ينهل من علمها كل من حصل على قسط من الثقافة الدينية[1]. وهذا ما يعني أنّ الثقافة الدينية هي التي أدّت إلى تبلور الثقافة بالمعنى العام. وقد امتاز رجال الدين بتقدّمهم الواضح على باقي أفراد الشعب من الناحية الثقافية لانتمائهم إلى الكنيسة.

لكن لم يكن عملهم سهلا، فقد واجهوا صعوبات كثيرة، ففي القرنين الثاني والثالث الميلادي استوجب على الآباء التحرّك لمواجهة خطر تفكّك الرسالة الإنجيلية الذي تمثّل في العقائد الغريبة، فقد نشأت المنازعات حول الثالوث المقدّس وطبيعة السيّد المسيح[2]، ممّا أدى إلى مجهود ثقافي تمثّل«**في بلورة لغة ملائمة لشرح العقائد المسيحية، هكذا كانت الظروف وراء مولد علم اللاهوت أو بالأحرى علوم اللاهوت**»[3]، الذي حملت لواءه فيما بعد إحدى أكبر دور الثقافة الغربية: جامعة باريس«**إحدى مراكز النشاط الجديد، مدعومة بعمل بابوي موازٍ**»[4]. إذ يعتبر هذا العهد أبهى عهود العصر الوسيط[5]، لما شهده من تغيير كبير أعظمه نشأة الجامعات.

فالفضيلة الأولى في دور البابوية تمثّلت في خلق أهداف نبيلة سيكون لها نتائج عظيمة إذا ما تطوّرت. إنّ هذه العبقرية لم تتجلى في القيام بالحروب الصليبية إنما في تشجيع مؤسسات حملت على عاتقها مسؤولية بناء المستقبل، إنها الجامعات[6].

وقد أسهم الناس بقدر كبير في دعم هذه المؤسسات الوحيدة في المجال العلمي، إذ يذكر "ول ديورانت" أنّ أقباط مصر مثلا كانوا يساهمون بأموالهم في تمويل مئات من الكنائس والأديرة 7، وقد كانت هذه المعاهد هي المبادرات الأوّلى للعلم الحر رغم إشراف الكنيسة عليها، ثم كانت فيما بعد التي كوّنت الحركة الفنية والفكرية التي سميت بالإصلاح[8]. وأنتجت هذه النهضة العلمية:« **أفضل ثمارها بإنشاء الجامعات منذ حوالي سنة 1175م وما بعدها... لقد ساهم الإخوان الرهبان حقا مساهمة كبيرة في الحياة الجامعية وأنتجوا لنا أعظم الفلاسفة المدرسيين**»[9]، ومثال ذلك خاصة ما قام به القدّيس "بندكت" الذي اعتنى على وجه خاص بالناحية العلمية، فأقام في كل دير نواة لمكتبة ومكانا لنسخ الكتب...[10].

1- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص، 37.

2- جميل مدبك؛ المرجع السابق، ص، 87.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 180.

5– يوسف كرم؛ تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت، ص، 119.

6- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 195-196.

7- ول ديورانت؛ المرجع السابق، الجزء الأول، المجلّد الرابع ، ص ص، 125- 127.

8- عبد الغني عبود؛ المسيح و المسيحية و الإسلام، ص، 134.

9- ج. ج. كولستون؛ عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص، 183.

10- المرجع نفسه؛ ص، 172.

وتوضّح "نهى نجار" بأنّ السر في الحياة البندكتية هو «**صل واعمل... ومع تقهقر الإمبراطورية الرومانية وحلول عصور الانحطاط والظلمات، أخذت أديرة البندكتيين على عاتقها المحافظة على العلوم والآداب والمعارف الفلسفية واللاهوتية**»[1]، وأشهرها دير مونت كاسينو Mont Cassin ودير بك Bec(*).

وقد أدرك "بندكت" قيمة العلم وبخاصة تعليم الرهبان لما في ذلك من فائدة للدين المسيحي عموما، وليكون هؤلاء المؤمنون الأتقياء القدوة لباقي أفراد الشعب الأميين في الغالب، فقد تخللت أعمال "بندكت" تكريس مجهود واضح لأعمال ثقافية كان ملزما القيام بها، خاصة نسخ كتابات القدماء وكتابات آباء الكنيسة[2]. وكلمة ملزم هنا، تعطينا صورة واضحة لما كانت عليه أهمية القيام بمثل تلك الأعمال في الأديرة البندكتية.

وقد دعّمت هذه الخطوة أكثر، الإصلاحات الكلونية(*)(*) في القرنين العاشر والحادي عشر وهي الإصلاحات التي عملت على تنظيم الحياة الديرية، وذلك بإقامة خلايا اتصال بين مختلف الأديرة«**و إخضاعها لإشراف مركزي دقيق، ممّا جعل الأفكار والكتب تنتقل من دير لآخر في سرعة تثير دهشة الباحث الحديث**»[3].

على أنّ لهذه المجهودات البندكتية دور في رفع مستوى الثقافة، فقد جاءت على هامش الهدف الأساسي من قيام الدير وهو الانقطاع للعبادة الخالصة وخدمة الدين[4]، ولو كانت على قدر بالغ الأهمية.

فقد هدفت هذه الخطوة المثيرة من "بندكت" إلى تشجيع الرهبان الذين يجدون في نفوسهم ميلا للكتابة والتأليف، لهذا اعتبرت الأديرة البندكتية منابعا للعلم في المجتمع الغربي في العصر الوسيط، حينما كان عامة الناس يغطَون في سبات عميق[5]، إذ أنّ«**ما قضاه الرهبان من الساعات في الدرس، أفاد إلى حد كبير في إحياء الثقافة والحضارة** »[6]. وتجلى ذلك خاصة في اعتكافهم على نسخ المؤلّفات القديمة للكتاب اللاتينيين وهكذا حفظوها للأجيال القادمة وأبقوا إلى حد ما على التراث القديم[7].

وتذهب دعوة "لوثر" إلى أنّه ليس محتّما على المرء أن يكيّف نفسه مع هذا العامل الشرير، ولا يبتعد

1- نهى نجار؛ موسوعة الأديان السماوية والوضعية، ص، 135.

(*) فكان الأوّل به مكتبة ضمّت مؤلفات "جريجوري الثوري" و"بولس الشمّاس"، فضلا عن بعض الآثار الفكرية القديمة لشيشرون وفرجيل وهوراس وسنكا... أمّا دير Bec الذي أسس سنة 1034م/ فيدين بشهرته العلمية إلى "لانفرانك" ثم "أنسلم"، حتّى أحرزت مدرسته شهرة واسعة في الدراسات اللاهوتية، والفلسفية، والنحوية، ومكتبته التي ضمّت قرابة ثلاثمائة مجلّد في مختلف فروع المعرفة. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص، 20.

2- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 307.

(*)(*) الإصلاحات الكلونية: نسبة إلى Cluny و هي مدينة في فرنسا، حيث أسس" وليام الأوّل التقي"دوق أوكتين، ديرا سنة 910م، و من هذا الدير بعثت حركة الإصلاح هذه. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، هامش، ص، 16.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 16.

4- المرجع نفسه؛ ص، 17.

5- ج. ج. كولستون؛ عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص، 172.

6- السيّد الباز العريني؛ تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص، 171.

7- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

عنه ليقبع في دير من الأديرة إنما عليه أن يعمل على تغييره[1]. ومع ذلك ساهمت الأديرة في انقاد تراث أوروبا الفكري خاصة من الضياع في وقت لم تكن تتوفر قوة أخرى لتعمل على القيام بمثل هذا العمل النبيل[2].

وحدت الكاتدرائيات حدو الأديرة بفضل ما كانت تمتلكه من مكتبات ومدارس وسجلات وموظّفين...[3]، بل وتعدت الأديرة في استقطابها لطلاب العلم العلمانيين في الوقت الذي أغلقت تلك الأديرة أبوابها في وجوههم، بسبب طابعها الديني المتقشّف وكانت أهم الكاتدرائيات نشاطا في الميدان الثقافي إبان القرن الثاني عشر الميلادي، تلك الواقعة في شمال فرنسا(*). وهكذا، كانت هذه المؤسسات الدينية– سواء كانت أديرة أم كاتدرائيات-هي«**النواة الأساسية للحياة الثقافية في أوروبا العصور الوسطى**»[4].

و نالت كذلك دعم الملوك "كتشارلمان" الذي اهتم بالتعليم وشجّع عليه، ما بين أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع(*)(*)[5].

وشيئا فشيئا زادت سيطرة الكنيسة، فأصبحت تدين كل نشاط عقلي ولا تقبل صوتا غير صوت رجال الدين، ولعلّ السبب الرئيسي الذي زاد غطرستها تلك، هو ظهور الإسلام ودعوة التوحيد المطلق التي جاء بها نبي الإسلام محمّد صلى الله عليه وسلم. فدفعها ذلك إلى شن الحروب الصليبية في محاولة للقضاء على الإسلام في عقر داره وإيقاف غزوه للمجتمع الغربي منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، «**من خلال طلاب العلم الكثيرين الذين فتحت لهم جامعات الأندلس الإسلامية أبوابها فعادوا إلى بلادهم**

1- عبد الغني عبود؛ المسيح و المسيحية و الإسلام، ص، 143.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص، 16.

3- المرجع نفسه؛ ص، 22.

(*) إذ بزغت "شارتر"و "اورليان"، في حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية، و أهمية "ريمس" و "لاؤون" في الدراسات المدرسية، و أهمية "باريس" التي انبعث منها أوّل شعاع للحركة الجامعية في شمال أوروبا، و ثمّة أهمية أخرى للمدارس الكاتدرائية في شمال فرنسا، و هي أنّ هذه المدارس جذبت إليها طلاب العلم من ألمانيا و إنجلترا و إيطاليا، و ليس أدل على ما أسهمت به الكاتدرائيات و مدارسها من قسط وافر في الحياة الثقافية في القرن الثاني عشر، من أنّ أعظم الكتّاب في ذلك العصر بالذات، كانوا من الأساقفة، مثل "هلدبرت" أسقف "ليمان" (وتور)، و "جلبرت" أسقف "بواتييه"، و "بطرس لمباردو"، و"حنا سالسبوري"، و غيرهم. هذا فضلا عن عدد آخر من موظفي الكاتدرائيات و أمنائها، اشتهروا بنشاطهم الفكري، مثل "أنسلم اللاؤوني"، و "برنارد" سكرتير كاتدرائية "شارتر"، و "بطرس كومستور"، و هكذا ارتبطت الأسماء اللامعة في ميادين الشعر و اللاهوت و التعليم، بالكاتدرائيات الغربية في القرن الثاني عشر. و تحتل كاتدرائية "كانتربوري"، مكانة كبيرة في النشاط الثقافي في انجلترا في ذلك العصر، فقام رئيس أساقفتها "ثيوبالد" (1138- 1161) الذي تلقى تعليمه بمدرسة دير Bec بفرنسا، بجمع عدد كبير من المفكّرين حوله، كما اتخذ "حنا سالسبوري" و "ماستر فكاريوس" مستشارا قانونيا. و هكذا ارتبط بكاتدرائية "كانتربوري" عدد بارز من الشعراء و الأدباء و رجال القانون و غيرهم من المفكّرين، كما اشتهرت هذه الكاتدرائية بمكتبتها الوطنية الضخمة. راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، ص ص، 22- 23.

4- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(*)(*) فقد اعتنى شارلمان، بالمدارس الديرية، و دعّمها و أصلحها و وسّع دائرة نشاطها، حتّى غدت بعض هذه المدارس- مثل "تور" و "فولدا"- مراكزا لنشاط فكري ضخم في الإمبراطورية الكارولنجية، و قد قدّر للكثير من هذه المدارس الديرية، البقاء و الاستمرار في تأدية رسالتها عقب سقوط تلك الإمبراطورية، مثل مدارس "ريمس" و "ليون" و "فوبير" و "كورفي" و "فولدا" و "بافيا" و غيرها. و بهذا دعّم شارلمان حركة إحياء التراث الروماني، عن طريق نسخه في الدير و وضع قواعد نهضة عظيمة. راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، ص، 20.

5- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع نفسه، ص، 20.

رسلا للإسلام وحضارته وجنودا محاربين ضد الكنيسة ونظامها»[1]. ممّا أضعف سلطان البابا، يقول توينبي :**«لقد كان المجتمع المسلم متقدّما إلى حد كبير عن الغرب القروسطي(*) خاصة من ناحية الدراسات العلمية والتاريخية»**[2].

فقذفت الكنيسة من أجل كسب هذه المعركة«**بإنجيلها وبالإله الذي تؤمن به... فزعمت أنّ نظرية نيوتن Newton(1642- 1727) إلغاء لعناية الله وإحلال قوة الجاذبية محلّها»**[3]. وبالمثل مع كل الاكتشافات العلمية الأخرى، خاصة اكتشافات "كوبرنيكوس"Copernic(**1473-1543**) وجاليليو Galilée (**1564-1642**) معتمدة في ذلك على ما ورد في إنجيل "لوقا"، من ضرورة إعلان الحرب على كل خصوم الكنيسة وإبادتهم، يقول الإنجيل:**« أمّا أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدّامي»**[4].

وبموجب هذا، قضي على الكثير من رجال العلم والمعرفة عن طريق محاكم التفتيش[5]، وإنّه حتّى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ما تزال الكنيسة الكاثوليكية تعارض حق الإنسان في التفكير الحر، خاصة في القضايا الدينية مدينة بذلك طاعون العلمانية[6]. ولكنّ النهضة العلمية الحديثة– الثقافية خاصة-كانت أقوى بحقائقها العلمية، فهزمت الكنيسة «**وألقى رجال اللاهوت المسيحي سلاحهم عندما جرّدهم العلم من سلطانهم الزمنية وبدّدت أضواءه ما في الكتب المقدّسة من أوهام وأباطيل»**[7].

ورغم هذا، لا يمكن إغفال الدور الإيجابي للكنيسة ممثّلة في تلك المؤسسات الدينية، من أديرة خاصة، في التمهيد لقيام أولى الجامعات في العالم الغربي، وإن كانت قد تدعّمت فيما بعد بعلوم المسلمين الرائدة وبعث الروح العلمية والسمو بذلك بالثقافة المسيحية.

ويشير توينبي إلى أنّ الكثير من البلاد في العالم قد حصلت على استقلالها السياسي ولكنها لا تزال لم تتحرر تماما من الناحية الثقافية، إذ لا تزال تحت تأثير كبير للأفكار والمثل العليا الغربية التي تنهل منها في بعض الحالات دون تمييز. إنها لم تستخدم الحرية التي اكتسبتها بعد عهود من التضحيات في مجابهة المدنية الغربية[8].

1- عبد الغني عبود؛ المرجع السابق، ص، **133**.

(*) متعلّق بالقرون الوسطى.

2- **TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 472.**

3- أحمد عبد الغفار عطار؛ الديانات والعقائد في مختلف العصور، ص ص، **536- 537**.

4- إنجيل "لوقا"، **19/ 37**.

5- حسن علي مصطفى؛ نشأة الدين بين التصوّر الإنساني والتصوّر الإسلامي: دراسة في علم الاجتماع الديني، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط**1**، **1991**، ص، **18**.

6- فيلسيان شالي؛ موجز تاريخ الأديان، ص، **253**.

7- أحمد عبد الغفار عطار؛ المرجع نفسه، ص، **538**.

8- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص ص، **35- 36**.

وذلك راجع حسب توينبي إلى حفاظ الغرب على حب الاستطلاع وهو طريق كل نهضة علمية و السبيل للتقدّم ثقافيا، غير أنّ العالم الإسلامي مثلا وهو صاحب حضارة راقية من كل النواحي، لم يحافظ على حب الاستطلاع هذا. إذ منذ القرن التاسع وحتى الثالث عشر الميلادي كان هذا العالم حافلا بالانجازات العلمية وأخصب إنتاجا من الغرب بحكم الصدارة التي كان يحتلها في ميادين علمية عديدة، كالفلسفة والطب والرياضيات... غير أنّ حب الاستطلاع قد توقف في العالم الإسلامي، لكن «**يمكن القول على وجه العموم أنّ الغرب قد ظلّ طوال القرون القليلة الماضية محتفظا بحب استطلاعه، على حين أنّ بقية العالم وضمنه العالم الإسلامي كان خاملا بمعنى عام**»[1].

ويرجع السبب الأكبر في احتلال الغرب هذه المكانة العالية اليوم تكنولوجيا على وجه التحديد هو صفة حب الاستطلاع العلمي المترّه عن الغرض، الذي يعتبر أصل التكنولوجيا الغربية وأصل التكنولوجيا بصفة عامة. إذ من الطبيعي أن تصبح هذه التكنولوجيا الغربية متداولة في العالم بأسره، يقول: «**فهي كفيلة بأن تقدّم إلى هذه الأغلبية فوائدا جمّة إذا استخدمتها الأغلبية من أجل رفع مستوى المعيشة فيها**»[2].

وأما النصيحة التي يقدّمها توينبي لغير الشعوب الغربية عبر العالم من أجل أن تلتحق بالركب في هذه المجال هو أنّه عليها أن لا تتردد في اقتباس التكنولوجيا الغربية، الاقتباس الكامل، ما دامت تستخدمها لإفادة مجتمعها وحضارتها عموما. لكن عليها أن تستعمل هذه الكشوف العلمية في أغراض بناءة وتتفادى توجيهها لأغراض هدّامة[3].

وخلاصة القول أنّ المسيحيين استفادوا من علوم المسلمين وطوّروها، تماما كما استفاد المسلمون قبلهم من علوم اليونان، لكن قوة الحضارة الغربية تكمن في أنّ الغرب بعدما نهل من منبع المسلمين، مثلما نهل المسلمون قبلهم من منبع اليونان، استمر في الإبداع والاختراع والتدرّج في درجات العلم و لم ينحو إلى الخمول والانحطاط إلى يوم النزول على القمر.

في حين أنّ غيره من الشعوب- وإن شهدت حضاراتها تطوّرا علميا غير مسبوق في زمن من الأزمان، إلا أنّ ذلك لم يستمر وعادت تلك الشعوب إلى الخمول تاركة العالم الغربي اليوم يتحكّم في التكنولوجيا، ويسيّرها لخدمة أغراضه كيفما شاء بل ويملك من قوة النفوذ ما من شأنه أن يمنع دولا أخرى من استعمال الطاقة النووية مثلا- كما تفعل الولايات المتحدة اليوم مع إيران في محاولة لتوقيف نشاطها في تخصيب اليورانيوم- وهنا تكمن قوة الحضارة الغربية من الناحية الثقافية العلمية.

أي أنّ دور الأديرة والكاتدرائيات القديم وإن كان صغيرا بالمقارنة مع دوره عند نظرائهم من زوايا

1- المصدر السابق؛ ص، **39**.

2- المصدر نفسه؛ ص، **40**.

3- المصدر نفسه؛ ص ص، **40- 41**.

علمية ومساجد في أوّج الحضارة العربية الإسلامية، إلا أنّه- الدور- تمكّن من زرع بذرة المعرفة في العقل المسيحي. ويرجع للكنيسة أوّل الفضل «**في نشر الأمن والسلام والتحكّم في كثير من مظاهر الفوضى التي غدت تتخبط فيها أوروبا عشية سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس، من ذلك أنّ الكنيسة حاربت مبدأ الأخذ بالثأر وعملت على إنشاء المستشفيات والملاجئ، كما عملت على رفع شأن المرأة واحترامها والمحافظة على حقوقها الحيوية، كل ذلك بالإضافة إلى نشر الحضارة والتعليم بين المجتمعات المتخلفة في غرب أوروبا وذلك عن طريق المؤسسات الدينية العديدة كالأديرة والكاتدرائيات**»[1]، منارات العلم والثقافة الوحيدة في ذلك العصر.

لقد كان هناك اتجاهين في الكنيسة: الاتجاه الأول، هو اتجاه الرهبان والمؤسسات الدينية، أمثال "بندكت" ومن والاه ممّن عملوا على نشر المعرفة وتوعية المسيحيين.

والاتجاه الثاني هو الذي احتل الكرسي الرسولي siège apostolique من أجل المصلحة الخاصة وهؤلاء هم من وقف في وجه العلم.

ولكن عمل الكنيسة الأولى وإن غطّته غطرسة الباباوات، إلا أنّ تلك الغطرسة جاءت- ولو دامت قرونا- متأخّرة، لأنّ الكنيسة الحقيقية كانت قد هيّئت العقول لتقبل العلوم والنهضة الثقافية. بدليل أنّه ما إن سطع نور الأندلس حتّى أخذت به بل وفاقته، فكان لها الفضل بذلك في تمهيد الأرضية التي بني عليها فيما بعد صرح الحضارة الغربية العلمي الثقافي الحالي.

1- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 14.

ب- الدور السيـــاسي:

في الواقع إنّ الفصل الحالي بين السلطتين الدينية والسياسية، لم يكن له وجود في أوروبا العصور الوسطى، ذلك أنّ المجتمع في ذلك العصر كان ينظر إلى الهيئتين على أنّهما شيء واحد، فالناس– بعد اعتناق المسيحية– لم يؤمنوا بوجود مجتمع سياسي وحيد هو **المجتمع المسيحي.**

إذا إنّ الخلفية الأساسية التي تبلورت من خلالها هذه الوحدة السياسية هي الوحدة الدينية، متمثّلة في وحدة الكنيسة أو ما عرف في ذلك الوقت **بالكنيسة العالمية** Eglise Universelle، وينضوي تحت هذا المفهوم اتحاد مصدر كل السلطات. فقد كانت السلطة الكنسية بمثابة الرباط الديني الموّحد للشعب والذي من خلاله تمارس السلطتان: الدينية والزمنية Pouvoir spirituel et pouvoir temporel.

ونجد خير مصداق لهذا المنحى في دور البابوية في القرون الوسطى لأنّه من خلال النفوذ البابوي pouvoir papal شرعت الكنيسة في فرض هيمنتها، ووجدت في البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها في حكم العالم وتحقيق حلم الكنيسة العالمية المنشود.

وبموجب هذا يخوّل للبابا ترأس الكنسية العالمية وبالتالي ترأس العالم. مستمدا ذلك النفوذ – وكما جرت العادة – من الكتاب المقدّس، في جعله نائب السيّد المسيح الذي يباشر سلطته مباشرة عقب مباركة السيّد المسيح له ومعنى هذا أنّ البابوية اعتمدت في تحقيق هذا النفوذ على ما أيّد به السيّد المسيح حواريه "بطرس"، يذكر إنجيل "متّى" عن قول السيّد المسيح عليه السلام:**«وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات»**[1]. نلحظ في هذا تفويضا واضحا وقويا للرسل لممارسة كل المهام دينية كانت أم دنيوية.

لذلك لا عجب يقول في أن أصبح**«البابا- و هو خليفة القدّيس بطرس- رأس الجهاز السياسي في أوروبا العصور الوسطى، حتّى اعتبره المعاصرون ملك الملوك وأمير الأمراء، ومن هنا أخذت البابوية تنظيم سيادتها على أسس إقطاعية فعالة ممّا جعل التطابق محكما بين الكنيسة والجهاز السياسي في غرب أوروبا»**[2]. يقول توينبي:**«إنّ أفضل مثال يمكن أن تقدّمه عن النجاح الروحي، يتمثّل في فصول التاريخ الطويل للبابوية»**[3]. وبهذا يقر بأنّ هناك نصرا ما للمجهود البابوي ولكنّه لم يبدأ بالتصريح بأنّه نصر سياسي، فهو يعرض أولا الحقبة الزمنية التي امتد خلالها هذا النفوذ التي تمتد من عام 1046م وتنتهي في سنة 1870م، فإنّ السلطة الكنسية المسيحية أو الكرسي الرسولي، كان مجبرا على مرتين أن يرضخ أمام سلطة زمنية، ففي سنة 1046م عزل الإمبراطور هنري الثالث Henri III ثلاث باباوات ونصّب مكانهم مرشّحه

1- إنجيل "متّى"؛ 16/ 19.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص، 336

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 194.

الشخصي وفي سنة 1870م، تمكّنت فرق الملك فكتور إيمانويل Victor Emmanuel من تجريد بابا روما من كل ما يسيطر عليه خارج روما وتحديد نفوذه داخل أسوار الفاتيكان Vatican[1].

ويريد توينبي من إيراد هذين الحدثين التاريخيين، أن يعرض لنا المرتين اللتين تمت فيهما مواجهة البابوية بكل قوة والعمل على تحديد نطاق نفوذها ليقول بأنّه خلال الثمانمائة سنة التي تفصل هذين الحدثين، نلمس الإنجاز الرائع متمثّلا في La Respublica Christiana أو الجمهورية المسيحية للعهد الوسيط، لكن وفي نفس الوقت الفساد الذي نجم عن هذه المؤسسة الدينية العليا[2]، أي أنّه إلى جانب الايجابيات هناك أيضا سلبيات.

وقد أدّى انحطاط الإمبراطورية الرومانية «**في أخريات أيامها والأزمة التي انتابها ودخول البرابرة إليها واستقرارهم فيها، أدّت جميعا إلى زعزعت الوضع السياسي والاجتماعي بكامله، ومنذ ذلك الحين بدأ وضع جديد في حال التحضير والتهيئة**»[3]. أي أنّ الانهيار السياسي الذي تولّد عن انهيار الحضارة الهلينية، استلزم وجود سلطة روحية من شأنها أن تنقض المجتمع وتنقض بالأخص وضعه السياسي، وهذا ما نادت به البابوية لنفسها بصفتها الوريثة الروحية للإمبراطورية الرومانية والوحيدة التي من شأنها حماية التراث الإمبراطوري في خضم تلك الفوضى التي تلت الانهيار، «**واستطاعت الكنيسة بالتدريج أن تكسب الأفراد والحياة الاجتماعية... ويجد العصر الوسيط توازنه في الفترة الواقعة بين 1125م، و يؤلّف دورا عامرا من أدوار التاريخ الكبرى**»[4].

وقد عمل البابا "جريجوري العظيم" على تقوية نفوذ البابوية السياسي وجعل هذا النفوذ حقيقية ملموسة في بلاد الغرب[5]، ويبيّن لنا توينبي مدى قوة هذه المؤسسة الدينية، وأنّ منجزاتها تعدّت منجزات الملوك العظام في هذا الميدان السياسي، وكمثال على ذلك شارلمان الذي لم تتعدى غزواته ما وراء بحر المانش Manche والبلطيق Baltique في حين أنّ البابوية تمكّنت من فرض سيطرة روحية على انجلترا منذ اعتلاء البابا "جريجوري العظيم" كرسي البابوية، مائتان سنة قبل شارلمان، والتي توبعت بفرض السيطرة الروحية على اسكندنافيا Scandinavie وكذلك بولونيا Pologne وهنغاريا Hongrie مائتان سنة بعد شارمان[6]. أي أنّ انجازات البابوية قد فاقت انجازات "شارلمان" من قبل مجيئه إلى الدنيا وأثناء تعميره فيها وبعد قضاءه بقرنين من الزمان.

وقد أصبح نظام الكنيسة أكثر مرونةً لأنّه كان أكثر روحانية، وقد أدّى انهيار السلطة المدنية إلى

1- **Op. cit. p. 194.**
2- **Id.**
3- **نور الدين حاطوم؛ تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص، 07.**
4- **المرجع نفسه؛ ص، 13.**
5- **سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 336.**
6- **TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 194.**

إلقاء كافة المسؤوليات... على عاتق الكنيسة، ولقد اضطلعت بهذه الواجبات وجنت مكافأتها. وإنّ تلك المكافأة تماشت خاصة مع نسبة الأهمية المتزايدة لأسقف روما الذي كان له الفضل في اتساع نفوذها المحكم، وذلك بصورة تكاد تكون نهائية، مثلما اتّسع كذلك نفوذ البيروقراطية المدنية المحكمة التنظيم في شخص الإمبراطور. والدليل على ذلك، أنّه لما أعيد إحياء الإمبراطورية في الغرب سنة 800م كان قد ظهر لها منافس سياسي خطير ألا وهو البابوية، وبناءا على هذه المنافسة ارتكز كل الفكر السياسي اللاحق في العصور الوسطى بصورة شبه نهائية[1].

وقد حدّد القدّيس "أوغسطين" الخطوط الرئيسية لهذا الصدام في مدينة الله، حيث كان الاعتقاد السائد بأنّ الكنيسة والدولة لا تنفصلان تماما كما الروح والجسد، غير أنّهما في حاجة ماسة إلى ضرورة تنظيمهما وتحديد نطاق كل واحدة منهما. ومع أنّ القدّيس "أوغسطين" لم يسلّم بهذا تسليما قطعيا إلا أنّه طالب بضرورة إعطاء ما لقيصر لقيصر، إذ في مدينة الله ما يبيّن لنا بوضوح عن تأييد المطالب البابوية.

وذلك لأنهم الرجال الذين اختارهمّ الله وصنع منهم ما هم عليه اليوم لينيروا طريق الإنسان في معترك الحياة[2].

وبعد أقل من قرن من الزمان – بعد القديس أوغسطين- أي حوالي 495م ألقى البابا "جلاسيوس" تصريحا أكّد فيه على أنّه فيما يتعلّق بالشؤون الدنيوية، يكون للإمبراطور حق إصدار القوانين وعلى رجل الدين الطاعة، أما في يتعلّق بالشؤون المتصلة بالعقيدة الدينية، يكون البابا هو المرجع فيما يصدر عن ذلك من قرارات[3]. وهذا ما فعله البابا "جريجوري العظيم" متقيّدا بمعاهدة البابا "جلاسيوس" في انجلترا ومطبّقا ذلك على الشعوب الانجلوساكسونية التي عمل على تبشيرها بالمسيحية، فقد لاقى التبشير الكاثوليكي نجاحا كبيرا تجلى ذلك خاصة في استطاعة مبعوثه "أوغسطين"«**أن يقيم مقرّه في دير كنيسة المسيح في كانتربوري التي أصبحت عاصمة دينية في انجلترا، وهكذا استطاعت الكنيسة أن تخرج الجزيرة البريطانية من عزلتها وتربطها بالحضارة الغربية وتعمل على نشر الوحدة القومية فيها**»[4]، وفي هذا انجاز سياسي مشهود له.

وأخذت مجالس الأساقفة في كانتربوري «**تصدر القرارات المتعلقة بنظام الإكليروس(*) وحصانة**

1- ج. ج. كولستون؛ عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص ص، 270- 271.

2- SAINT AUGUSTIN, La Cité de Dieu, p. 767.

3- ج. ج. كولستون؛ عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص، 271.

4- نور الدين حاطوم؛ تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص، 397.

(*) الاكليروس: أدّت الحياة الدينية المسيحية إلى وجود نظامين لرجال الدين (الاكليروس) أي الدين اتخذوا الحياة الدينية مسلكا، وهما الاكليروس العصري **le clergé séculier** والاكليروس النظامي **le clergé régulier** .

الأديرة، ونمى القضاء الكنسي وبدأت الأسقفيات والأديرة تغنى بفضل هبات الأمراء»[1]، مما مهّد لدور اقتصادي للكنيسة سيأتي بيانه في العنصر الموالي.

وهكذا نجح البابا "جريجوري العظيم" في ممارسة السلطتين في آن واحد، يؤكّد توينبي على ذلك موضّحا بمثال أنّه بفضل الكرسي الرسولي، تمكّن الهنغاريون والبولونيون كما الإنجليز من الاستفادة من الامتيازات الاجتماعية والثقافية باعتبارهم أعضاءا جددا في المجتمع الغربي، ودفعوا مقابل الانضواء تحت الكنيسة استقلالهم السياسي[2]، فأعطوا بذلك للكنيسة فرصة لمباشرة المهام السياسية، فعمّت بهذا الهيمنة السياسية للكنيسة. يقول توينبي:«**وكان ذلك أيضا شأن دول المدن اللومباردية التي تحالفت مع الكرسي الرسولي**»[3]، وهذا يعني أنّ الكنيسة طرف سياسي له وزنه.

وهكذا أيضا نلحظ كيف أنّ الكنيسة انطلاقا من رسالتها الروحية، استطاعت أن توسّع من رقعة سيطرتها السياسية شيئا فشيئا عبر أرجاء القارة والجزر المحيطة بها، يقول توينبي:«**اعترفت الشعوب بالسيادة الروحية للبابا وبهذا ضمنت استقلالها السياسي الذي أحاطته البابوية بعناية فائقة لكل من ينضوي تحت لوائها**»[4].

لقد أسست La Respublica Christiana على تنسيق مركزي وتفويض كامل من السلطة السياسية وذلك لأسبقية السلطة الروحية على السلطة الزمنية[5]. ومعنى ذلك أنّه في الدولة المسيحية قد مورست السلطتان وكان دائما للسلطة الروحية أسبقية وإجلال أكثر من السلطة السياسية، وذلك لمصدرها الروحي المتعالي (السيّد المسيح عليه السلام).

وقد تجمّعت عدة ظروف وعوامل هيئت للبابوية الظرف الملائم للاستمرار في تنفيذ هذه السياسة، وأهم هذه الظروف تلك التي سادت إيطاليا من جهة وانصراف الإمبراطورية البيزنطية إلى انشغالاتها في الشرق من جهة أخرى، مما جعل عبئ حماية إيطاليا يقع على كاهل البابوية وحدها[6].

وتلا هذا الظرف الأوّل ظرف ثاني، تمثّل في الانشقاق المذهبي والسياسي بين الشرق والغرب في

1- نور الدين حاطوم؛ المرجع السابق، ص ص، 397- 398.

2- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 194.

3- Id.

4- Id.

5- Id.

6- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 336.

الإيقونات(*)، حيث قام جدل كبير في الإمبراطورية البيزنطية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين حول استعمال الإيقونات أو الصور في الكنائس[1]، وكان هؤلاء المعارضون من الإمبراطورية المسيحية الغربية، فكسبت بذلك البابوية تأييد الشعوب الغربية لتقف موقفا سياسيا مضادا بالطبع للإمبراطورية الشرقية، وتعزيز بذلك مكانة العالم الغربي المسيحي دينيا وسياسيا، وهذا التعزيز لا يزال يتمتّع به العالم الغربي لحد الساعة.

ويتمثل الظرف الثالث في إحياء الإمبراطورية الغربية على عهد شارلمان، وهكذا اتضّح مرة أخرى في العصر المظلم الذي تلا تقسيم إمبراطورية شارلمان، أنّ بقاء الحضارة الغربية واستمرارها أصبح متوقفا على الإصلاح الكنسي. وفي هذا مكسب سياسي واضح للبابوية ولكنّ يتوقف هذا الإصلاح بدوره على قيام سلطة كنسية مركزية قوية، تستطيع أن تجابه السلطة الزمنية والأخذ معها من أجل الاعتراف بسمو الكنيسة وسيادتها[2].

وقد بلغت أسمى مرحلة في تاريخها في الربع الثاني من القرن الحادي عشر، يقول توينبي: «**عندما عيّن التو كساني(*)(*) هلدبراند(*)(*) (*) في منصب بابوي ممثلا لروما في الإمبراطورية الشرقية في الربع الثاني من القرن الحادي عشر، وجد الوضع الاجتماعي والعسكري مزريا ومن أجل تحسين هذا الوضع المتردّي، عمل هلدبراند وخلفاؤه على خلق المؤسسة العليا للمسيحية الغربية... بحيث يمكن وصفها بأنّها السلطة المقابلة للسلطة الإمبراطورية الشرقية**»[3]. وبهذا نجح "هلدبراند" في إرساء قواعد بابوية سياسية، انتهزت فرصة تراخي الإمبراطورية لتحل مكانها، مستعملة السلطة الجديدة، السياسية، إلى جانب سلطتها الأصلية، الدينية.

(*) **الإيقونات**: ج إيقونة **icône**، و هي رسم للمسيح أو لشخصيات مذكورة في الكتاب المقدّس أو لقدّيسين مسيحيين، و ليست الإيقونات موضوع عبادة فتكريمها ما هو إلا تكريم الأشخاص الذين تمثّلهم. و أصل القصة أنّ الكنيسة البيزنطية درجت على ترتيب معابدها بالتصاوير و لوحات الفسيفساء، التي تمثّل يسوع و مريم و القدّيسين، و كانت تلك التصاوير موضوع إجلال عظيم. و في زمن الإمبراطور "لاون" الثالث في أواسط القرن الثامن عشر، شعر بعض المسحيين (الغربيين) بأنّه من غير اللائق إكرام الإيقونات، و سمّي هؤلاء المعارضون: محطّمي الإيقونات. وقد اختلف المؤرّخون في معرفة أسباب حملتهم هذه. فمنهم من ارتأى أنّ ملوك الروم، قد شنّوا هذه الحملة تقرّبا من العرب المسلمين و من اليهود أيضا، و منهم من ذكر أنّ هذه الحملة، مظهر من مظاهر بدعة الطبيعة الواحدة فإنّ بعض أنصارها قالوا بأنّ جسد المسيح، ليس ماديا مثل جسنا و بالتالي لا يمكن رسم صورته و أخذ بعض الملوك بهذا القول و أمروا بتحطيم الإيقونات لأنّها خدعة لا تمثّل جسد المسيح. وقال بعض المؤرخين أنّ الملوك رغبوا في كسر شوكة الرهبان و تحطيم قوّتهم و الاستيلاء على أموالهم، فحملوا على الإيقونات لأنّ الرهبان كانوا أشدّ الناس تعلّقا بها و إكراما لها، و يرجّح هذا السبب الأخير لأنّه يتماشى و الأحوال السياسية المضطربة آنذاك في الدولة البيزنطية. وانتهت المعركة الطويلة الدامية سنة **842**م، عندما أعلنت الإمبراطورة "تيودورا" ضرورة إكرام الإيقونات الإكرام اللائق في جميع أرجاء الإمبراطورية البيزنطية، و عقد مجمع ثان في نيقيه عام **787**م و قرّر أنّ إكرام الصور جائزٌ ما دام المؤمن يعي أنّه لا يكرّم الصورة في ذاتها، بل الشخص المرسوم فيها، و إنّ العبادة لا تكون إلا لله عزّ وجلّ. راجع نهى نجار، موسوعة الأديان السماوية والوضعية، ص ص، **159 - 160**.

1- نهى نجار؛ موسوعة الأديان السماوية والوضعية، ص، 159.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص ص، 336 - 337.

(*)(*) التوكساني: نسبة إلى إقليم توسكانيا **La Toscane** بإيطاليا.

(*)(*)(*) هلدبراند: لقب للبابا "جريجوري السابع".

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 194.

وهذا يعني كذلك أنّ البابوية مارست بكل حرية نظرية السلطتين Théorie des deux glaives(*) والتي تعمل على وضع السلطتين بين يدي البابا: الدينية في متناوله والزمنية لتنفيذ أوامره[1]. وذلك لأنّ "البابا جريجوري السابع" هو بالإجماع أعظم باباوات العصور الوسطى، لأنّه وقف من الإمبراطورية موقفا شجاعا، لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية وبأنّها مصدر جميع السلطات السياسية والدينية[2].

ونستنتج بذلك مع توينبي أنّ بابوية "هلدبراند" كانت بمثابة ثورة اجتماعية روحية[3] على الأوضاع السائدة وهذا ما عرّضها لصراع مع السلطة الزمنية، حيث استعمل "جريجوري السابع" سلاحين روحيين قويين مكّناه من وصول مبتغاه بصورة فعّالة، أما الأول«**فهو توقيع عقوبة الحرمان (القطع- الشلح) بطريقة فردية شخصية(*)(*)... وأما السلاح الثاني فهو عقوبة الحرمان الاجتماعي(*)(*)(*)**»[4]. وبالتالي ممارسة نوع من السلطة القضائية يخوّل له من خلالها إصدار أحكام قضائية. إذ يرى "جريجوري السابع" أكثر من أسلافه، أنّ للكرسي الأقدس وحده من السلطة ما يكفي لتقويم المساوئ، و دليله على ذلك:«**أنّ المسيح أسّس الكنيسة الرومانية وجعلها أفضل الكنائس المسيحية، فهي رسول الله تصدّق بكلماته وتعبّر عن إرادته إلى الأساقفة والمؤمنـــين وتتمتع بسلطة مطلـــقة وغير محـــدودة**»[5]، جامعا بذلك هذا البابا السلطتين بقوة الوصية اليسوعية، وهذا نفس ما تعتمد عليه الدول الغربية اليوم في تبرير فرض سيطرتها على العالم، هذه السلطة التي في نظرهم من المفروض لا ناقش يحدوها. وقد أطلق البابا على نفسه تسمية حبر القديس "بطرس" Vicaire de Saint Pierre وعلى أساس هذه التسمية، يصبح هدف البابا الأعلى أن يصبح العالم المسيحي مملكة يتولى هو حكمها وزعامتها[6]. فقد عمل على«**توطيد التفاهم والوئام التقليدي بين الكهنوت والإمبراطورية، وقد كتب إلى رودولف سؤاب عام 1073م: وكما أنّ جسد الإنسان تسيّره العينان، نوره الزمني، فكذلك جسد الكنسية، يسيّره هذان المنصبان: الكهنوتي والعلماني، اللذان يوّفق بينهما الدين الحنيف، ويؤلّفان نوره**

(*) المقصود بها السيفين المادي و الروحي، يمثّل الأول السلطة السياسية أو ما يعرف بالسلطة الزمنية الممثلة في الإمبراطور، و يرمز للقوة المادية التي تحمي الناس و تنظّم علاقاتهم و تفرض القانون، في حين يمثل السيف الروحي السلطة الروحية أو ما يعرف بالسلطة الدينية الممثلة في البابا، و يرمز للقوة الروحية التي تشرف على أمور الدين. راجع بطري بطرس غالي و محمود خيري عيسى، المدخل في علم السياسة، المكتبة الأنجلو مصرية، دط، 1976، ص، 103.

1- ARQUILLIERE (H. X), Histoire de l'Eglise, Paris, Ecole, 1 septembre 1941, p. 213.

2– سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 337.

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 194.

(*)(*)ومعنى ذلك صد فرد معيّن مقصود بالذات **excommunication** و عندئذ يصبح هذا الشخص منبوذا مطرودا من المجتمع المسيحي **societas christians** فلا يسمح لأحد الاقتراب منه و التعامل معه سوى زوجته و أولاده. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، ص، 337.

(*)(*)(*) الحرمان الاجتماعي أو **interdict** الذي يقع على مجتمع بأكمله، سواء كان هذا المجتمع مدينة أو إقليما أو مملكة بأسرها، و في هذه الحالة تغلق الكنائس أبوابها في ذلك المجتمع، و يضرب رجالها عن تأدية أعمالهم، فلا يجد الناس أحدا يقضي مصالحهم المرتبطة بالكنيسة، كمراسيم التعميد أو الزواج و الشعائر الجنائزية، فضلا عن انقطاع الروابط التي تربط ذلك المجتمع ببقية العالم المسيحي. راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 337.

5- نور الدين حاطوم؛ تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص، 675.

6- ARQUILLIERE (H. X), Histoire de l'Eglise, p. 214.

الروحي»[1].

نستطيع أن نلاحظ بجلاء أنّ لهذا البابا نوايا حسنة في توطيد السلطتين من أجل صنع السلام والرقّي للحضارة المسيحية. وهكذا منح نجاح "هلدبراند" تحقيق أهداف البابوية في الهيمنة على الكنيسة الغربية، فعملت على تنظيم شؤونها الداخلية وكان لهذا العمل مظهرين أساسيين أوّلهما:

- إصرار البابوية على مكانتها الهامة داخل الجهاز الكنسي بوصفها المرجع الوحيد في شرح أصول العقيدة.

- وثانيهما: نمو التنظيم الكنسي الإقليمي ليحدّ من سلطان الملكية والأمراء الإقطاعيين وتدخّلاتهم في شؤون الكنيسة(*). والدليل على ذلك نجاح البابوية في جعل الإقليم لا المملكة، الوحدة الأساسية في التنظيم الكنسي، بالإضافة إلى النجاح في إخضاع رؤساء الأساقفة في الأقاليم لسلطان البابوية المطلق وبذلك تحقق سيادة البابوية على الكنيسة في غرب أوروبا عند نهاية القرن الثاني عشر في صورة لا تقبل شكلا أو جدلا[2].

وللتدليل على هذا النجاح، يورد لنا توينبي مثالا عن مجهودات البابا إنوسنت الثالثInnocent III **(1216-1198)** في توسكانيا عام 1189م، فقد أمدّ هذا البابا حمايته لشعوب الدول المتكوّنة حديثا بهذا الإقليم، وشجّع بيزا Pise على اللحاق بهذا الركب، وقد اتّسع هذا الأخذ بالحسنى الإقليم الأسقفي(*)(*) للبابوية، حيث أنّ التأثير الحبري influence pontificale تحمّل مسؤولية الدفاع عن الحريات للعديد من المدن منها: لتفولي Tivoli وتوسكيلوم Tusculum وفيتارب Viterbe ضد ما يمكن أن يهدّد أمنهم من سكان روما آنذاك. و لم يتأخر هذا الكرسي الرسولي في تحقيق السلام لروما نفسها مع الحركة المدينية(*)(*)(*) سنة 1143م، على شكل حركة ثورية[3].

وتابعت البابوية هذا العمل سنة 1145م، بالتوفيق بين الجمهورية الجديدة- لهذه الثورة- والبابا "أوجين الثالث" Eugène III (؟- **1153**) و إنّ هذا التوفيق قد روجع وتوبع أكثر تحت بابوية "كليمنص الثالث" Clément III[4].

وأراد توينبي من إيراد هذا المثال، تبيان الدور القوي للبابوية في تصفية المنازعات وفرض الحماية و قامة الاتفاقيات، وبالتالي التواجد كهيئة كنسية وسياسية لها وزنها على الصعيد الدولي فلقد كان الهدف

1- نور الدين حاطوم؛ تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص، 676.

(*) إنّه كان لابد من نمو هذا التنظيم بعد أن أقام شارلمان إمبراطوريته على أساس تيوقراطي، يضمن للدولة السيطرة على الكنيسة و رجالها، ممّا هدّد نفوذ البابوية وحقّها في الهيمنة على الكنيسة، تهديدا خطيرا. لمعلومات أكثر راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص، 338.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 338.

(*)(*) مختص بكرسي رئيس الأساقفة.

(*)(*)(*) متعلّق بالمدينة.

3- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, pp. 194 -195.

4- Id. p. 195.

الأسمى للبابوية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، هو الهيمنة المسكونية على المسيحية جمعاء[1].

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نؤكّد أنّ ما وصلت إليه البابوية على عهد "إينوست الثالث"- خاصة -«**من مركز هام وتنظيمات خاصة بالبلاط البابوي، وسياسة مرسومة ثابتة اتجاه السلطة الزمنية وسيطرة نافذة على الهيئات الدينية**»[2]، يثبت المكانة الممتازة التي تمتّعت بها البابوية في إطار الكنيسة المسيحية والتي « **انعكست صورتها بوضوح فيما أصبح لها من نفوذ سياسي، لأنّ الكنيسة الرومانية لم تكن في العصور الوسطى هيئة دينية فحسب، بل سياسية أيضا**»[3].

وقد عرف "إينوست الثالث" بالحبر الأعظم Vicaire de Jésus-Christ وخليفة أمـــير الرسل[4]، حيث يقول: «**لقد نصّبنا بين الأمراء أو أكثر نحن أعلى منهم درجة، ربما أننا نستطيع محاكمتهم**»[5]، ويضيف:«**لم يترك السيّد المسيح فقط لبطرس الكنيسة العالمية، إنّما كل الزمان للحكم... حيث يستطيع أن يحكم بنفسه أو عن طريق وسطاء خاصة في المسائل الزمنية، لأنّه للأمراء أعطيت السلطة فوق الأرض وللباباوات فوّضت السلطة فوق الأرض وفي السماء**»[6]. وطاعة الله قبل طاعة الحاكم[7].

وبموجب هذا عاش البابا زعيما دينيا ملكيا محاطا بكل مظاهر العظمة والفخامة – تماما كما الملوك – من موظفين وأمناء وألقاب، إذ لم يلبث أن أصبح البلاط البابوي مركزا لجهاز سياسي ضخم، تتمثل مهمّته الرئيسية في تنفيذ أطماع البابوية وسياستها. وجسّدت تلك المهام عن طريق المندوبين البابويين والمحكمة البابوية(*) التي غدت على عهد "إينوسنت الثالث" بمثابة هيئة قضائية عليا. وسرعان ما أدى هذا النشاط القضائي إلى اتساع أفق القانون وظهور فئة من القانونيين في البلاط البابوي يستشيرهم البابا في أي وقت ويبني أحكامه على أرائهم[8]. يقول توينبي في هذا الشأن:«**لقد أعطت البابوية أسمى شكل ونظام للمجتمع الأوروبي المسيحي**»[9].

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ الحضارة البشرية، الجزء الثاني، ص، **171**.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، **339**.

3- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- ARQUILLIERE (H. X), Histoire de l'Eglise, p. 213.

5- Id. p. 214.

6- Id.

(*) وكان هؤلاء المتدبون **Legati Missi** على جانب كبير من الأهمية في العصور الوسطى، إذ يعقدون مجامع كنيسة إقليمية في الجهات التي يقصدونها ويفصلون في القضايا الخطيرة التي تستأنف أمامهم، بحيث لا يستطيع أحد سوى البابا نفسه أن ينتقض قراراتهم. - أما المحكمة البابوية فتنظر في جميع القضايا المعروضة عليها من مختلف أنحاء الغرب الأوروبي. وقد أخذ عدد القضايا المستأنفة أمام المحكمة البابوية في ازدياد، حتّى أصبح من الأمور العادية منذ نهاية القرن الثاني عشر أن تستأنف أحكام المحاكم الكنسية الإقليمية أمام المحكمة البابوية. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، الصفحات، **339- 340- 341**.

7- عمار بوحوش؛ تطور النظريات والأنظمة السياسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط**2**، **1984**، ص، **102**.

8- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، **340** .

9- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 195.

ويرى "اشبنغلر" أنّ القانون الكنسي قد بلغ مرحلة الاكتمال- وهو في هذا يوافق توينبي- «**بالقانون المعروف باسم Liber Exécra، والذي صدر عام 1234م، وهكذا فإنّ ما لم تستطع الإمبراطورية انجازه (وأعني بهذا عجزها عن إيجاد قانون كنسي غربي عام من تلك الوفرة والفيض الهائلين من القوانين العشائرية) أنجزته البابوية**»[1].

ولما كان تنفيذ هذه السياسة البابوية الواسعة المدى يتطلّب وجود جهاز إداري محكم «**فإنّ الديوان البابوي سرعان ما أصبح أعظم جهاز إداري عرفته العصور الوسطى، ذلك أنّ الحكومة البابوية أخذت تتطوّر تطوّرا بطيئا تدريجيا حتّى ظهر نوع من التخصص في البلاط البابوي**»[2]. ويعني ذلك قيام مجموعة من الهيئات وجماعات الموظفين، يختص كل واحد منهم بمهام إدارية معيّنة وذلك راجع إلى أنّ البابوية كانت بحاجة إلى المال من أجل فرض سيطرتها الزمنية على الأباطرة، فقد أقامت جهازا إداريا غاية في الفعالية لفرض الضرائب[3].

و«**عند اكتشاف مدوّنة جستنيان الأولى القانونية، أدى ذلك إلى وضع ما يقابلها من مجموعة للقوانين الكنسية، ولما أصدر فردريك الأول على حقوقه الملكية بوصفه خليفة لجستنيان، قاومه اثنان من الباباوات هما: الاسكندر الثالث (1159-81) ولويس الثالث (1181-5) وكلا هما بدأ حياته كمحام كنسي**»[4]. وهذا يعني مزاحمة الباباوات للملوك في الأمور السياسية.

فالإدارة الكامنة وراء التشاريع الدنيوية، «**إنّما تضرب جذورها في العادة وتقبض على أزمة أجيال المستقبل، بينما تلك الإدارة الكامنة وراء التشاريع الروحية فتنشأ في اليقين الصوفي، وتنطق بقانون خالد غير محدود بوقت أو زمان، إنّ هذه المعركة التي تدور بين خصمين متكافئين في القوى (البابوية والإمبراطورية) لم تنته أبدا بعد**»[5]. ويمثّل "اشبنغلر" على ذلك في الغرب بما نراه اليوم من تعارض بين قانوني الزواج من كنسي ومدني.

وقد كانت الأوامر والقرارات واللوائح البابوية تصدر على شكل مراسيم يختص موظّفون من الديوان البابوي في وضعها بدقة بحيث لا يمكن تزويرها، ويمكّن هذا من دراسة الوثائق والمراسيم البابوية التي ترجع إلى نهاية القرن الثاني عشر. فتظهر لنا بالتالي حقيقة هامة هي أنّ البلاط البابوي قد تمسّك حينئذ بقواعد الدبلوماسية والمظاهر القانونية، وهو اتجاه لم يكن له مثيل في أي مكان آخر في أوروبا في ذلك العصر[6].

1- اشبنغلر اوزفالد؛ تدهور الحضارة الغربية، الجزء الثاني، ص، **99** .

2- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص ص، **340- 341**.

3- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، **173**.

4- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- اشبنغلر اوزفالد؛ المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص، **100**.

6- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع نفسه، ص، **341**.

ويعود انهيار البابوية حسب توينبي إلى إعطائها السيف المادي أهمية أكثر من السيف الروحي[1]. وهذا يعني أنّ انصراف البابوية للأمور الدنيوية وتعاظم ثروتها المادية وانشغالها أكثر بكل ما هو خارج عن الأمور الدينية، قد أضعف السلطان الروحي للكنيسة. وهذا ما أدى إلى زعزعة مكانتها في المجتمع المسيحي.

زد على ذلك مواجهة حركة الإصلاح لها وبزوغ نور الفلسفات الغربية والاكتشافات العلمية الحديثة[2]. فقد زادت هذه العوامل على تضييق نطاق النفوذ البابوي. ويبقى السبب الرئيسي حسب توينبي هو انهيار بابوية "هلدبراند" وذلك لاستعمالها للقوة العسكرية، مما أبعدها عن رسالتها الأصلية، يقول توينبي:« **عندما اعتلى جريغوار السابع المنصب البابوي سنة 1045م قام بإصلاحات كثيرة وكم كانت نتائجها باهرة... لكن صراعاته مع هنري الرابع أدت إلى تقهقر مهمّته الدينية**»[3].

ويضيف توينبي سببا آخر، يتمثّل في تفطن الأمراء العلمانيين للأطماع الحقيقية للبابوية واستفادتهم من كل تلك الانجازات الإدارية والمالية التي حقّقتها. وهكذا ثاروا ضدها مستعملين سلاحها[4]. فكانت بذلك النتيجة الحتمية أن تراجعت السياسة البابوية وعوّضت La Respublica Christiana بمجموعة دول وطنـــية[5].

ونلمس بوضوح في هذه كلمة "تعويض" بأنّ La Respublica Christiana لازالت تعيش إنما فقط في شكل جديد، وهذا ما يثبت استفادة السياسات الحالية من سياسة القرون الوسطى.

ويتمثّل الحل الذي يقترحه توينبي أنّه على الغرب أن ينشأ حكومة عالمية تقوم على نظام دستوري عالمي وإنّ هذه المهمّة أكثر المهام إلحاحا وأدعاها للتحقيق العاجل. ولكن علينا تفادي أن نقيم هذه الوحدة العالمية السياسية على قوة السلاح، ذلك أنّها اعتادت أن تكون أسهل الخطط وأقلّها مقاومة ولأنّها نتيجة قرار القوى السياسية الهائلة التي يقع العالم اليوم تحت سيطرتها. وأنّه إذا تحقق وأن أصبحت الأمم المتحدة **O.N.U** حكومة عالمية تعتمد على نظام فعّال قوي، كان ذلك أصلح الحلول للمشكلة السياسية العالمية[6].

ونخلص من هذا إلى أنّه رغم انهيار البابوية وتحدّد نطاقها إلى أقل بكثير عمّا كان عليه خلال الثمانمائة قرون من الزمان التي شهدت ازدهارها إلا أنّ صدى نفوذها لازال أثره واضحا وبقوة في العالم الغربي المسيحي اليوم (مواقف البابا الحالي للفاتيكان Benoît XVI (**1927-**)(*) التي لم تسرّ المسلمين ولا الكثير من الطوائف المسيحية في العالم الإسلامي خاصة).

1- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 197.
2- Id.
3- Id. p. 196.
4- Id. pp. 196- 197.
5- Id. p. 205.

6- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص ص، 46- 47.

(*) بابا الفاتيكان منذ سنة 2005م.

فتلك الحنكة السياسية التي تميّز بها رجال الدين إبان القرون الوسطى ما تزال معالمها واضحة في سياسة العالم الغربي الحديث.

لقد ورثت الحضارة الغربية أهم ما ورثت عزم وإصرار ورغبة الكنيسة المسيحية في ترأس العالم، وأصبحت بالفعل – رغم إشراق حضارات أخرى إلى جانبها- الحضارة المسيطرة على العالم سياسيا، وهكذا نستطيع أن نقول أنّ الديانة المسيحية ممثّلة في الكنيسة المسيحية، قد نجحت في إيصال المجتمع المسيحي إلى فرض سيطرته على العالم والتحكّم في الجو السياسي للكرة الأرضية تمام التحكّم.

وبالتالي نلاحظ اليوم Respublica Christiana جديدة (وإن كان لليهود دور هام فيها) وإن اختلفت عن نظيرتها الأولى من ناحية الزمن وتغيّر معالم الحضارة إلا أنّ المبادئ والأهداف هي هي ذاتها مبادئ وأهداف بابوية القرون الوسطى.

إذ لم يكن البابا فقط الرجل الذي يحكم إنما كان انطلاقا من النص الإنجيلي، الرجل الذي يستحق الحكم، وهذا نفس ما تطبّقه الدول الغربية اليوم، فليس العالم الغربي هو الذي يتولى الحكم فقط إنما هو العالم الذي يستحق أن يحكم وعلى كل الدول في العالم – في نظر الغربيين- أن تبدي الولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

وتسعى هذه الدول الغربية المتطوّرة اليوم إلى ترسيخ هذه القاعدة وتطبيقها منتهجة في ذلك كل الطرق والوسائل، واضعة الكتاب المقدّس في الواجهة تماما كما فعلت بابوية القرون الوسطى. فلقد نجح رجال الدين وإن فشلوا كمؤسسة دينية من زرع العقل السياسي المسيحي بالإيمان بأنّه العقل الذي يستحق أن يسوس العالم، وتعزيز اعتقاده بأنّ الديانة المسيحية هي الأفضل وبالتالي فالحكم المسيحي هو الأقوى.

والدليل على ذلك ما إن بزغ نور النهضة العلمية إلا وكان الغرب أول المستفيدين منها خاصة في المجال السياسي، ونتيجة دليلنا هذا هو المركز السياسي القوي الذي تحظى به الدول الغربية الحالية. لقد استفادت سياسة العالم الغربي اليوم من سياسة الباباوات في جعل الهدف الأسمى هو إعلاء كلمة الحضارة المسيحية، باعتبارهم المفوّضون الأولون من السيّد المسيح لحكم الأرض.

ت- الدور الاقتصـــادي:

لم يقتصر دور الكنيسة على الإسهام بفاعلية في النشاط الثقافي والسياسي فحسب، إنّما أيضا تعداه إلى النشاط الاقتصادي. فقد كان لهذه المؤسسة الدينية دور فعّال في تنظيم الحياتين الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا العصور الوسطى.

وكما بيّنا من قبل كيف عكفت الأديرة على وضع سبل حياة متميّزة، ليكون لها الإسهام الواضح في القيام بالحضارة المسيحية من ذلك الأديرة البندكتية. فقد انطلقت أول خطوة للاهتمام بالنشاط الزراعي من هذه المؤسسة الدينية. ولأنّه من مبادئ هذه الحياة الديرية **العمل المتواصل**، فقد قام "بندكت" بإدخال نظام العمل اليدوي والذهني في النشاط اليومي للرهبان[1].

وبما أنّه قد حدّد أنواع التقشّف الجسدي ومداه، فقد فرض على الرهبان منذ البداية ممارسة العمل اليدوي ليحصلوا به على رزقهم البسيط. وتمثّل هذا العمل الأساسي في النشاط الزراعي[2].

يقول توينبي: «**أراد بندكت (على نحو ما رمى إليه باخوم المصري أبو نظام الرهبنة) أن يقيم توازنا بين التعبّد والنشاط الاقتصادي للرهبان في ديره**»[3]، نظرا لتفطّن هؤلاء المؤمنين لفائدة كلا النشاطين في الحياة المسيحية الجديدة.

وفي هذا السياق يضيف "سعيد عبد الفتاح عاشور"، أنّ المؤسسة البندكتية قد اعتمدت على نفسها في سّد حاجاتها ورعاية شؤونها، دون أن ترتبط بغيرها من المؤسسات الدينية أو تمد يدها لصدقات الملوك والأمراء، ومع أنّ العبادة تمثّل النشاط الأول في الحياة الرهبانية داخل الدير البندكتي، «**إلا أنّ هذا النظام امتاز بمظهر آخر لا يقل أهمية وهو اشتراك الرهبان في العمل الزراعي... لاعتقاد بندكت في أنّ الكسل عدو الروح حتّى فاقت الساعات المخصصة للعمل تلك المحدّدة للعبادة**»[4]. وهذا يفسّر ما قاله "بندكت" في مثله المعروف: **العمل عبادة** La borare est erare(*). وذلك انطلاقا من ما نصّ عليه الكتاب المقدّس في ضرورة تمجيد العمل وقيمته العالية في الحياة الإنسانية، يقول الكتاب: «**إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا**»[5].

هكذا أعطى الرهبان للناس خير مثال عن احترام العمل اليدوي الذي كان من الأعمال المحتقرة قبلا لأنّه منوط بالعبيد.

1- ج. ج. كولستون؛ عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص، 173.

2- نهى نجار؛ موسوعة الأديان السماوية والوضعية، ص ص، 133- 135.

3- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 153.

4- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص، 363.

(*) في اللغة اللاتينية.

5- 2 تسالونيكي؛ 3/ 10.

فبدأت بذلك أفكار جديدة بالظهور حول ضرورة العمل في الأرض لما فيه من كسب للرزق الحلال، وبالتالي إعطاء المجتمع المسيحي الجديد ميزة تعزّز أكثر فأكثر إيمان الناس بالديانة المسيحية.

وقد كانت هذه المؤسسات الدينية هي أولى المؤسسات التي منحها ملوك الغرب كثيرا من الإعفاءات والامتيازات، حتّى صارت الأديرة صاحبة أكبر نسبة من الأراضي الزراعية في أوروبا العصور الوسطى[1].

والمعروف أنّ الهبات قد أخذت تتدفق على الكنيسة من الأتقياء من الناس منذ زمن الإمبراطور "قسطنطين" و لم تلبث أن امتدّت هذه الأموال التي تركزت حول روما إلى شبه جزيرة الايطالية(*)[2].

ونلمس هنا معارضة هذا لمبادئ الحياة الديرية في عدم العمل من أجل الثروة الكبيرة إنّما من أجل العمل في حد ذاته، غير أنّ هذا العامل قد ساعد على وضع أهداف جديدة للكنيسة وفتح بذلك المجال أمام دور آخر لا يقل أهمية عن أدوار الكنيسة السابقة.

وقد استند المؤمنون الأوائل في تطبيق طموحاتهم الاقتصادية على ما ورد في رسالة القدّيس "بولس" الثانية إلى أهل تسالونيكي في شأن تقديس العمل وإعطاءه قيمة كبيرة لما له من دور في إحياء الحضارة، تذكر الرسالة: « **ولا أكلنا خبزا مجّانا من أحد بل كنّا نشتغل بتعب وكدّ، ليلا ونهارا، لكي لا نثقل على أحد منكم ليس أنّ لا سلطان لنا بل لكي نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثّلوا بنا**»[3].

ومعنى هذا، أنّه لا ينتمي إلى المجتمع المسيحي من يتخاذل في كسب قوته بنفسه وفي هذا توصية واضحة لتمجيد النشاط الاقتصادي. وعلينا الإشارة إلى أنّ هذا المبدأ قد أخذ به وعكفت فعلا المؤسسة الدينية على السيطرة على موارد النفوذ الاقتصادي، وإن تمادت في ذلك فيما بعد إلا أنّ مبدأ إحياء العمل وتكوين الثروة ومن ثمّ ترقية الاقتصاد كان قد أصبح من الأهداف المسطّرة للنهوض بالحضارة المسيحية.

وقد استغل الديريون نفوذهم ومكانتهم للحصول على ملكيات واسعة في الأراضي، بغية تسخيرها من أجل زيادة المداخيل الديرية، فأصبحوا في ذلك العصر «**يمثّلون أقدر الملاّك الزراعيين وأكثرهم خبرة وكفاية، وبعبارة أخرى فإنّ عناية الأديرة -وبخاصة البندكتية- بالعمل كانت في حد ذاتها عاملا من عوامل التمدين ومظهرا من مظاهر الإنتاج الحضاري والاستقرار السلمي**»[4].

ذلك لأنّ الرسالة قد ذكرت أيضا: «**لأنّنا نسمع أنّ قوما يسلكون بينكم بلا ترتيب لا يشتغلون**

1- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى؛ ص ص، 372- 373.

(*) وكذلك في صقلية و سردينيا و أيبيريا و شمال أفريقيا و جنوب فرنسا. و زادت مساحتها عن 1400 ميل مربّع، و عمّرت بالأرقاء و الأقنان، و أنّ ما تحصل عليه من خراجها نوعا و نقدا، يربو على ما يقابل نحو مليون و نصف دولار. انظر السيّد الباز العريني، ص ص، 174- 175.

2- السيّد الباز العريني؛ تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص، 174.

3- 2 تسالونيكي؛ 3/ 8- 9.

4- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع نفسه، ص، 373.

شيئا بل هم فضوليون»[1].

وهذا يعني أن يعيش الإنسان في إطار المجتمع بعمله ومجهوده فكل فرد يكافئ على قدر ما اجتهد، فمن يتعب ويكّد ينال ثمرة تعبه وكدّه، والعكس من ذلك من لا يعمل البتّة فلن ينال شيئا وهذا يضمن العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص بالنسبة لكل فرد في المجتمع[2].

فما إن حل القرن السادس للميلاد حتّى زادت بموجبها الرقعة الأرضية للكنيسة وزادت معها نشاطاتها، ويرجع الفضل في ذلك إلى كرم الملوك والمؤمنين، خاصة الذين اعتادوا منهم على توريث تركاتهم للكنيسة[3].

فأصبح يؤمل بها ويعقد عليها الرجاء وفي أقاليم كثيرة وقتما أضحى مستحيلا على ملاّك الأراضي أن يؤدوا ما عليهم من ضرائب، **«لم يسعهم – ذلك – إلاّ تسليم أراضيهم للأسقف وبهذه الوسيلة تحمّل الأساقفة مسؤوليات سناتو المدينة التي تطابق ولايتهم الروحية»**[4].

إذ للأسقف انتقلت أرض المدينة فأصبحت تحت إدارته المباشرة، وانمحت المجالس البلدية أيام الأسقف، وأصبح شعب الصنّاع والباعة الذي يعيش في المدينة من عداد زبائنه[5]. هكذا أقامت المؤسسة الدينية لنفسها نفوذا اقتصاديا يضاهي نفوذ من زمانها من ملوك وأمراء.

وقد كان النشاط الزراعي في ذلك الزمان – أي في الفترة الممتدة من القرن السادس وحتى القرن الثاني عشر الميلادي– يعاني ظروفا قاسية ولكنّنا وعلى الرغم من ذلك نستطيع الحكم بأنّ الديريين اجتهدوا كثيرا من أجل السمو بالعمل الزراعي، وأضفوا عليه بالتالي مكانة خاصة لم تتهيأ له في العصور السابقة[6]، إذ يرجع إليهم الفضل في النهوض بثورة الفلاحين سنة 1381م[7].

ونلاحظ اليوم بوضوح استمرار قيمة النشاط الزراعي في المجتمع الغربي وعدم الإنقاص من قيمة هذا القطاع، شأنه شأن القطاعات الأخرى في الاقتصاد الغربي.

ولما كان المؤمنون ينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع أي أنّ هناك نسبة منهم تنتمي إلى طبقة النبلاء، المعروف عنها – عادة– طيبة الأصل والثقافة وكل الميزات الحسنة الأخرى **«ومثل هؤلاء عندما يمسكون الفأس ويعملون في الأرض كانوا يضربون لغيرهم من الناس(*) في البيئات المجاورة مثلا فريدا له أهميته**

1- 2 تسالونيكي؛ 3/ 11.

2- ج. ج. كولستون؛ المرجع السابق، ص، 288.

3- نور الدين حاطوم؛ تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص، 133.

4- السيّد الباز العريني؛ المرجع السابق، ص، 175.

5- نور الدين حاطوم؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص، 373.

7- ج. ج. كولستون؛ المرجع نفسه، ص، 178.

(*) عامة الناس.

في الحياتين الاجتماعية والاقتصادية»[1].

ولقد كان هذا قبل مجيء نور الإسلام عبر الأندلس، فمما زاد هؤلاء المؤمنين المسيحيين تعظيمهم للعمل، تعظيم المسلمين له كذلك وللنشاط الاقتصادي، لما تحث عليه تعاليم الإسلام الناهضة بالحضارة، فما زادهم هذا إلا تفطّنا ووعيا، فأصبح من الإيمان مزاولة هذا النشاط وتنبّه بالتالي المسيحيون إلى إضافة هذا المجهود الحضاري للمجهودات الأخرى المكرّسة لتعزيز وتقوية La Respublica Christiana أكثر فأكثر.

ويجدر إلى الذكر أنّ الميدان الصناعي قد أخذ قسطه هو الآخر من نشاط الأديرة، إذ أصبحت هذه الأخيرة مراكزا صناعية نذكر منها «**ديركوربي الذي كانت به أربع مصانع يدوية صغيرة (ورش)، ودير سانت روكيير الذي قامت حوله مدينة صناعية تصنع فيها السروج والأسلحة والجلود وغيرها**»[2].

ويذكر أنّ المسحيين الأوائل كانوا على جانب كبير من الاشتراكية، حيث ورد في أعمال الرسل: «**و كانت عجائب وآيات كثيرة تُجرى على أيدي الرسل، وجميع الذين آمنوا كانوا معا وكان عندهم كل شيء مشتركا**»[3]. وهذا يعني أنّ هذه الاشتراكية قد نمّت فيهم روح الجماعة وأول من استفاد من هذا المبدأ خاصة هي الجماعة الدينية، لما كان لها من دور في هذا المجال تحت لواء الكنيسة.

ويتحدث توينبي عن القدّيس "جريجوري العظيم" الذي ساهم في تنظيم الاقتصاد المسيحي إبان فترة اعتلاءه الكرسي البابوي، ولأنّه كان راهبا بندكتيا، فقد حمل الراية البندكتية وعمل في سبيلها[4].

فحاول بذلك أن يخدم كنيسة الله بنفس الطاعة التي بذلها وهو راهب لرئيس الدير وقد حفظ لهذا القدّيس صفاء السجيّة، إذ بعدما أصبح يشرف على الضياع الشاسعة التابعة لكنيسة روما، اعتبر أنّ كل ما يستمّد منها من ثروة هو ملك للجماعة المسيحية. وبهذا حاول هذا البابا أن يطبّق حرفيا ما جاء به الكتاب المقدّس على خلاف غيره من رجال دين مسيحيين كثيرين، لم يهتموا من هذه المبادئ سوى بشكلياتها.

فقد أقام القدّيس "جريجوري العظيم" النظام الاقتصادي للبابوية على الأسس التي ورثها من نظام ملكية الأراضي الذي كان معمولا به في عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرّة.

واستطاع إلى جانب المهام الدينية أن يجد من الوقت ما يكفي لمتابعة التفاصيل في الإيرادات والنفقات ومراقبة الأسواق، والإشراف على شحن الحبوب من صقلية إلى القسطنطينية... وهكذا أصبح للبابوية دور اقتصادي واضح، لأنّ الخزانة البابوية – بهذا– أصبحت المسئولة الأولى عن الإنفاق على ما في روما وإيطاليا، من رجال دين وكنائس، ومدارس، وملاجئ، ومستشفيات، وأديرة... [5].

1- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص، 373.

2- المرجع نفسه؛ ص، 374.

3- أعمال الرسل؛ 2/ 43- 44.

4- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 53.

5- السيّد الباز العريني؛ المرجع السابق، ص، 175.

وفي عهده «**انتقل مركز النقل في الزراعة في المسيحية الغربية (والزراعة كانت يومها الشكل الرئيسي للنشاط الاقتصادي)من شواطئ حوض المتوسط الغربي في اتجاه شمالي**»[1]، هكذا أسهم الباباوات في القرون الوسطى بعمل اقتصادي في القارة الأوروبية. غير أنّه يبقى أهم من أرسى قواعد اقتصاد الحضارة الغربية هم جماعة السترشيان(*) الدينية Cisterciens وقبلهم أيضا الكارتوديان(*)(*) Cartusiens الذين تأثّروا كثيرا بالتقاليد البندكتية الأصلية.

لأنّ الرهبنة البندكتية، يؤكد توينبي لم تستمر في الحياة فحسب إنما انتشرت أيضا[2]. وإن كان الكارتوديان قد اكتفوا بالنظري، فإنّ السترشيان قد تعدّوهم للعملي عبر القرون الموالية، فوضعت هذه الجماعة كقاعدة لها، أن تكون الأديرة السترشيانية متباعدة في المناطق النائية وألاّ تمتلك حقولا آهلة بالأقنان، حتّى يتأتى للديريين الانصراف لفلاحة الأرض بأنفسهم. وهكذا أدّى الرهبان السترشيان خدمة كبيرة للحياة الاقتصادية من خلال العديد من الأعمال التي كانت تعد صعبة في ذلك الوقت، كاستصلاح الأراضي البور وزرعها، فضلا عن العناية بتربية الخيول والمواشي[3].

فقد كان هدفهم «**أن تكون لهم حياة روحية متقشفة أعمق، وإنتاج مادي أكبر، لذا استصلحوا الأرض البرّية... وقد استخرج السترشيون الحديد والصوف من البرّية، وهم إذ قاموا بهذا الإنجاز الاقتصادي، زرعوا بذور النظام الرأسمالي في الإنتاج**»[4].

وهذه مساهمة اقتصادية قويّة، فأصبحت خاصة تجارة الصوف محور الحياة الاقتصادية في إقليمهم و أيضا تسيّيرهم وامتلاكهم لأعظم مزارع الكروم وأشهرها [5].

ويذكر توينبي أنّه خلال القرنين المنتهيين وبالضبط سنة 1300م، كانت «**المسيحية الغربية بأجمعها تتقدّم اقتصاديا، فعدد السكان زاد والإنتاج نما والتكنولوجية زادت فاعليتها**»[6].

ويضيف أنّ «**دلائل ازدياد السكان في الغرب ماثلة في توسيع رقعة الأرض المستغّلة زراعيا، وفي ازدياد عدد المدن واتساعها، وفي استعمار البلاد وتواريخ بناء الأسوار دليل على اتساع رقعة المدن**»[7].

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 98.

(*) مؤسس جماعة السترشيان هو راهب فرنسي يدعى روبرت، و قد أسس جماعته حوالي 1098م، و غرضها العودة إلى التعاليم البندكتية الأولى. لمعلومات أكثر راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص ص، 368- 369.

(*)(*) أسس هذه الجماعة قدّيس ألماني الأصل اسمه برونو Saint Bruno سنة 1084م. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، ص، 367.

2- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 53.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع السابق، ص، 369.

4- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 153.

5- سعيد عبد الفتاح عاشور؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 168.

7- المصدر نفسه؛ ص ص، 68- 69.

إذ يرى توينبي أنّ تواجد المدن الأكثر على وجه البسيطة كان وقتذاك في شمال إيطاليا خصوصا، التي سارت قدما في «**صناعة الأقمشة الصوفية خلال القرن الثاني عشر، ولم تستطع فلورنسه من مجاراتها إلاّ حوالي نهاية القرن الثالث عشر**»[1]، وهذا يعني ازدياد وتيرة الإنتاج، فالمدن الساحلية الإيطالية خاصة كانت تمتاز بقدرتها على القيام بالتجارة البحرية بين المسيحيتين الغربية والشرقية [2].

من هذا نستشّف التأكيد الواضح لتوينبي عن دور المسيحية الغربية في الميدان الاقتصادي.

ومع حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، جسّد البروتستانت كذلك مبادئهم خاصة منها مبدأ التقشّف ascétisme للنهوض بالاقتصاد المسيحي، وتجنّب تبذير المال في الملبس والمأكل الفاخر... و التمسّك بنوع من الزهد في كل شيء. يقول "ماكس ويبر":«**ترجع إحدى أصول الرأسمالية الحديثة Capitalisme moderne إلى القرون الوسطى، لأنّه من أخلاقيات البروتستانت التقشّف الذي أدّى إلى انبثاق هذه الرأسمالية**»[3].

أي أنّ هذا المبدأ الديني قد ساهم في خلق نشاط اقتصادي فاعل، وهو بهذا يوافق توينبي في دور المسيحية في إنماء اقتصاد العالم الغربي اليوم، فقد حارب التقشّف ميوع الأخلاق، وحارب أيضا السعي وراء المال من أجل المال، فرأس المال مصدره هذا التقشّف[4].

أي أنّه بفضل هذا المبدأ الديني البروتستانتي تكوّنت رؤوس أموال كثيرة، استغلت في إنعاش اقتصاد الحضارة الغربية وتطويره ليحتل الريادة العالمية .

ويبدي توينبي اهتماما أكبر بالحديث عن وضع الغذاء في حياة الإنسان الحالي وإذا ما كان هذا الغذاء يكفي لتغطية احتياجات العالم خصوصا، وأنّ عدد السكان في العالم سيتضاعف مرتين أو ثلاث مرات وهو في طريقه للوصول إلى مرحلة الاستقرار، التي ستكون نتيجة إيجابية إذا ما أعدنا تعليم أنفسنا في مسألة إنقاص حجم الأسرة. وبهذا يرى أنّه يتعين علينا إعطاء العلم الفرصة الكافية لخلق نوع من السلطة العالمية لإنتاج الغذاء وتوزيعه [5].

ويتمثّل الحل الذي يقترحه توينبي في وجوب أن نجد في عالم الاقتصاد حلا عمليا وسطا بين المشروعات الحرة والاشتراكية، ويختلف ذلك طبقا للاحتياجات العملية لمختلف الأمكنة والأزمنة[6].

1- المصدر السابق؛ ص، 169.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- WEBER (Max), L'Ethique Protestante et l'Esprit du Capitalisme, Paris, Librairie Plon, 1967, pp. 233- 234.

4- Id. pp. 236- 237.

5- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص ص، 64 - 65.

6- الحضارة في الميزان؛ ص ص، 46- 47.

ويوضّح أنّه لا يمكن تنفيذ هذا الاقتراح الاقتصادي في الوقت الراهن، لأنّ «**الجنس البشري الذي يطلق على نفسه عادة اسم "الجنس العاقل" ينتظر دائما حتّى يصبح على حافة الهاوية قبل أن يحدث التغييرات الأساسية اللازمة**»[1].

ولكن لا يخفي توينبي خشيته من أنّ العالم سينتظر بحق هذه اللحظة الأخيرة التي سيدّمر فيها الجنس البشري نفسه بنفسه[2].

ونصل بهذا مع توينبي إلى نتيجة مفادها أنّ الاقتصاد الغربي الحالي هو امتداد لاقتصاد القرون الوسطى الذي أشرفت عليه الكنيسة بشكل يكاد يكون مطلقا، فالقوة الاقتصادية التي يحضى بها العالم الغربي اليوم، هي وريثة القوة الاقتصادية القروسطية الناتجة عن عقيدة دينية.

إذ يرجع الفضل الأول لوضع قواعد الزراعة في حياة غرب أوروبا الاقتصادية للرهبنة المسيحية، وأيّا كانت أهداف الكنيسة في النهوض بالاقتصاد المسيحي فإنّ نتيجتها الكبرى هي إرساء الأصول الأولى التي نشأ عنها الاقتصاد الغربي الرأسمالي الحديث.

فقد عملت أعمال الرهبان المتواضعة على توعية العقل المسيحي بضرورة الاجتهاد لتطوير الحياة والسمو بذلك بالمجتمع المسيحي أيضا في المجال الاقتصادي.

وخير نتيجة يمكن أن ندلل بها على قوة الغرب الاقتصادية، هي استعماله للسلاح الأخضر في مجابهة أشد الأزمات، في الوقت الذي لا يحضى فيه قطاع الزراعة في ربوع كثيرة من العالم بالاهتمام الكافي. وفضلا عن النجاح في هذا القطاع، نجاحات أخرى كثيرة، يبقى أعظمها السيطرة على الصناعة الحربية (وإن كانت تجاريه بعض الدول الناهضة تكنولوجيا).

ويبقى الفرق الشاسع بين المواطن المسيحي الغربي وغيره من المواطنين في العالم – وإن كان هذا ليس بشكل مطلق– أنّه يقدّس ولأبعد الحدود ساعات العمل اليومي، ويعمل بلا هوادة، وهذا بالنسبة للرجل والمرأة على السواء.

1- من الشرق والغرب؛ ص، 65.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

1-3- المسيحية و الحضارات الأخرى:

لقد كان للحضارة المسيحية الغربية احتكاك كبير مع مدنيات أخرى، بحكم حضورها القوي على مستوى العالم كالحضارة المسيحية الشرقية والحضارة الإسلامية والحضارة الهندوسية وحضارة الشرق الأقصى، منذ العصور الأولى لظهور الدين المسيحي وانتشاره عبر القارات.

ولعلّ أهم ما يميّز هذا الاحتكاك، هو تصادم تتجلى معالمه خاصة بين ما يسمى بالعالم وما يسمى بالغرب، أي الحضارة المسيحية الغربية.

فكيف يبيّن لنا توينبي هذا التصادم ؟

معنى صدام الحضارات أولا choc des civilisations هو صراع قبلي لكن على نطاق كوني، فقد أعطيت لهذا الصدام تسميات عدّة منها: السلام البارد، الحرب الباردة Guerre froide، حرب التجارة، شبه الحرب، السلام القلق، العلاقات المضطربة، التنافس الحاد، التعايش التنافسي، سباق التسلح... المهم أنّ الثقة والصداقة، عملة نادرة [1].

ويبرز لنا توينبي بدأه بالعالم في عرضه لهذه القضية لسببين، أولهما:

- لم تكن لهذه الحضارة المسيحية الغربية أهمية أكثر من الجزء الباقي من العالم والمتألّف من باقي الحضارات الأخرى حتى وإن بدا أنها هي المهيمنة في كثير من ميادين الحياة البشرية، إن لم نقل كلّها.

- وثانيا: أنّ هذا الجزء الباقي من العالم، هو المستفيد من احتكاكه بالمدنية الغربية والذي بدأ فعليا منذ حوالي خمسمائة سنة تقريبا[2].

ويرى "هنتنغتون" أنّه من المرجّح أن تنشأ أكبر وأخطر الصراعات العالمية في المستقبل نتيجة للتفاعل الذي سيحدث بين الحضارة الغربية الوحيدة التي كان لها في نفس الوقت تأثير رئيسي ومدمّر لكل الحضارات الأخرى[3].

يرى توينبي أنّه مع اختلاف هذه الشعوب الغير غربية في أمور كثيرة، كالجنس واللغة والدين والثقافة والوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي... ميزات المدنية عموما، إلا أنها تجتمع على موقف واحد اتجاه الغرب، ألا وهو أنه «**كان كبير المعتدين في العصور الحديثة**»[4].

ويؤكّد موقفه هذا بذكره لأمثلة كثيرة من التاريخ، منها مثلا أنّ تاريخ الشعب الروسي قد سجّل الاعتداء الغربي على الحضارة المسيحية الشرقية عندما اجتاحت الجيوش الغربية البلاد الروسية برا في السنوات: 1610، 1709، 1812، 1915 و1941م. ويسجّل هذا التاريخ كذلك، اجتياح الغرب ذاته لشعوب إفريقيا

1- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي، ص ص، 335-336.

2- آرنولد توينبي؛ العالم والغرب، ص، 01.

3- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع نفسه، ص، 293.

4- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 08.

وآسيا منذ القرن الخامس عشر الميلادي لأراضيها عبر البحار، وكيف نالت أيضا هذه الجيوش حصة الأسد مما تبقى من الأراضي الخالية في العالم، في قارات الأمريكيين وأستراليا ونيوزلندا وجنوب أفريقيا. وسيشهد الأفارقة كذلك، كيف أنهم استبعدوا ونقلوا عبر المحيط ليخدموا المستعمرين الغربيين في الأرض الجديدة [1].

إنّه اعتمادا على مثل هذه الشواهد التاريخية، يصف توينبي هذا الاحتكاك العالمي بالغرب المسيحي على أنّه صدام، ويستند في ذلك على المثل اللاتيني الذي مفاده: **عندما يصدر العالم حكمه، فإنّه يمكنه أن يثق في أنّه القول الفصل.** ليثبت لنا أنّ حكم الحضارات الأخرى على الحضارة المسيحية الغربية له ما يبرّره خلال فترة تقرب من أربع قرون ونصف، كانت خاتمتها في الأربعينيات من هذا العصر، إذ **«تدّل خبرة العالم للغرب طوال تلك الفترة، على أنّه كان المعتدي على وجه الإجمال»** [2].

ومن الواضح جدا، أنّ علاقة الغرب بباقي العالم من هنا فصاعدا لن تكون علاقة وثيقة، بل غالبا ما ستكون عدائية [3].

ويعرض توينبي الفصل الأول من هذه القصة الذي يبدأ مع الحضارة المسيحية الشرقية.

أ- المسيحية الشرقية و المسيحية الغربية:

إنّ الصدام بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية ليس جديدا في القرن العشرين، وإنما تعود بداياته إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية وانقسامها إلى دولة بيزنطية، عاصمتها القسطنطينية Constantinople التي صارت فيما بعد مركزا للمسيحية الشرقية المعروفة بالأرثوذكسية، وإمبراطورية رومانية غربية، عاصمتها روما Rome والتي هي مقر الكنيسة أو بالأحرى المسيحية الغربية، المتمثّلة في الكاثوليكية التي تولّدت عنها فيما بعد البروتستانتية.

وهكذا فإنّ جذور الصراع طويلة، وتجددّ هذا الصدام بالخصوص بعد الحرب العالمية الثانية من عصرنا الحالي.

إنّ روسيا تمثل جزءا كبيرا من هذا العالم الغير غربي، **«و مع أنّ الروس كانوا ومازال كثير منهم مسيحيين، فإنهم ما كانوا قط مسيحيين غربيين... وبالرغم من أصولهم المسيحية المشتركة فإنّ المسيحيين الغربيين والشرقيين كانوا دائما غرباءا بعضهم عن بعض، وكثيرا ما كان التنافر والعداء متبادلين بينهما»** [4].

والسبب في ذلك أنّ العالم الروسي لم يعتنق المسيحية عن طريق روما وإنما عن طريق القسطنطينية، إذا فالمشرب الديني ليس واحدا.

1- المصدر السابق؛ الصفحة نفسها.

2- المصدر نفسه؛ ص، 09.

3- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص، 293.

4- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 10.

ومع ذلك فقد تلاقت المصالح بين هاتين الحضارتين إبان القرون الوسطى الأولى. و لم يبدأ التباعد إلا في القرن الثالث عشر وذلك عند وقوع روسيا تحت هيمنة التتار. فانتهز الغرب المسيحي فرصة انشغالها بالغزو ليقتطع منها الأطراف الغربية في روسيا البيضاء والنصف الغربي من أوكرانيا، ويضمّهما مباشرة إلى العالم المسيحي الغربي وأصبحا من مكتسباته [1].

مع الإشارة إلى أنّ هذه القطع قد استردّت مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

يقول توينبي: «**لقد ردّ الغرب المسيحي بقمعه الطغيان عندما رفع رأسه بين ظهرانينا... في شكل الفاشية والاشتراكية الوطنية، ودفعنا في ذلك ثمنا باهظا بنفس الكراهية والارتياب في شكله الروسي، سواء سمي بالحكم القيصري أو بالنظام الشيوعي(*)**»[2].

نلحظ في هذا إذا تخوف توينبي الواضح من التغلغل الشيوعي في المجتمع الغربي، وما يمكن أن يسفر عنه هذا التغلغل من تهديد النظام الرأسمالي العدو اللدود للنظام الشيوعي، هذه العداوة التي ظهرت واشتدت بين المدنيتين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية منذ قيام الثورة البلشفية Bolchevisme في روسيا.

هذا النظام الذي أعلنه "ماركس" بمعونة زميله "انجلز" Friedrich Engels **(1820-1895)** سنة 1848م، ثورة شيوعية ضدّ الرأسمالية الغربية وكذلك ضدّ الكنيسة المتحكّمة برقاب الناس[3].

ومع أنّ هذا النظام قد انقضى، ولو مازال له أتباع في مختلف أنحاء العالم، إلا أنّه كان بطل فصول طويلة من النزاع زادت الهوة بين الحضارتين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية.

فقد شكّل هذا النظام في وقت من الأوقات خطرا كبيرا على المثل والمبادئ العليا للحرية خاصة.

ورغم سقوط الماركسية إلا أنها حقّقت تحوّلا عالميا، خاصة من ناحية مفهوم البنية الطبقية للمجتمع و الصراع الطبقي، وقامت بإدخال مفاهيم جديدة لفتت الأنظار إلى دراسة تكوين الطبقات الاجتماعية [4]، ما من شأنه أن يسعى إلى ترقية المجتمعات الإنسانية.

1- المصدر السابق؛ ص، 11.

(*) الشيوعية Communisme: مبدأ وفكرة موغلة في القدم، فقد ظهرت في التاريخ أكثر من مرة، ففي عام 487 ميلادية، ظهر في بلاد فارس رجل اسمه "مزدك" ودعا إلى الشيوعية و اشتراك الناس في الأموال والنساء، و تسمى حركته بالمزدكية، وقد ثار عليه الناس وقتلوه. كما دعا إلى الشيوعية "حمدان قرمط" الذي تنسب إليه حركة القرامطة المشهورة التي ظهرت سنة 288 هجرية وما بعدها في البحرين واليمن و العراق. أما الشيوعية الماركسية الحديثة، فهي حركة فكرية واقتصادية يهودية، وضعها كارل ماركس. تقوم على الإلحاد، و إلغاء الملكية الفردية وإلغاء التوارث، واشتراك الناس كلّهم في الإنتاج على حدّ سواء. راجع ناصر عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل، المرجع السابق، ص، 90.

2- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 12.

3- ناصر بن عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل؛ الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص، 91.

4- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر؛ في فلسفة الحضارة(اليونانية-الاسلامية-العربية) ، ص، 268.

ولعلّ الحاجز الأكبر الذي واجهته المسيحية الغربية في محاولة منها للحد من زحف الحضارة المسيحية الشرقية هو النظام المسكوفي الأوتوقراطي المركزي بزعامة "بطرس الأكبر" Pierre le Grand (**1682-1725**) «**تلك الشخصية الهامة في فهم علاقات العالم بالغرب**»[1]. وذلك لأنّه كان بمثابة مصلح كبير آخذ بالأساليب الغربية ويعود له الفضل في عدم وقوع الحضارة المسيحية الشرقية لسيطرة نظيرتها الغربية.

فقد ضرب "بطرس الأكبر" للعالم بأسره مثلا في تدريب نفسه على مقاومة العدوان المسيحي الغربي بأسلحته نفسها، وكانت نتيجة ذلك أنّ تبعه حكام كثيرون من أمثال: السلطان "سليم الثالث" و"محمود الثاني" (**1748- 1839**) و"مصطفى كمال أتاتورك"(**1881- 1938**) و"محمد علي" (**1769- 1849**) وشيوخ رجال الدولة في اليابان...[2].

ويذكر توينبي أنّه كانت هناك محاولة جادّة لفرض المسيحية الغربية على حساب روسيا إبان القرن الخامس عشر ولكنها باءت بالفشل الذر يع وكان ذلك في سنة 1439م [3].

ولقد أراد توينبي بذكر هذه الأمثلة، أن يبيّن لنا كيف نجحت المسيحية الشرقية في الإفلات من خطر المسيحية الغربية بل استطاعت أن تحصد لها أتباعا كثيرين عبر العالم مما ساعد على توسيع نطاق الصدام بين هذه الحضارة المسيحية الغربية اليوم وحضارات العالم المتبقية.

لكن يؤكّد، أنّ السباق التكنولوجي بين العالمين هو أحد العوامل الخطيرة التي تسبّبت في حدوث ارتباك بين هاذين المجتمعين المسيحيين [4]، ذلك أنّ كلاهما قد التزم بموقف يستحيل الرجوع عنه مما أنتج تسابقا في سبيل إنتاج آلات التدمير خاصة، لإرهاب الجانب الآخر.

وزادت الحرب الباردة من حدّة الوضع وما قامت به من محاولات لكسب حلفاء جدد لأنّ الدول الصغيرة لا تميل لدولة كبرى إلا طلبا للحماية والمساعدة. فانطلق بذلك التنافس العسكري من ميدانين هما: إنتاج الأسلحة العادية وإنتاج الأسلحة الذرية. ويمكن تطوير الأسلحة الذرية، فما أن وصل عام 1957م حتى تعدّى التنافس إلى إنتاج الصواريخ العابرة للقارات وما أدّى إليه من سباق لغزو الفضاء. هكذا تحوّل النزاع بين الحضارتين من حرب ميدان إلى حرب تنافس علمي يهدّد السلام العالمي وجعل اقتصاد الحكومات يثقل بأعباء هذا السباق لعهود طويلة [5].

ومن الوسائل المستعملة في هذا الصراع عدا الوسائل المادية، الوسائل الروحية، التي يؤكّد توينبي على أنّ لها أعظم الفاعلية بالمقارنة مع الوسائل الأخرى المسخّرة. من ذلك مثلا المذهب السياسي المتبّع ويقصد

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 13.

2- المصدر نفسه؛ ص ص، 13- 14.

3- المصدر نفسه؛ ص ص، 17.

4- المصدر نفسه؛ ص ص، 15.

5- لبيب عبد الستار؛ أحداث القرن العشرين، ص، 252.

بذلك المذهب الذي كان متّبعا في روسيا منذ ثورة عام 1917م، «**إذ كان مذهب ينفع بنوع خاص روسيا باعتباره سلاحا غربيا يستخدم في شن حرب روحية ضد الغرب**» [1].

ويبيّن توينبي أنّه كان نقدا غربيا لفشل الغرب المسيحي في تطبيق مبادئ المسيحية في كل ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية... في هذا المجتمع الذي يرى أنّه مسيحي بالاسم فقط، وبما أنّ هذا المذهب قد نشأ أصلا في الغرب فقد كان في نفس الوقت انتقادا لتصرّف الغرب، فهو«**عين السلاح الروحي الذي يود أي خصم للغرب أن يلتقطه ليصوبه إلى صدر صانعيه**» [2].

ومعنى هذا أنّ توينبي يعدّ الشيوعية نظاما سياسيا روحيا، استخدم كأهم سلاح وظّف على الإطلاق في حرب المسيحية الشرقية مع نظيرتها الغربية. فقد برهن لعهود طويلة على أنّه سلاح مضاد للغرب أكثر من أي سلاح مادي آخر في الوجود [3].

من المؤسف أنّ توينبي لم يعش ليشهد انهيار هذا النظام الذي تخوّف منه لدرجة كبيرة إلى حد أنّه اعتبر "كارل ماركس" زعيما هرطوقيا عصريا غربيا، لأنّه كان قد ارتكب على حد تعبيره: «**خطأ ذهنيا وانحرافا أدبيا عندما وضع إصبعه على نقطة واحدة في التصرّف السليم كانت في حاجة صارخة إلى الإصلاح وغاب عن بصره كل الاعتبارات الأخرى ولذلك أوجد علاجا أسوأ من الداء**»[4].

إنّ المشكلة الرئيسية إذا في هذه العلاقة هي سمة التنافر التي طبعت جهود الغرب وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة الأمريكية من أجل نشر ثقافة غربية عالمية. وقد خدم سقوط الشيوعية الغرب في أن قوّى نظرته إلى أيديولوجيته اللبرالية الديمقراطية وإحساسه بأنها انتصرت كونيا، وهكذا أصبحت صالحة لتعميمها على العالم[5].

غير أنّ بذور الصراع لم تندثر لتبقي المجال فسيحا اليوم لأنظمة أخرى من الممكن أن تظهر إلى الوجود إن توفرت لها نفس المعطيات، ألا وهي الصدام.

ب- الإسلام والمسيحية الغربية:

تعود علاقة الحضارة المسيحية الغربية مع الإسلام إلى بداية ظهوره في القرن السادس الميلادي كحد فاصل في التاريخ العربي[6]، وقد اتخذت هذه العلاقة أشكالا عدّة أهمها المواجهة المسلّحة في حياة النبي محمّد

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 18.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- المصدر نفسه؛ ص، 20.

5- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص، 293.

6- سبتينو موسكاتي؛ الحضارات السامية القديمة، سلسلة روائع الفكر الإنساني، ترجمة: السيّد يعقوب بدر، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص، 188.

صلى الله عليه وسلم في معركة "مؤته"(623م) وبعد وفاته عليه السلام في الفتوحات الإسلامية بصفة خاصة وذلك في معركة "اليرموك" (636م).

ومن جهة ثانية كانت هناك أيضا بوادر علاقات سلمية بين الحضارتين، تمثّلت في المعاهدات التي عقدت مثلا مع نصارى شبه الجزيرة العربية أو مع غيرهم.

ذلك أنّ الإسلام بانتشاره في شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط(*) وشمال إفريقيا... مكّن المسلمين من احتكاك مباشر مع المدنيات العالمية الأخرى وبخاصة المسيحية الغربية.

ويعتبر توينبي أنّ انتشار الإسلام كان أكبر خطر هدّد المسيحية الغربية خاصة منذ القرن السابع الميلادي، عندما حرّر العديد من الأقطار من النفوذ الإغريقي الروماني حتى نهاية القرون الوسطى[1].

ولقد كان رد فعل المسيحية الغربية على هذا الفتح الإسلامي للعالم المسيحي في القرنيين الرابع عشر والخامس عشر على التوالي هو: **«أن لا يقوم بهجوم جبهي جديد على العالم الإسلامي على غرار الحروب الصليبية التي مني فيها بالفشل الذر يع، بل أن يقوم بتطويق الإسلام عن طريق إخضاع المحيط»**[2].

هكذا تمكّنت المسيحية الغربية من صد الزحف الإسلامي وبالتالي حصر الحضارة الإسلامية في نطاق محدود وعدم السماح لها بالتوسّع على حسابها.

وتجدر الإشارة إلى أنّه هناك نقاطا مشتركة كثيرة بين الإسلام والمسيحية عموما على غرار الأديان الأخرى، نذكر منها:

- أنّ كلاهما ينظر للعالم نظرة ثنائية: أي "نحن" و "هم".
- كلاهما أيضا دين توحيد، يختلف تماما عن الأديان التي تقول بتعدد الآلهة ولا يستطيع أن يستوعب مطلقا آلهة آخرين إلى جانب إلهه أو في مكانه.
- كلاهما أيضا يناضل من أجل نشر عقيدته التي يراها وحدها الصحيحة وبالتالي على الجميع إتّباعها معتمدا على ذلك في إيمانه القوي بكتابه السماوي.
- كلاهما دين تبشيري، عمل بلا هوادة على نشر تعاليمه عبر الفتوحات (الإسلامية) والتبشير (المسيحي). ويعتقد أنّ على متّبعيه الالتزام بهداية غير المؤمنين وتحويلهم طوعا إلى الإيمان الصحيح.

(*) يقع الشرق الأوسط في منتصف العالم القديم و في مركز المدنية كلّها، و قد كان كذلك منذ فجر المدنية. و هو نقطة التقاء آسيا و إفريقيا و أوروبا، كما أنّه النقطة التي تتقارب فيها مياه المحيط الأطلسي و مياه المحيط الهندي و المحيط الهادي إلى أقصى حد ممكن. راجع آرنولد توينبي، من الشرق و الغرب، ص، **68**.

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، **21**.

2- المصدر نفسه؛ ص، **24**.

- حتى أنّ مفهومي "الجهاد" و "الصليب" المتوازيان يميزان العقيدتين الإسلامية والمسيحية عن الأديان العالمية الأخرى.
- وأخيرا فالصراع بينهما كان خصوصا من ناحية مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة متجاوز يربط بين الدين والسياسة. ضدّ المفهوم المسيحي الغربي الذي يفصل بين مملكة الربّ ومملكة قيصر[1].

ومن الملاحظ أنّ السبب الأكبر في صدام العالم الإسلامي بالمسيحي الغربي هو الثقافة. فالمجتمعات المسلمة تنظر إلى الثقافة الغربية على أنها مادية، فاسدة، متفسّخة، مغوية ولا أخلاقية، وبالتالي لا بد من التأكيد على مقاومة تأثيرها على أسلوب الحياة الإسلامي.

فمهاجمة الغرب ليست قائمة على أنّه يتبع دينا غير كامل أو دينا خاطئا مع العلم أنّه دين سماوي، بل يهاجم من طرف العالم الإسلامي لأنّه في نظر المسلمين لا يتّبع أي دين بالمرة[2].

والواقع أنّ الحضارة المسيحية الغربية، «**لم تجسر على شد الحبل وتضييق الخناق على الإسلام حتى مجيء القرن التاسع عشر**»[3]، ويتمثّل ذلك خاصة في إتّباع أحد الأقطار الإسلامية قوة وهي تركيا لأسلوب الحياة الغربي أيام السلطان "عبد الحميد الثاني" (**1876-1909**) الذي أراد صبغ الجيش التركي بالصبغة الغربية، ومع أنّه أراد أن يتّم ذلك في حدود ضيّقة، إلا أنّ هيئة من ضباط الجيش التركي استطاعت أن تفتح الباب على مصراعيه أمام مقوّمات الحياة الغربية وكان ذلك عام 1908م[4].

وقد وصفت هذه الحركة بالناجحة[5].

ويؤكّد توينبي، أنّ تفوّق الغرب المسيحي على العالم الإسلامي لا يرجع إلى الأسلحة الغربية أو التمرين أو التدريب الغربيين ولا حتى إلى التكنولوجيا. إنّ سر التفوّق هذا «**لا يمكن فهمه بدون أن ندخل في حسابنا كل عقلية المجتمع الغربي ونفسيته... والواقع هو أنّ الفن الحربي الغربي كان دائما ناحية من نواحي أسلوب الحياة الغربي، ولذلك فإنّ أي مجتمع حاول أن يكتسب الفن بدون أن يحاول أن يحيا الحياة ذاتها، لا بد وأن يفشل**»[6].

إنّ هذا هو الخناق– إن صحّ التعبير– الذي طوّق به الغرب المسيحي الإمبراطورية العثمانية باعتبارها الممثّل الأول للحضارة الإسلامية، وقد نجح في ذلك. والذي أكّد أكثر نجاح المسيحية الغربية على الإسلام هو الثورة التي أحدثها "مصطفى كمال أتاتورك" Mustafa Kemal Atatürk، الذي استغّل ظروف خروج تركيا مهزومة من الحرب العالمية الأولى مع حليفتها ألمانيا ليفرض على المجتمع إتّباع أسلوب الحياة الغربي

1- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص ص، **340-341**.
2- المرجع نفسه؛ ص، **345**.
3- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، الصفحة نفسها.
4- المصدر نفسه؛ ص، **27**.
5- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، **21**.
6- المصدر نفسه؛ ص ص، **28-29**.

وضرورة قبوله لأنّه المنفذ الوحيد للنجـــاة. وكان لهذا القائد من قوة الشخصـــية ما مكّنه من جعل مواطنيه يتبعون خطاه و يسيرون تحت قيادته[1]. إلا أنّ هذا الانتصار الحالي يبدو مؤقتا، خصوصا بعد نهضة تركيا الإسلامية الحالية والتي أصبح منظّروا علمانيتها يشتكون من سيطرة جذورها الإسلامية التي أصبحت تهدّد طابعها العلماني.

ويمكن أن نضيف مثالا آخر عن تصادم العالمين الإسلامي والمسيحي الغربي، لكن هذه المرة في غرب العالم الإسلامي وبالضبط في الجزائر، إذ يقول "صالح عوض" أنّه في الفترة الممتدة من سنة 1830م وحتى سنة 1962م، شهدت الجزائر ألوانا من الصراع الحضاري بين مجتمعين مختلفين أو بين نموذجين متباينين.

يمثّل الأول، العالم الإسلامي بعقيدته وقيمه وتراثه، ويمثّل الثاني، الغرب بطبيعته ومنهجه ومطامحه وأساليبه الهادفة إلى فرض السيطرة والاستغلال التام[2]. وبالتالي محو الشخصية الجزائرية والقضاء على هويتنا العربية الإسلامية(*). ومنذ السبعينيات من عصرنا الحالي، نلاحظ أنّ علاقة العالم الإسلامي بالغرب المسيحي في تباين مستمر، إذ ظهر إلى الوجود اتجاه معاد تماما للغرب من علاماته خاصة تصاعد العمل الأصولي، وتحوّل القوة داخل الدول الإسلامية ذاتها من حكومات موالية للغرب إلى حكومات معادية له(*)(*). إضافة إلى ظهور ما يشبه الحرب بين الجماعات الإسلامية والغرب، ومما نتج عنه خاصة ضعف العلاقات الأمنية التي كانت طيبة بين دول العالم الإسلامي وبين الولايات المتحدة الأمريكية بالتحديد أثناء الحرب الباردة[3]. وما حرب الخليج التي أصبحت حربا بين العراق والغرب، ثم حربا بين الإسلام والغرب، وأخيرا أصبحت في نظر العالم بأسره حربا بين الشرق والغرب، إلا مظهر من مظاهر هذا الصدام الحضاري الإسلامي مع المسيحي الغربي الحالي[4].

1- المصدر السابق؛ ص، 29.

2- صالح عوض، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر من سنة 1830 إلى سنة 1962: دراسة تحليلية، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر، ط2، 1992، ص، 18.

(*) مثال ذلك، دعوة الرئيس الليبي " معمر القدافي" سنة 1994 إلى الوقوف إلى جانب الصين في وجه ما يسميه بالمعسكر المسيحي الصليبي، إذ يقول:" ليس لدينا مبررات سوى أن ننحاز ضد الصليبيين. نحن نقف مع الكونفوشية، و بانحيازنا إلى جوارها و القتال بجانبها في جهة عالية واحدة سوف نقضي على عدونا المشترك، و هكذا فإننا كمسلمين سوف ندعم الصين في كفاحها ضد عدونا المشترك...نتمنى النصر للصين...". راجع صموئيل هنتنغتون، المرجع السابق، ص، 388.

(*)(*) مثال ذلك تجربة فوكو Charles de Foucault الدينية في الهقار Hoggar والتي أثبتت فشلها باعتراف فوكو نفسه حيث قال: "غدا، تمر عشر سنوات منذ بدأت أقوم بالقداس بتامنراست ولم أتوصل إلى تنصير شخص واحد". لمعلومات أكثر انظر الثقافة: من أجل أمن ثقافي عربي، مجلّة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، العدد 76، أغسطس 1983، ص، 88 .

3- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص، 296.

4- المرجع نفسه؛ ص، 406.

فالمشكلة التي ينبغي مواجهتها بالنسبة للغرب هو الإسلام وليست الأصولية الإسلامية باعتباره حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوّقه الثقافي، وأما بالنسبة للإسلام فالخطر الذي ينبغي مواجهته في الحقيقة هو الدين المسيحي وليست المخابرات المركزية الأمريكية أو البنتغون(*) Pentagone، باعتباره ممثّل حضارة كذلك مختلفة، وشعبها أيضا مقتنع بعالمية ثقافته الغربية المسيحية. نستطيع أن نقول أنّ هذه هي المكوّنات الأساسية التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب [1].

ويتساءل توينبي عن إمكانية تجزّأ العالم الناطق بلغة الضاد كما تجزّأت الإمبراطورية الإسبانية السابقة في الأمريكيتين من جرّاء الصراع، يقول: **«إنّ هذا جانب غير سار لمدنيتنا الغربية ويكون من المؤسف حقا أن تنقله الشعوب الناطقة باللغة العربية كما هو»** [2]. وكأنّه بهذا يحذّر الشعوب الإسلامية من مواصلة الصراع الذي يمكن أن يدّمرها بذاتها قبل أن يقضي تماما على علاقتها بالغرب.

ت- الهندوسية و المسيحية الغربية:

لقد كان تأثّر الحضارة الهندية بالحضارة المسيحية الغربية تأثّرا عميقا، ويعود ذلك خاصة إلى أنّ الهند على خلاف العالم الروسي والعالم الإسلامي قد تمركزت فيها القوات الغربية قرونا طويلة، وحكمت من طرف الغربيين لعهود طويلة (*)(*)، ولعلّ هذا ما يجعل التأثير أعمق والتجربة أقسى.

يقول توينبي اعترافا منه بقوة الحضارة الهندية: **«لولا أسلحة المسلمين قهرت الهند أولا لكان من المحتمل ألا تتغلب عليها الحضارة الغربية بعد ذلك»** [3].

ذلك أنّ المسلمين قد نجحوا قبلا في إخضاع معظم بلاد الهند لسلطتهم. ويتمثّل غزو الحضارة المسيحية الغربية للحضارة الهندية، في أنّ الحكام البريطانيين الذين توالوا على حكم الهند، كانوا قد ساهموا مساهمة فعالة في نقل مقوّمات حضارتهم إلى العالم الهندي، وذلك مثلا عن طريق استبدال التعليم الهندوسي والإسلامي اللذين كانا معتمدين بالتعليم الغربي. وهكذا تعلّم الهنود أساليب الحياة الغربية وعلى وجه الخصوص اعتناقهم لمفاهيم مثل: الحرية والحكم البرلماني الدستوري والقومية [4].

لكن كان لذلك نتيجة عكسية، إذ سمح هذا الاعتناق للمفاهيم الغربية على فتح عقول الهنود على ضرورة التمتّع بالاستقلال ذاته الذي تتمتع به بريطانيا على أرضها[5]، وشكّل هذا إذا فصلا من فصول الصدام بين الحضارتين.

(*) وزارة الدفاع الأمريكية.

1- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص، 352.

2- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 33.

(*)(*) استمر هذا الحكم الغربي في بنغال قرابة مائتي سنة، و في البنجاب أكثر من مائة سنة.

3- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 35.

4- المصدر نفسه؛ ص، 36.

5- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

ودليل توينبي على أنّ المدنية المسيحية الغربية قد تمكّنت من أن تترك أثرا واضحا في الحضارة الهندية، هو أنّ الحكام الهندوس في الاتحاد الهندي والحكام المسلمين في باكستان، يكرّسون جهودهم في حكم كل منهما لنصيبه من شبه القارة الهندية على الأسس والركائز ذاتها التي اعتمد عليها البريطانيون نفسهم في حكم بريطانيا منذ سنة 1688م[1].

ويرى توينبي أنّ التعليم أحد الأسس الهامة في بناء ودوام الحضارة، قد اتّخذ في الهند كوسيلة لنقل المثل العليا الغربية وهذا ما جعل الحضارة المسيحية الغربية تبقى على الارتباط مع شعب شبه القارة الهندية[2].

ويقول أنّ الصدام الحقيقي بين الحضارتين يعود في الحقيقة «**إلى ما قبل بدء حركة الهند الاستقلالية في التسعينيات من القرن التاسع عشر وقبل النزاع المشؤوم الذي حدث في سنة 1857، إنّه يرجع إلى وقت إصلاح الإدارة البريطانية في الهند الذي بدأ في الثمانينيات من القرن الثامن عشر**»[3].

فالاحتكاك إذا وارد، وإنّ روّاد الحضارة الهندية الحالية قد استطاعوا أن يصطبغوا بالصبغة الغربية أكثر من أي وقت مضى، وهذا كاف لأن تعترف الحضارة الهندية للمسيحية الغربية بقوة التأثير والسيطرة.

ث- حضارة الشرق الأقصى و المسيحية الغربية:

لقد تأثّر الشرق الأقصى بالحضارة المسيحية الغربية كما الهند والعالم الإسلامي والمسيحي الشرقي قبلا. وإن كان ذلك بدرجة أخف بكثير من كل التأثيرات التي تعرّضت لها هذه المدنيات.

ولعلّ ما مهّد للمدنية المسيحية الغربية الطريق للتوغّل في عالم الشرق الأقصى، كان أولا: التأثّر بالحضارة اليونانية الغربية من قبل. كما حدث للعديد من الحضارات الغير غربية.

أما عن الغزو الغربي الحديث. فيقول توينبي أنّ أثره في مشاعر شعوب الشرق الأقصى،«**قد كان مزيجا غير مستقر من الافتتان والكراهية**»[4]، مما أسفر عن العزوف الكامل عن هذه المدنية الغربية، فدفعها ذلك إلى الانصراف إلى عزلة كاملة(*). وهذا مظهر أوّل لصدام حضارة الشرق الأقصى بالمسيحية الغربية.

ورغم أنّ محاولات الغرب كانت قد باءت بالفشل إبان القرن السابع عشر والثامن عشر على التوالي، إلا أنّ محاولة القرن التاسع عشر قد أتت بالجديد وهو التمكّن من اكتساح هذا العالم المنعزل.

ويرجع ذلك إلى عوامل شتّى منها:

التسلّح التكنولوجي الباهر الذي فاق به الغرب بكثير تسلّح هذه الشعوب الآسيوية، كيف لا وهو نتاج باهر للثورة الصناعية الغربية. وهكذا انكسر تحدّي الشرق الأقصى للغرب المسيحي. يقول توينبي:

1- المصدر السابق؛ ص، 37.

2- المصدر نفسه؛ ص، 40.

3- المصدر نفسه؛ ص، 41.

4- المصدر نفسه؛ ص، 50.

(*) أقفلت كل من اليابان و كوريا و الصين على نفسها الباب و أخذت تعيش ما أمكنها في عزلة الناسك، راجع آرنولد توينبي، المصدر نفسه، ص، 50.

«فدولة الشرق الأقصى التي اعتزلت العالم وحاولت أن تواجه التحدّي التكنولوجي الجديد الذي جاءها من الغرب بتجاهلها ذلك التحدّي. كانت ترى على الفور أبوابها المغلقة وقد حطّمتها المدافع الثقيلة»[1].

نلحظ في هذا إذا تمكّنا واضحا للمسيحية الغربية على أشد الحضارات انطواءا على نفسها، مع العلم أنّ ذلك لم يكن يتأتّى للغرب لولا الثورة الصناعية.

ويؤكّد بهذا توينبي إذا على أنّ هذا التصادم بين المدنيتين انتهى قطعا بقبول شعوب الشرق الأقصى لأسلوب الحياة الغربي، ويرى أنّ الفرق بين رد فعل الشرق الأقصى في البداية والذي تمثّل في الرفض القاطع، كان سببه أنّه في القرن السادس عشر تقدّم الغرب إلى هذه الحضارة على أنّه دين غريب.

أما في القرن الثامن عشر، فقد تقدّمت المدنية الغربية إلى هذه الشعوب على أنها تكنولوجية، ذلك أنّ قبول التطبيق العلمي أيسر من قبول الدين، لما للدين المحلي من مكانة كبيرة جدا في واقع حياة الشعوب الآسيوية[2]. فكان لدخول هذه التكنولوجيا في هذا المجتمع فعل السحر والفتنة وبالتالي فقد كانت أوفر حظا بالقبول من التبشير بالمسيحية.

ويوضّح لنا توينبي أكثر أنّ سبب رفض الديانة المسيحية من طرف رجال الدولة الصينيين واليابانيين، هو تفطّنهم أن مبعث ذلك النشاط الديني الغربي للمرسلين المسيحيين وراءه هدف سياسي في جوهره. وليس لأنهم رفضوا المسيحية كدين إنما قد نشئوا على التقاليد الفلسفية الأكثر تسامحا للديانتين الكونفـــوشية والبـــوذية(*)[3].

إننا لا نستطيع أن نوافق توينبي في موقفه هذا موافقة كاملة، وذلك لأنّنا نعلم تماما أنّ المسيحية الغربية كدين قائمة على التوحيد إلى جانب ديانات التوحيد الأخرى: اليهودية والإسلام، فهي أولا وأخيرا ديانة سماوية، وهذا ما رفضه تماما مجتمع الشرق الأقصى المتعدد الآلهة.

إذ لم يكن من الممكن اعتناق هذا الدين الموحّد في نظرهم، لأنّه يتعارض بشدة مع معتقداتهم الدينية التي تأصلت في المجتمع الآسيوي منذ عهود سحيقة ألا وهي عبادة الأوثان أو قوى الطبيعة المختلفة... زيادة على أنّ ما زاد تشويه سمعة الدين المسيحي الغربي أكثر هم الغربيون أنفسهم والدليل على ذلك قول توينبي:

«إنّ الغربيين عندما ظهروا لأوّل مرة في أفق الشرق الأقصى في القرن السادس عشر، أبدى هؤلاء استعدادا للترحيب بأولئك الغرباء الذين كانوا غير معروفين لديهم آنئذ وأن يتّبعوا أسلوب حياتهم

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 51.

2- المصدر نفسه؛ ص ص، 52-53.

3- المصدر نفسه؛ ص ص، 55.

(*) تقوم الأولى على تعاليم كونفوشيوس التي تتحدث عن تطوير الإنسان لإنسانيته الداخلية حتى يصبح عظيما في السلوك الشخصي، والحياة الخاصة، وفي علاقاته مع الآخرين، وعندما يتحقق ذلك فإنّ الخير سينتشر وتعم السعادة. وأما الثانية فهي طريق للحكمة يتم تعليمها وممارستها من أجل تحسين نوعية الحياة من خلال إزالة منابع المعاناة. انظر جون كولر، عالم المعرفة: الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 199، تموز 1995، الصفحات، 187- 335 .

أكثر مما فعلوا بعد ذلك بثلاثمائة سنة عندما عاد الغربيون بسمعتهم السيئة التي كانوا قد اكتسبوها في زيارتهم الأولى»[1].

والسبب الثاني: هو خشية رجال الدولة اليابانيين من تشرّب مواطنيهم المسيحية الغربية، لأنهم بذلك يتشرّبون روح التعصّب الديني المسيحي. وبهذا يكون هذا الدين الأجنبي مصدر تهديد عاجل أشد خطورة على الذي يغير عليه من التكنولوجية الأجنبية. وذلك لأنّ التكنولوجية تؤثر حقيقة على سطح الحياة في بادئ الأمر، غير أنّ للدين قوة أكبر، لأنّه يسري رأسا إلى الجذور[2].

لهذا يسلّم توينبي بدور الدين الكبير في عملية الحضارة، ولا يعدو أن هذا يكون مثالا آخر عن مدى تحكّم القوة الروحية في بناء الحضارة.

ومنذ أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات أصبحت العلاقات بين الغرب ممثلا بالولايات المتحدة الأمريكية والدول الآسيوية، عدائية بشكل متزايد. إذ صرّح الأمريكان من جهة والصينيين واليابانيين من جهة ثانية بأنّ هناك حروبا باردة تدور بينهما. وقد بدأت هذه التوجّهات في العصر الحديث خاصة في عهد إدارة "جورج بوش" الأب Jeorge BUSCH وتصاعدت أكثر في عهد إدارة "كلينتون" CLINTON وحتى منتصف التسعينيات كانت العلاقات الأمريكية بدول حضارة الشرق الأقصى وعلى رأسها الصين واليابان، توصف على أنها متوتّرة [3].

وقد شهدت سنة 1991م نقطة تحوّل حاسمة في خروج الرأي العام للحضارتين من قبر الحرب الباردة، وذلك بعدما وضعت الولايات المتحدة الأمريكية دولة آسيوية هي اليابان، في مرتبة متقدّمة كخطر على الأمن الأمريكي. ونفس الشيء حدث بالنسبة لليابانيين الذين وضعوا الولايات المتحدة الأمريكية قبل الإتحاد السوفيتي سابقا كخطر على أمن اليابان، وذلك بعد ظهور جيل جديد من القيادات السياسية في اليابان، جيل شعاره الأوّل هو النجاح الاقتصادي الياباني الباهر.

أما بالنسبة للصين فالهوة تزداد اتساعا، إذ شهدت سنة 1995م الإعلان على أنّ العلاقات الصينية الأمريكية قد وصلت إلى أدنى مستوى لها منذ إقامة البلدين لعلاقات دبلوماسية سنة 1979م. إذ استنكر المسؤولون الصينيون بشدّة التدخّل الأمريكي المزعوم في شؤون بلادهم. فقد ثبت بالأدلة والبراهين أنّ الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعمل على تقسيم الصين إقليميا، وتخريبها سياسيا، واحتوائها استراتيجيا، وإحباطها اقتصاديا. وأمثلة ذلك كثيرة، أهمها سماح الولايات المتحدة الأمريكية للرئيس التايواني "لي" Lee Teng-Hui (**1923**-) بزيارة أمريكا. كما اتفقت مع تايوان على صفقة عسكرية قيمتها مائة وخمسون طائرة من صنف F-16.

- كذلك إعلانها أنّ التبت منطقة محتلة ذات سيادة.

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، **52**.

2- المصدر نفسه؛ ص، **56**.

3- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص، **358**.

- اتهام الصين بانتهاك حقوق الإنسان وحرمانها من تنظيم دورة الألعاب الأولمبية سنة 2000.
- إضافة إلى اتهامها بتصدير أسلحة كيماوية إلى إيران، وفرض عقوبات على نشاطها التجاري لبيعها معدّات الصواريخ لباكستان.
- و لم تتوقف الولايات المتحدة الأمريكية عند هذا الحد، بل هدّدت أيضا الصين أكثر بعقوبات اقتصادية إضافية وفي نفس الوقت حالت دون دخولها إلى منظمة التجارة العالمية [1].

وطالما اعتقد الأمريكيون أنّ شرق آسيا سيصبح قلب الاقتصاد العالمي، إذا فسوف يكون من المستحيل أن تتحسّن العلاقات الصينية الأمريكية وذلك لأنّ أمريكا لن تسمح بقوة مناوئة في شرق آسيا. لذلك اعتبرت الصين سنة 1993م، أكبر خطر على الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة بعد إيران.

فأهم مجال لتصادم الحضارتين هو النمو الاقتصادي الشرق آسيوي الذي غيّر ميزان القوى وتأكيد الآسيويين بشكل متزايد على صلاحية قيمهم ومؤسساتهم وتفوّق ثقافتهم على الثقافة الغربية.

في حين يفترض الأمريكان أنّ قيمهم ومؤسساتهم هم هي الصالحة عالميا، وتحكّمهم في تشكيل السياسات الخارجية والداخلية للمجتمعات الآسيوية.

فتوجّهات الحضارة الآسيوية تتعارض مع سيادة الحرية، والمساواة، والديمقراطية، والفردانية في المعتقدات الأمريكية، والميل الأمريكي الدائم لعدم الثقة بالحكومات عبر العالم، ومعارضتها، وتنمية الشيكات والحسابات، وتشجيع المنافسة. إضافة إلى تقديس حقوق الإنسان المزعوم، وتناسي الماضي، وتجاهل المستقبل، والتركيز المفرط على المكاسب الآنية[2].

«مصادر الصراع هذه موجودة في الاختلافات الأساسية في المجتمع والثقافة، وهذه الاختلافات لها نتائج معيّنة بالنسبة للعلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية والمجتمعات الآسيوية»[3].

ويخلص توينبي بهذا إلى أنّ هناك قانونا يتحكّم في كل الصدامات بين أي من المدنيات وفحواه أنّ التكنولوجيا الغربية بعد فصلها عن المسيحية الغربية لم تقبلها الصين واليابان وحدهما فقط بل روسيا والبلاد الإسلامية وغيرها من المدنيات التي استفادت من الثورة الغربية في هذا المجال، حيث رفضت حين قدّمت على اعتبارها جزءا لا يتجزّأ من أسلوب واحد للحياة لا ينقسم بدون استثناء المسيحية الغربية أيضا[4]، وذلك لأنها دائما تجعل الهدف السياسي في المقدّمة. فالمسيحية الغربية، أثرّت بشكل أو بآخر على حضارة الشرق الأقصى وتمكّنت من أن تضيفها إلى قائمة الحضارات السالفة الذكر.

وخلاصة القول أنّ الغرب فعلا هو أكبر المعتدين عبر تاريخ هذه الحضارات، فليس هناك أكثر من كل هذه الأدلة التاريخية لإدانته إنّ تاريخ هذه الحضارات الأربع شاهد على ذلك. ومنه فحكم توينبي قائم على

1- المرجع السابق؛ ص ص، 360-361.

2- المرجع نفسه؛ ص ص، 362-364.

3- المرجع نفسه؛ ص، 364.

4- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص ص، 57-58.

حقائق تمتد امتداد الجغرافيا، فهو إذا ليس اتهاما من العدم انّه عين الحقيقة.

ويرى توينبي أنّ التراث الروحي المشترك بين المسيحيين والمسلمين قد جاء من مصدرين أحدهما من اليهود والآخر من اليونان، لذا وجب أن نسمّي هذا المجتمع المسلم المسيحي بالمجتمع اليوناني اليهودي، بقصد التمييز بينه وبين كل من المجتمع الهندي في الهند والمجتمع الكونفوشي البوذي في الشرق الأقصى. لذا فعند المقابلة بين أسلوب الحياة الإسلامي المسيحي إجمالا وبين الأسلوب الهندوسي أو أسلوب الشرق الأقصى نجد أنّ **«الاختلافات في داخل أسرتنا الإسلامية المسيحية أو بين العالم المسيحي الأورثدوكسي الشرقي والعالم المسيحي الغربي أو بين أي من هاتين المسيحيتين والإسلام، تختفي على العيان. ومع ذلك فإننا نعلم أنّ هذه الخلافات الثقافية الصغيرة نسبيا يمكن أن ينتج عنها اضطرابات روحية عنيفة في نفوس أبناء إحدى مدنياتنا اليونانية اليهودية الشقيقة هذه عندما تقع هذه النفوس تحت الإشعاع الروحي لإحدى المدنيتين الأخريين لأسرتنا»**[1]. وكأنّه هنا يفصل بوضوح بين ديانات التوحيد وديانات الأوثان. لكن الواضح من هذا أنّه يريد الحوار والتوحيد بين الحضارات الحالية المتبقية عن الحضارات القديمة المنقضية، ذلك أنّ حوار الحوارات هو **«اكتشاف غائيات أخرى للتنمية، والوصول إلى تعريف آخر لمعنى التطور والنماء»**[2]، للحضارة الإنسانية ككل. والذي من شأنه أن يكفل التقدّم اللامحدود القائم على قابلية البشر اللامحدودة لبلوغ الحياة الإنسانية درجات الكمال[3].

2- المبحث الثاني: توينبي ومستقبل المسيحية

عندما تنتقل ديانة معينة إلى مجتمع ما فإنها تنقل معها بطبيعة الحال كل ما تنطوي عليه من صفات سواء أكانت هذه الصفات حسنة أم قبيحة. وعلى سبيل المثال ينقل الدين الكثير من التسامح **tolérance** والتعايش وقبول الآخر، كما من شأنه أن ينقل معه أيضا بعضا من الصفات التي لا يمكن للشعوب المقبل عليها قبولها لتشويهها لصورة الدين أولا ولتزولها به إلى الدرجات الدنيا ثانيا، مثل التعصّب الديني **fanatisme**.

وذلك راجع إلى أنّه يمكن أن تتمخّض عن هذا التعصّب ذاته أمور أخرى خطيرة على الحضارة، كالقومية مثلا. وتضم الحضارة المسيحية الغربية كل هذه النقاط الجوهرية، ويضم الدين المسيحي كذلك الكثير من التسامح ولكن أيضا من التعصّب. على أنّ ما يصطبغ به العالم المسيحي الغربي اليوم هو جو من الفراغ الروحي فضلا عن الأزمات الأخرى المختلفة الميادين التي يتخبّط فيها.

فكيف يعرض توينبي للدور الذي لعبه كل من التسامح والتعصّب المسيحيين، ناهيك عن القومية في الحضارة المسيحية الغربية ؟ أو إلى أي مدى أفادت هذه العناصر الحضارة المعنية ؟

1- المصدر السابق؛ ص، 45.

2- روجيه غارودي؛ في سبيل حوار الحضارات، ترجمة: عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط3، 1986، ص، 260.

3- جان جاك شوفالييه؛ تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: محمّد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص، 544.

2-1- التسامح و التعصّب الديني عند توينبي:

لقد عانى المجتمع الإنساني عبر تاريخه الطويل من الوقع المرير والأثر السيئ للصراعات الدينية التي غالبا ما تمخّضت عن حوادث مؤسفة وصلت إلى حد المذابح الجماعية والتصفيات العرقية. وما زالت هذه الصراعات و المشاحنات الناجمة عن اختلاف الأديان، تسفر عن مواجهات خطرة بين البشر في أرجاء شتّى من عالمنا المعاصر.

وإذا تمعّنا في فحص دوافع هذه الصراعات، لوجدنا أنها تعود في الأعم الأغلب إلى الحقد والكراهية والرفض التام، الذي تحمله طائفة أو ملّة دينية معيّنة ضدّ طائفة أو ملّة أخرى. مما استوجب على الأديان كالمسيحية مثلا أن تخلق نوعا من التعامل، تجد من خلاله الطريق إلى التقارب. إنّه التسامح**tolérance** الذي أوجد لمواجهة التعصّب.

فكيف يبيّن لنا توينبي ما أسداه التسامح والتعصّب الديني المسيحي للحضارة المسيحية الغربية ؟

أ- التسامح الديني:

إنّ التسامح أولا معناه التساهل، ولكنه لا يعني أن نتخلى عن معتقداتنا أو لا ندعو إلى ما نراه عندنا صوابا أو لا ننفر مما نراه عند الآخر خطأ وباطل.

إنّه الامتناع عن غصب الآخرين على اعتناق موقفنا أو قهرهم على التخلي عن آرائهم ومواقفهم، أو الاستهزاء بنظرهم إلى الأمور أو القدح فيها... إذ يوجب التسامح الاحترام، أي احترام آراء الآخرين وترك لهم حرية التعبير والاعتقاد.

وذلك لأنّ اللاتسامح هو منهج المتعصّبين وغاية المستبدّين، إذ كلما وجد اللاتسامح وجد الاضطهاد الديني خاصة[1].

يقول توينبي، في محاولة لإظهار ما أفاد به التسامح الديني المسيحي الحضارة الغربية : «**إنّ التسامح الديني كان أوّل محاولة للحفاظ على كيان المجتمع الغربي المتدهور**»[2]. وذلك أنّه نتاج الحروب الدينية التي قامت في القرن السادس عشر، إذ كان لا بد من إيجاد حل لإنقاذ الحضارة بعد هذه السلسلة المريرة من الحروب وكان أقرب الحلول هو محاولة دينية، تمثّلت في خلق جو من التسامح.

ويبيّن توينبي، أنّ هذا الانتصار المسيحي الذي أحرزته حركة التسامح في الميدان الديني خلال عدة أجيال متلاحقة، قد أعطى العالم المسيحي الغربي المريض فرصة للانتعاش. وذلك لأنّه قد سمح له بأن ينعم ببعض الراحة علّ في ذلك فرصة لاستجماع القوى، والتمكّن من التغلّب على بؤر التوتّر القائمة كونها المتسبب الرئيسي في نشوب الصراعات [3]، بالاعتماد على هذا الحل إذا والمتمثّل في المسيحية.

1- عبد المنعم الحنفي؛ المعجم الشامل-المصطلحات الفلسفية-، ص، 193.

2- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 15.

3- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

ويعود ذلك إلى نجاح الديانة المسيحية منذ البداية في إزاحة كل الأعباء عن كاهل الإنسان وإيضاح طريق الخلاص والتكفير عن الذنوب. ولعلّ هذا التسامح الذي أظهرته المسيحية كان مجلبة لها للسخرية من جانب الوثنية خاصة. إلا أنّ الناس في فترات الاضطراب والقلق، كانوا يجدون في القدّاس الإلهي راحة كبيرة عقلية ونفسية. وذلك لأنّ باب المسيحية قد فتح على مصراعيه أمام معتنقيها فلم تعمل على التفرقة العنصرية، إنما على لم كل الأطراف المتفرّقة للمجتمع التي تغلغلت فيه ومعاملة الجميع المعاملة نفسها، سواء أكانوا أشرافا أم عبيدا أم مجرمون تائبون[1]. وذلك لأنّ علاقة كنيسة الله بدولة البشر علاقة تدعو في جوهرها نحو التعايش السلمي[2].

ومن معالم التسامح الديني المسيحي في الغرب، يذكر لنا توينبي أعمال "ليوبولد الأوّل" Léopold Ier ملك هنغاريا... وهو كاثوليكي. ففي سنة 1790م، منح هذا الملك جميع المسيحيين الحرية الدينية. وفي سنة 1795م رحّب بجماعة حربية مسيحية أرثوذكسية شرقية [3]، كانت قد لجأت إلى بلاده. كما يمكننا أن نلمس هذا التسامح خاصة في أعمال القدّيسين من أمثال "جوستن مارتير" Justin Martyr **(100-165)** الذي يعدّ من أوائل المفكرين المسيحيين الذين حاولوا التوفيق بين كل الأقطاب الفكرية خاصة منها الفلسفية [4].

لكن يعود توينبي ويؤكّد أنّ هذا الجو لم يكن إلا وقتيا. أي فترة الهدوء النسبي هذه لم تكن إلا فترة عابرة. ويستدّل على ذلك بدراسته الشاملة التي أثبت فيها أنّ كل انهيار قد تبعته محاولة للنهوض، يقول: «**و هذا يجعلنا نستطيع أن نقول أنّ هناك ترديا رتيبا يسير عليه التاريخ ويمكّننا من تفسير الوضع بواسطة بعض عناصر الضعف التي شوهت الاتحاد المفقود**»[5]. ويتساءل توينبي هنا مباشرة – في محاولة لإيجاد حل ما – إذا ما كنا نستطيع أن نجد في الغرب ملامح معالجة لهذا الميل للانهيار ؟

ويجيبنا عن ذلك بقوله: «**إنّ مبدأ التسامح في الغرب المعاصر لم يستطع في النهاية أن يأتي بالخلاص لأنّه لم يكن مبدءا سليما في أساسه**»[6]. وهذا إقرار واضح من توينبي على أنّ التسامح الديني المسيحي لم يأتي بحلول دائمة من شأنها أن تنقذ الحضارة الغربية من الأفول الوشيك، بل كانت حلوله المقدّمة حلولا وقتية.

وفيما يعمّم توينبي التسامح الديني المسيحي، أي أنّه لم يخص به فئة معيّنة، نجد "جون لوك" John LOCKE **(1632 - 1704)** يحذّر من التسامح مع من ينكرون وجود الله أي الملحدين، وذلك لأنهم لا يبدون أي احترام لروابط المجتمع الإنساني[7].

1- ماهر القادر محمّد وحربي عباس عطيتو؛ دراسات في فلسفة العصور الوسطى ، ص ص، 259-260.

2- زينب الخضيري؛ لاهوت التاريخ عند القدّيس أوغسطين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1992، ص، 188.

3- آرنولد توينبي؛ تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ص، 226.

4- ماهر عبد القادر محمّد وحربي عباس عطيتو؛ المرجع نفسه، ص، 283.

5- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 15.

6- المصدر نفسه؛ ص، 16.

7- جون لوك؛ رسالة في التسامح، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص، 113.

لكن يعارض توينبي "لوك" في أنّ المسيحية جاءت لتتسامح مع كل البشر فوق الأرض وإن هي تصرّفت على هذا النحو، فذلك سيسبّب لا محالة التحريض على المشاكل والنعرات الطائفية. وأبرز مثال يستدل به توينبي في هذا الموضع، أنّه في الصين مثلا، قد نجح المبشّرون المسيحيون في مهمّتهم التبشيرية لكن كان ذلك بشكل مؤقت، لأنهم لم يعارضوا أن يحتفظ الصينيون - وهم وثنيون لا يؤمنون بإله سماوي وفيهم الملحدون- بطقوس احترام الموتى، باعتبار أنّ هذا الأمر أمر مدني ليس له علاقة بالدين.

لكن السلطات الكاثوليكية، اعترضت على هذا أشدّ الاعتراض... فنشب بالتالي خلاف مع الحكومة الصينية، انتهى بحضر المسيحية في الصين نهائيا [1].

ومع أنّ الحكام الكاثوليك قد تسامحوا مع اليهود ومع البروتستانت فيما بعد[2]. إلا أنّ خسارة الشرق الأقصى لم تعوّض.

نقرأ في هذا مع توينبي، فشل التسامح الديني المسيحي في أن يكون نقطة تحوّل إيجابية لصالح الحضارة الغربية، وذلك لإثباته بأنّه مجرّد مرحلة انتقالية لفترة اضطراب جديدة.

ويواصل توينبي استدلاله على فشل هذا التسامح الديني المسيحي، بقوله بأنّ مبادئه «**التي وضّحت مفهومه وأظهرته إلى عالم الوجود، كانت الخيبة والشك لا الإيمان والأمل والطيبة، لقد كان الدفع سلبيا لا إيجابيا، وقد غرست بذوره في أرض قاحلة**»[3]. وهذا يعني أنّه لا مبادئ هذا التسامح حملت الحل، ولا المجتمع الذي أريد لها أن تكرّس فيه كان ذا المعطيات التي من شأنها أن تجسّد هذه المبادئ الغير صحيحة في أساسها. ونتيجة هذا واضحة إنها العودة إلى التوتّر.

وهذا ما دفع العديد من المفكرين إلى التساؤل عن إمكانية القول بأنّ الكنيسة وهي **بيت الله** الذي يتآلف فيه الجميع ويتعايشون، كانت أبوابها مفتوحة أمام الجميع لمنحهم الحماية والمأوى والعدل والأمن والسلام... ؟

فالرد بالإيجاب على هذا التساؤل أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد، والسبب في ذلك ازدياد الارتداد عن المسيحية في أجزاء كثيرة من جنوب أوروبا ووسطها خاصة ممّن رفضوا تقبّل حماية المسيحية أو الاعتراف بالكنيسة على أنها صورة من بيت الله على الأرض[4].

1- آرنولد توينبي؛ تاريخ التربية، الجزء الثاني، ص، **227**.

2– LOEW (Jacques) et MESLIN (Michel), Histoire de l'Eglise par Elle-même, p. 396.

3- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، **16**.

4- ج،ج، كولستون؛ عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص، **29**.

وهذا ما يصل إليه توينبي في قوله: **«إننا نرى الآن مبدأ التسامح الذي اكتشفناه في القرن السابع عشر، يستسلم في القرن العشرين دون قيد أو شرط»**[1]، ويوضّح أنّ سبب هذا العجز المأساوي المعروف تماما هو فقدان الروح الدينية الخالصة.

هكذا يثبت التسامح الديني المسيحي ضعفه، وكذلك فقدانه **«سلطته على قلوب الغربيين لأنّه لم يرتكز إلى الإيمان»**[2]، وبالتالي قد شوّه صورة الدين المسيحي وبدوره يسيء إلى الحضارة المسيحية الغربية.

ويقصد توينبي بالإيمان هنا، الإيمان الحقيقي القائم على التمسّك بالقوة الروحية دون المادية، السماوية لا الوضعية. وبالتالي تجسيد دور الدين فعليا في المجتمع وهذا ما عجز عن تحقيقه التسامح الديني المسيحي الغربي.

هذا التسامح المزعوم غطى كما يقول توينبي: **«شكليا، قلوبنا المسيحية الغربية المعاصرة الصخرية بغذاء فجائي من النضرة الطازجة بعد شروق شمس التعصب الديني اللافحة، قد استهلك وتحول إلى هباء بشكل فجائي غير منتظر أيضا عندما أشرقت عليه شمس أقوى»**[3]، ويقصد بذلك شمس التعصّب القومي المحرقة.

وبما أنّ التسامح لا يمكن فهم مراميه بالضبط إلا في مقابل التعصّب. فما التعصّب الذي يتحدث عنه توينبي ؟

ب- التعصّب الديني:

جاء في موسوعة مصطلحات جامـــع العلوم، أنّ التعصّب **fanatisme** هو باختصار عدم قبول الحق عند ظهور دليله [4]، أي الميل إلى جانب معيّن وعدم محاولة الفهم والاقتناع بما يبديه الموقف المقابل.

وقد بيّن لنا توينبي ما يمكن من خلاله أن نفهم أنّ التسامح الديني المسيحي الغربي، كان الفترة الفاصلة بين التعصّب الديني ونتيجته الحروب الدينية، والتعصّب القومي الذي تلاه ونتيجته الحروب القومية التي هزّت كيان المجتمع الغربي وسارت بالحضارة المسيحية الغربية إلى الوضعية التي هي عليها اليوم.

فقد طرد التسامح المسيحي التعصّب الديني البغيض وبالتالي الحروب الدينية الناتجة عنه من المكان الذي كانت تحتله، ولكن هذا المكان بقي فارغا، متيحا بذلك الفرصة وممهّدا لجو مناسب لقيام تعصّب من نوع آخر إنّه التعصّب القومي ومعه الحروب القومية [5].

1- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، **16**.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

4- القاضي الفاضل عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري؛ موسوعة مصطلحات جامع العلوم الملقب بدستور العلماء، تقديم: رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط**1**، **1997**، ص، **269**.

5- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، **16**.

ويوضّح "سفيان ابن الشيخ الحسين" أنّه من نتائج هذا التعصّب الكنيسي – إن صحّ القول – تولّد صراع. صراع الفرد وصراع الجماعة وصراع المجتمع العام، نفسيا واجتماعيا وعلميا... أدّى بدوره إلى صراع كبير بين العلم التجريبي والكنيسة. إذ كان العلم الزلزال الذي زلزل الكنيسة، عن طريق "شارل داروين" DARWIN **(1809-1882)** عندما قال بنظرية أصل الأنواع، وكذلك نظرية "سيقموند فرويد" FREUD **(1856-1939)** ونظرية "كارل ماركس" في الاقتصاد وغيرها ...[1] انتهت بسيطرة العلم على العقول والضمائر. هكذا نشأت على أنقاض الكنيسة والدين فلسفة مادية بحتة، استمدت وحيها من الأرض ومن واقع الحواس. فلا ترتفع ببصرها ولو مرة واحدة إلى السماء وعن طريق هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغربية كالشيوعية وغيرها... وما أضرّت به المجتمع الإنساني ككل.

وإضافة إلى هذا الموقف، يعتبر "شكيب أرسلان" التعصّب الديني مرضا استعصى علاجه، إذ لا يلتزم هذا التعصّب بتطبيق معتقده عند حدود الإيمان، بل يتحوّل إلى دفاع هجومي يختلط فيه الحق بالباطل مستهينا تماما بالعقائد المقابلة [2]. وهذا ما نوّه إليه توينبي منذ البداية، أي العواقب الوخيمة التي تنتج عن هذا التعصّب وإضرارها بطبيعة الحال بالحضارة المسيحية الغربية. فهو أقرب إلى الإرغام الديني الذي هو ضدّ التسامح. ويغفل توينبي في هذه النقطة موقف الإسلام الإنساني المنصف وبعده عن التعصّب، لقوله تعالى: **«لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي»**[3]، وقوله أيضا لمحمّد عليه الصلاة والسلام: **«فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمصيطر»**[4]. إنّ هذه الآيات الكريمة توضّح بجلاء، مرونة الإسلام وديمقراطيته وتعايشه مع الأديان الأخرى بسلام وأمان وتبادل منافع [5]. فالإسلام يسمح بعيش الناس تحت سلطته مع احتفاظهم بدينهم وقوانينهم الخاصة [6]. غير أنّ توينبي يضيف مثالا عن شخصيتين مسيحيتين تسببتا في نشوب الحروب التي تنتج عن التعصّب الديني، وهما "دوق آلب" Duc d'Albe و"غوستاف أدولف" Gustave Adolphe (*) إذ يقول: **«إننا نستطيع أن نجزم أنهما كانا سيشعران بالخجل لو قدّر لهما أن يبعثا من جديد ليكونا شادين على الحروب القومية التي تلت الحروب التي قاما بها... حروب القصد منها الحصول على سلطة سياسية ومنافع اقتصادية»**[7]، كما سعت الحروب الدينية للحصول على السلطة الدينية المطلقة.

1- سفيان ابن الشيخ الحسين؛ بين الدين و الفلسفة و العلم هل هناك تعارض ؟، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، الجزائر، دط، دت، ص، 85.

2- شكيب أرسلان؛ مختارات نقدية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص، 21.

3- القرآن الكريم؛ سورة البقرة، الآية، 256.

4- سورة الغاشية؛ الآية، 21- 22.

5- إحسان محمّد الحسن؛ علم الإجماع الديني: دراسة تحليلية حول العلاقة المتفاعلة بين المؤسسة الدينية والمجتمع، دار وائل للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2005، ص، 110.

6- موسى معيرش؛ النظام السياسي في اليهودية والإسلام بين النظرية والتطبيق، مكتبة إقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2007، ص، 182.

(*) دوق آلب و غوستاف أدولف من زعماء الكاثوليكيين الفرنسيين الذين قادوا حملة الإرهاب ضد البروتستانت في فرنسا، راجع آرنولد توينبي، حرب وحضارة، ص، 18.

7- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 18.

ونصل مع توينبي للقول بأنّه: «**يصعب على أذهان الغربيين أن يفهموا تعايش أكثر من دين واحد في مجتمع واحد لأنّ ديانة الغرب السلفية وهي المسيحية، كانت هي الأكثر تعصّبا بين الأديان الإبراهيمية الثلاث... وكان تحوّل الشعوب الغربية إلى مثال التسامح الديني وممارسته، الأمر الذي هو الوجه السلبي لرد فعلها في القرن السابع عشر على الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء**»[1].

فالتعصّب سلاح ذو وجهين لأنّ بإمكانه تعزيز الشعور بالانتماء إلى ديانة معيّنة غير أنّه يتحوّل بموجب هذا الشعور إلى مصدر إساءة سرعان ما يسبب الرفض والنفور لا بل والاعتداء وبالتالي الحرب. لذلك آثرت الحضارة الغربية اليوم العلمانية في محاولة للتخلّص من الدمار الذي يتسبب فيه التعصّب الديني.

لم ينجح إذا التسامح والتعصّب الديني في المسيحية من خدمة الحضارة الغربية، لا بل كانا عاملين هدامين لقواعدها وأسسها، فلا التسامح طبّق على أصوله ولا التعصّب كان يجب أن يكون له مكان فيها. ولكنّهما احتلاّ من حياة الحضارة المسيحية الغربية الشيء الكثير الذي لو وظّف إلى صالحها كان يمكن أن يكفل لها دوام القوة وليس الإنذار بالأفول.

1- آرنولد توينبي ودايساكو إكيدا؛ التحدّيات الكبرى: الحياة والدين والدولة – حوار، ترجمة: محمود متقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، دط، **1999**، ص، **373**.

2-2- المسيحية الغربية و فكرة القوميـــة:

إنّ القومية **nationalisme** أولا، هي اعتقاد يجمع أفراد الشعب الواحد أنهم يؤلفون مجموعة سكانية متميّزة عن غيرها من المجموعات الأخرى، لها لغتها الخاصة بها وكذا ديانتها المشتركة وتاريخها. وكذلك على أنها وحدة اجتماعية تملك أعرافها وفلسفتها وثقافتها الخاصة بها.

وإن رأت هذه المجموعة مقوّماتها هذه مهدّدة، تطلب الاستقلال الذاتي حتى وإن كانت داخل دولة واحدة كالباسك Basque في إسبانيا، وإلا الانفصال الكامل كالأيرلنديين الشماليين في أيرلندا.

واليهود تجمعهم قومية واحدة مع العلم أنهم مشتّتون، إذ لم يكن لهم أرض ولا دولة، لكن بعد قيام إسرائيل Israël فإنّ اليهودي يبدي لها الولاء أولا ومن ثمّ أمريكا.

وقد أضاف الإسلام بعدا جديدا للقومية هو البعد الديني، إذ تحدث الرسول عليه السلام عن أمة الإسلام رغم تعدد أجناسها [1].

وأما المقصود بالقومية حاليا فهو مجموع الدول القومية الحديثة، التي نشأت على أساس الدين المسيحي، وتتّخذ مثل هذه القوميات شكلا شبيها بعقيدة دينية تحل محلّها جزئيا على الأقل وتلعب دورا مماثلا إلى حد كبير [2].

ويعرّف توينبي القومية على أنها البديل الثاني عن الديانة الغربية التقليدية، المسيحية، فهي عبادة ولكن ليس لله الواحد إنما للقوة الجماعية لجماعة بشرية محلية تمتاز بالتنظيم المحكم. يقول: «**والقومية، خلافا للإيمان بالتقدّم من خلال العلم ليست دينا جديدا. إنها إحياء لدين قديم. إنّه دين دول المدينة في العالم اليوناني- الروماني ما قبل المسيحي. وقد جرى إحياؤه في الغرب في عصر النهضة، وكان هذا الإحياء للدين اليوناني- الروماني السياسي أشد تأثيرا بكثير من إحياء أسلوب اليونان والرومان في الأدب والفن البصري والعمارة**»[3]. وهذا يعني أنها احتلت مكان الدين المسيحي في العالم المسيحي الغربي أو بالأحرى مسيحية أخرى غير تلك التي تنسب للسيّد المسيح ولا حتى للتي دعا إليها القدّيس بولس، وتقوم على عبادة الإنسان أو الدولة.

فهذه القومية الغربية الحديثة التي أوحت بها إذا المثل والأعراف اليونانية- الرومانية، يقر توينبي أنها ورثت«**دينامية المسيحية وسعارها**»[4].

وتتميّز هذه القومية الغربية الحديثة nationalisme occidentale بالصبغة الجماعية التي تقابل الصبغة الاسبرطية (الحربية) في وطنية مدينة الدولة اليونانية القديمة. إنها تنظر للفرد على أنّه مجرّد جزء من

1- عبد المنعم الحنفي؛ المعجم الشامل-المصطلحات الفلسفية-، ص، 660.

2- سمير أمين وبرهان غليون؛ حوار الدولة والدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996، ص، 22.

3- آرنولد توينبي؛ التحدّيات الكبرى، ص ص، 375- 376.

4- المصدر نفسه؛ ص، 376.

الجماعة، فتنكر بذلك العلاقة الموجودة بين النفس والله، وهذه استعاضة واضحة عن عبادة الله بعبادة المجتمع الإنساني. لكن من الخطأ عبادة نظام من صنع الإنسان لأنّه سريع الزوال، خال من الكمال، يجلب السير عليه الشر ولا شيء غير[1].

ورغم أنّ المسيحية الأولى قد رفضت بإصرار وعناد هذا النوع من عبادة العملاق عندما تحدّت قوة الإمبراطورية الرومانية التي كان ينظر إليها على أنها القوة التي لا تقاوم، إلا أنها اليوم قد انصاعت لذلك.

لكن توينبي يوضّح بأنّ هناك عنصرا من الحقيقة يكمن وراء الاعتقاد الخاطئ الذي يعتبر أنّ المجتمع هو غاية الإنسان وأنّ هذا الإنسان ليس سوى وسيلة لتلك الغاية، يقول: «**وهذه الحقيقة الكامنة هي أنّ الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع أن يبرز القوى الكامنة في نفسه إلى حيز الفعل إلا بالخروج عن نطاق ذاته والاتصال بغيره من الكائنات الروحية. ويقول المسيحيون بأنّ أهم اتصالات النفس هي اتصالها بالله**»[2].

ولقد نجحت العديد من الدول في التخلّص من سيطرة الغرب السياسية، وتم ذلك بالتحصّل على الاستقلال السياسي بطبيعة الحال، بعد عهود طويلة من الكفاح والنضال المستمرين من أجل طرد الاستعمار وتطهير الأرض المستعمرة.

وبعد الانتصار السياسي سعت الدول للحصول عليه في ميادين أخرى، اجتماعية، ثقافية، اقتصادية... غير أنّ الذي حدث كان على العكس من ذلك، إذ اتجهت جموع هذه الدول إلى الأخذ المباشر للمدنية المسيحية الغربية، ذلك أنها كانت الأكثر قوة وهيمنة وبسطا للنفوذ.

ويؤكّد توينبي أنّ هذا الجزء الغير غربي من العالم قد تقبّل هذه المدنية المسيحية الغربية من دون محاولة التمييز بين ما هو نافع أو ما هو ضار فيها. يقول: «**وهذا من سوء الحظ، لأنّ المدنية الغربية شأنها شأن أي مدنية أخرى، فيها أوجه نافعة وأوجه ضارة**»[3].

ويرى توينبي أنّ الأمر الذي يتعيّن على هذه الشعوب أن تقوم به هو«**خلق مدنية عالمية مشتركة بيننا جميعا**»[4].

ويتحقّق ذلك بعزل العناصر الحسنة عن السيئة في كل مدنية ومن ضمنها الغربية. وهذا يتوافق إلى حد كبير مع ما قال به "ألبرت اشفيتسر" من وجوب بدل الجهود«**من أجل كفالة إصلاح النمط الإضافي و الوصول إلى ارتقاء الحضارة الذي فيه تصبح روح العالم شاعرة بنفسها على درجة متزايدة**»[5].

1- الحضارة في الميزان؛ ص، 202.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- من الشرق والغرب؛ ص، 37.

4- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- ألبرت اشفيتسر؛ فلسفة الحضارة، طبعة 1997، ص، 324.

وعلى حد تصوّرهم أنّ هذه المدنية العالمية «**ستكون جامعة للعناصر الطيبة من كل المدنيات السابقة، ولن تكون مجرد تكرار أو نسخة طبق الأصل من المدنية الغربية الحالية، ولو أصبحت كذلك لكان هذا أمرا يدعو إلى الأسف حقا. إذ يعني أنّ هذه المحاولة من أجل خلق مدنية عالمية ستبوء بالفشل**»[1].

والسبب في هذا النقد الصريح من توينبي لهذه المدنية الغربية، هو أنّ إحدى خصائص أسلوب الحياة المسيحية الغربية هو صفة التعصّب.

وهذا يعني أنّ القومية المسيحية الغربية الحديثة قد تولّدت عن هذا التعصّب الديني المسيحي الغربي، فكيف كان ذلك ؟

يرى توينبي أولا، أنّ هذا التعصّب يتجاوز حدود الغرب المسيحي، إذ يعدّ نتاجا من نواتج عقيدة التوحيد كون المؤمنين بهذه العقيدة في العالم كثيرون، من مثال ذلك التعصّب الإسلامي والتعصّب البوذي، يقول: «**إنّ الدين بصورته التقليدية، أعني المسيحية التقليدية قد تضاءل نفوذه في الغرب خلال القرون القليلة الأخيرة، نتيجة لسيطرة العلم على الحياة**»[2].

ومعنى هذا، أنّ المسيحية التي يؤمن بها توينبي غير المسيحية الحالية، إنها المسيحية الأولى التي وضعت القيم الروحية في المقام الأعلى، أما الذي يحدث الآن في العالم المسيحي الغربي هو أنّ هذه المسيحية الجديدة قد استعاضت عن تلك التعاليم السماوية بأيديولوجيات من وضع الإنسان.

ويؤكّد صحة ذلك "يوسف الحوراني" بقوله: «**نجد التعصّب القومي والفاشي والنازي اليوم، لم يخرج عن كونه مظهرا دينيا جديدا يوافق تطوّر اليقين الإنساني المعاصر... من أهدافه الرئيسية اقتطاع فكرة من المضامين الدينية والقضاء على فوضوية قوى الغيب التي دخلت إلى الأديان بفعل تراكم التقاليد والتفاسير**»[3].

ويحدّد "يوسف الحوراني" موقف الإسلام من هذه النقطة وهذا ما لم يبيّنه توينبي في أنّ الدين الإسلامي على غرار هذه الأديان بقي محتفظا بفعالياته في عموم المجتمعات الإسلامية، ويرجع ذلك إلى رعايته لقضايا الأرض كما يرعى قضايا البعد الآخر للإنسان. إذ لا نجد بينه وبين يوميات الحياة الإنسانية ذلك الافتراق الذي نجده في المسيحية. إنما يعالج الإسلام جميع قضايا الحياة، وفضل كبير من هذا يرجع إلى نزول رجال الدين في الإسلام للمجتمع و محاولاتهم معالجة قضاياه من خلال تجاربهم الشخصية ولذلك أثر كبير في بقاء الحس الديني حيّا بين الناس[4].

1- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، 44.

2- المصدر نفسه؛ ص، 44.

3- يوسف الحوراني؛ الإنسان والحضارة، ص، 50.

4- المرجع نفسه؛ ص ص، 51-52.

أما دليل توينبي فيبرزه في قوله: «**إنّ التعصّب الذي كان مقترنا بالمسيحية الغربية والذي كان سبب الحروب الدينية بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين في الغرب، قد انتقل إلى مجال جديد يمكننا أن نسميه مجال الأيديولوجيات اللاحقة للمسيحية**»[1]. والتي تعدّ إذا القومية المسيحية الغربية الحديثة إحداها. وهو بقوله هذا يقر بأنّ القومية قد ورثت التعصّب عن المسيحية وتسعى للسيطرة على العالم.

وينبّه إلى ذلك "صمويئل هنتنغتون" الذي يبين أنّ الغرب المسيحي وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية هو أمة تبشيرية، بمعنى أنه – الغرب – يعتقد تمام الاعتقاد أنّ شعوب العالم الغير غربية لا بد لها وأن تنصاع للأحكام الغربية، خاصة فيما يتعلّق بالديمقراطية والأسواق الحرة والحكومة المحدودة وحقوق الإنسان.. ولكن الأقليات في الحضارات الأخرى تتبنى اليوم – العهد المعاصر– هذه القيم، والتي يظن الغرب أنها عالمية [2].

إنّ المسيحية هي من دون شك من قوّمت القومية المسيحية [3] ودفعتها إلى الأمام ويعود في الواقع لفكرة الحرية، فلم تعد مجرد عاطفة بل مطالبة ولا مجرد غريزة بل مذهبا فكريا [4]. إذ أنّ هذه القومية التالية للمسيحية، يوضّح توينبي: «**قد أصبحت الآن أكبر خطر يهدد الجنس البشري وهي خطر أفدح كثيرا من البكتيريا والفيروسات وإنما الكارثة على البشرية جمعاء أن تقتبس البلاد غير الغربية هذه الأيديولوجيات الغربية بحذافيرها**» [5]. ويقصد بذلك القومية والشيوعية، فروح التعصّب التقليدية الموروثة عن الأديان هي التي دفعت بالعالم الغربي منذ عهد قريب ممثّلا في الولايات المتحدة الأمريكية. وبالعالم الشرقي، ممثّلا في الإتحاد السوفيتي سابقا إلى النزاع والتناحر الذي دفعت ثمنهما شعوب كثيرة مقهورة، لم تستفد من هاتين الأيديولوجيتين بقدر ما تضررت منهما.

ويستنجد توينبي بروح شخص مثل "المهاتما غاندي" **(1869- 1948)** بسلوكه في الحياة إذ يقول: « **لقد أثبت غاندي أنّ من الممكن عمليا إحداث تغييرات سياسية واجتماعية هائلة سلمية**»[6] ويتمثّل ذلك في أنّ "غاندي" كان يوقف باستمرار حركة المقاومة الشعبية الهندية للإنجليز الدخلاء، كلما رأى أنّ كره مناصريه للإنجليز يزيد. راجيا من ذلك أن يخمد روح الكراهية لدى أتباعه، بغية القضاء على التعصّب. وفي اعتقاد توينبي أنّ ما قام به "غاندي" في هذا الصدد «**كفيل بأن يهدم الأساس الذي يرتكز عليه التعصّب**»[7]. أهم عامل قامت عليه القومية في الغرب و من العوامل الأخرى النزوع مثلا نحو التحرر والوحدة.

1- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، 45.

2- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي، ص، 294.

3- DANIELOU (Jean) et MARROU (HENRI), Nouvelle Histoire de l'Eglise, Des Origines à Saint Grégoire le Grand, p. 231.

4- نور الدين حاطوم؛ تاريخ الحركات القومية: يقظة القوميات الأوروبية، الجزء الثاني، الحرية والقومية، دار الفكر الحديث، لبنان، ط1، 1996، ص، 08.

5- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 46.

6- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

7- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

وتدفع توينبي روحه الإنسانية التفاؤلية والتي تشبه كثيرا روح "غاندي" الإنسانية كذلك إلى التساؤل عن ما ينبغي القيام به لإنقاذ الجنس البشري ؟

ويجيبنا باعتقاده أنّ أول ما ينبغي عمله، هو محاولة إيجاد حل على المستوى الفكري ويتحقّق ذلك بأن نتعلم أن نفكر ونشعر ونسلك، ليس على مستوى ذواتنا فحسب إنما أيضا على مستوى الجنس البشري بأكمله، بدلا من الاستمرار في التفكير والشعور والسلوك على مستوى أجزاؤه القومية [1].

وذلك لأنّ الغرب يحاول جاهدا أن يجمع اقتصاد المجتمعات الغير الغربية عبر العالم في نظام اقتصادي عالمي يسيطر هو عليه، متخذا وسائلا كثيرة كصندوق النقد الدولي FMI وغيره من المؤسسات الاقتصادية الأخرى ذات الوزن العالمي. فينمّي عن طريقها مصالحه الاقتصادية فارضا على دول العالم كلّها السياسات التي يراها ملائمة [2].

بالإضافة إلى التحكّم المحكم في التكنولوجيا. لكن وبما أنّ هذا الكل قد وحّد الجنس البشري من الوجهة المادية، فمن الوجهة الروحية يتأسّف توينبي: «**فنحن لا نزال نعيش في العالم القديم، عالم الأمم المستقلة المنفصلة ذات السيادة المطلقة**»[3]. وهذا يعني استمرار الروح القومية، ذلك أنّه يجد التفكير السياسي للأقلية المتقدّمة تكنولوجيا في العالم ما يزال على نفس الدرجة من التخلّف التي يتميز بها التفكير السياسي للأغلبية المتأخرة تكنولوجيا، فيعدّهم توينبي جميعا «**قوميون في عصر أصبحت فيه القومية عتيقة**»[4].

ولانقاد شعوب العالم الفقيرة على سبيل المثال، يتطلّع توينبي لأن تتحكّم في إنتاج وتوزيع الغذاء في العالم **هيئة عالمية واحدة**. قادرة بمفردها على أن تتحكّم في الدول القومية وتسحب منها بالتالي سيادتها المطلقة، فيما يتعلّق بإنتاج الغذاء وتوزيعه، يقول: «**فالقومية في هذا الميدان على الأقل هي العدو، إذ أنّه بدون تعاون على النطاق العالمي لن يستطيع العلماء أن يقدّموا إلينا مساعدة... فالعلماء يعجزون أن يفعلوا شيئا إذا انقسم العالم إلى مائة دولة أو أكثر، كل منهما تتبع سياسة قومية خاصة**»[5].

وكنموذج عن هذه الشعوب التي انتقلت إليها القومية المسيحية الغربية الحديثة، يذكر لنا توينبي مثالا من العالم الإسلامي. فالأتراك وغيرهم من الشعـــوب الإسلامية «**قد أصابتهم عدوى الروح القوميـــة بشدّة**»[6]. إذ عمل الحكم العثماني التركي على تخلخل الروح القومية العربية، وكانت نتيجة ذلك انهيار الثقافة العربية وتمزق شعوبها [7].

1- المصدر السابق؛ ص، **63**.

2- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي، ص، **294**.

3- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، **64**.

4- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

5- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

6- العالم والغرب؛ ص، **32**.

7- محمّد عزيز نظمي سالم؛ جدلية التاريخ والحضارة، ص، **129**.

ويستغرب توينبي من كيفية دخول هذا المثال الغربي المتسم بضيق الأفق إلى العالم الإسلامي، حيث الأخوة والمساواة رغم أجزاءه المختلفة من نواحي عديدة كالجنس واللغة... فتصوّر الإسلام ليس قوميا، ولكن بالرغم من أنّه دين عالمي وليس محلي قومي إلا أنّ النزعة القومية الغربية قد انتقلت إلى البلاد الإسلامية.

يقول توينبي: «**إنّ البلاد الإسلامية الأخرى لا حاجة لها أن تسير بالضرورة على الدرب نفسه الذي أناره هؤلاء الرواد الأتراك**»[1]، الذين أدخلوا منذ حوالي مائة وخمسين سنة «**النظام الغربي ذو الولايات المتجانسة المحكمة والمحددة تحديدا واضحا**»[2].

وإلى جانب هذا يبيّن أيضا تأصّل هذه القومية الغربية في المجتمع التركي، وذلك باستخدام الأسلحة الغربية واقتباس التدريب الغربي، إضافة إلى تحرير المرأة وفصل الدين عن الدولة، وهو أمر لا نقاش فيه في الماضي القريب[3]، – أي وقت ازدهار الإمبراطورية العثماني– على أنّه يمكننا أن نورد في هذا السياق بعض الحلول التي تقدّمها "فريدة غيوة حيرش" من أجل المحافظة على الموروث الحضاري العربي الإسلامي، إذ تقول: «**إنّ المجتمع العربي لا يمكنه أن يثور على الواقع المعاش (وأقصد اختفاء القومية والإتحاد بين الأمة، اختفاء التاريخ الوطني العربي وإحلال تاريخ الغرب محلّه) دون الرجوع إلى إنتاج الطبقة المثقفة**»[4].

ويكون ذلك عن طريق العودة إلى الإسلام ومن ثمّ «**ضرورة قراءة القرآن قراءة نقدية تاريخية والاستفادة منها في حل المشاكل الإنسانية**»[5]، وهذا أيضا ما لم يشير إليه توينبي رغم دراسته المعمّقة للمجتمعات عبر التاريخ.

لكن يؤكّد على ذلك "محمّد عزيز نظمي سالم" في دعوته للعالم الإسلامي بأن يخوض حربا فكرية وحضارية يكون سلاحها العلم والفكر والدين واللغة. فيتحقّق بذلك كفاح فعّال، بغية التخلص من كل الضغوط السياسية والاقتصادية والاجتماعية... والثقافية[6]. فعلى هذا النحو يشكّل الإسلام قناة قادرة على ربط الجهود العلمية المتنوعة والمتعددة، بل والتنسيق بينها لتنتج ثمرة جماعية، تتمثّل في تحقيق التوجّه القرآني داخل فروع العلم المختلفة... وبدخول القرآن إلى هذه العلوم تستفيد من وحيه في حل مشكلاتها ويحسن بذلك المتعاملون مع النص القرآني فهمه وإدراكه[7] وبالتالي إدراك حضارية الإسلام.

1- آرنولد توينبي؛ العالم و الغرب، ص، 33.

2- المصدر نفسه؛ ص، 68.

3- المصدر نفسه؛ ص، 72.

4- فريدة غيوة حيرش؛ تأمّلات في القضايا الإنسانية المعاصرة والراهنة، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، دط، 2004، ص ص، 229-230.

5- المرجع نفسه؛ ص، 232.

6- محمّد عزيز نظمي سالم؛ المرجع السابق، ص، 130.

7- نادية محمود مصطفى وعلا أبو زيد؛ خطابات عربية وغربية في حوار الحضارات، سلسلة محاضرات حول الحضارات 2، دار السلام، للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2004، ص، 258.

إذ في الإسلام ما يمكّن من مواجهة تحدّيات العصر ووجوده في حد ذاته كاشف لعيوب القومية المسيحية الغربية الحديثة ولكل القوميات التي تحدو حدوها.

فقد وجد العالم الغربي نفسه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية متقطّعا إلى العشرات من القوميات المتقوقعة على نفسها والمحاربة لبعضها البعض طوال الوقت. ويرى توينبي أنّ تقسيم العالم الغربي داخليا «**إلى نحو أربعين دولة وقومية مستقلة ذات سيادة، يهدّد بسقوط البيت المنقسم على ذاته ومع ذلك فما زال الغرب يحتل مكانة عالية تكفي لأن تجعل "فيروس القومية" يظل معديا**»[1].

ولكنه يبقى محافظا على تفاؤله في مسألة أن يتوقف هذا المرض الغربي عن تشتيت العالم، ويشير إلى العالم الإسلامي مشيدا بالوحدة التي تمكّنه من التماسك، غير أنّ الوحدة العالمية سياسية كانت أم اجتماعية « **ألزم بكثير لنا ولنجاتنا الآن في هذا العصر الذري مما كانت فيما مضى**»[2].

غير أنّ الغرب لن يتوقف عن محاولاته للحفاظ على منزلته المتفوقة، وحماية مصالحه بتقديمها على أنها مصالح **المجتمع العالمي**، ذلك أنّ هذه العبارة قد وضعت لتغطي عبارة **العالم الحر** بغية إضفاء شرعية كونية توصل مصالح الغرب إلى أهدافها المرجوة منها، وهي مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها من القوى الغربية الأخرى[3].

إنّ هذه القومية المسيحية الغربية كانت في الحقيقة ذات طابع انعزالي، «**الذي يفرض فيه المجتمع على نفسه نوعا من "الفيتو"، نوعا من المبالغة المقيتة إلى درجة الكاريكاتور للفكرة الغربية التقليدية عن وجود مجتمع قائم بذاته، وقد تدخلّت ظروف كثيرة في هذه الأيديولوجية الغربية "القديمة – الحديثة" في أمريكا الشمالية وغرب أوروبا**»[4]. كان هذا عرض توينبي لمسار القومية المسيحية الغربية.

ويعطينا توينبي مثالا عن الانقسامات العديدة التي سبّبتها هذه القومية الغربية والمتمثّلة في الانقسام الذي أحدثته في شبه القارة الهندية. فقد خلّف خروج بريطانيا من المنطقة، دولتان متنازعتان هما: الإتحاد الهندوسي الهندي وباكستان المسلمة. ويعتبر توينبي هذا الانقسام وابلا عليهما... إذ وجد هذان الشعبان نفسيهما يعيشان على الطرف المقابل للحدود الجديدة. فتيقّنا أنهما يواجهان مشكلة عويصة، فإما أن تهجر هذه الشعوب بيوتها وإما أن ترضى بحكم الحكومة الأخرى التي لا تكّن لها الحب[5].

وبهذا تضل القومية المسيحية الغربية تهاجم كل دولة قائمة بذاتها حين تجد ما يعارضها من واقع تلك الدولة.

1- آرنولد توينبي؛ العالم والغرب، ص، 32.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص، 294.

4- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 32.

5- العالم والغرب؛ ص، 34.

ويشير "صموئيل هنتنغتون" إلى تفطّن العالم للنفاق وازدواجية المعايير... التي يتعامل بها الغرب، و كلّها تمن للعالمية المزعومة. فالغرب قائل بالديمقراطية ولكن من دون الإتيان بالأصوليين الإسلاميين إلى السلطة، وحضر انتشار الأسلحة يطلب من إيران لكن تعفى منه إسرائيل، والتجارة الحرة عماد الاقتصاد العالمي وليس الزراعة... والعدوان على الكويت التي تزخر أرضها بالنفط مستهجن على نطاق واسع ولكن ليس العدوان على البوسنة التي لا تملك هذه الثروة [1].

وهذا يعكس بوضوح مدى القوة التي تتمتع بها هذه القومية المسيحية الغربية الحديثة.

ولقد بدا لنا خلال القرن ونصف القرن الماضيين، النظام السياسي الغربي الحديث المتمثّل في **الدول القومية**، يحطّم الحدود التي نشأ بداخلها في غرب أوروبا، شاقا طريقه إلى العالم في إثارة الاضطهاد والحروب الأهلية [2].

إنّ فالدمار الذي أحدثته القومية المسيحية الغربية «**هو أعظم بما لا يقاس من الضرر الذي أحدثه النظام نفسه في بريطانيا و فرنسا و بلاد غرب أوروبا الأخرى**» [3].

لذلك وبعد حصولها على الاستقلال السياسي، تسعى دول العالم الغير غربية للحد من نشاط القومية الغربية المستمر، وذلك عن طريق السعي إلى تحرير نفسها من السيطرة الغربية في كل المجالات [4].

ونخلص مع توينبي إلى أنّ العالم معترف الآن بحقوق الإنسان التي يجب أن تنعم بها كل الشعوب والأمم ومع ذلك مازلنا نتخبط في الحروب الطبقية والقومية والعنصرية.

وإنّ هذه النزاعات السيئة تتمثّل «**في ضرب القسوة المجردة من الشعور والاكتراث والتي تنظم بطريقة علمية. وفي وسعك أن ترى اليوم الحالتين النفسيتين المتناقضتين ...جنب إلى جنب لا في العالم فحسب بل أحيانا في البلد الواحد وفي النفس الواحدة**» [5].

1- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص ص، 294-295.

2- آرنولد توينبي؛ العالم والغرب، ص ص، 65- 66.

3- المصدر نفسه؛ ص، 66.

4- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع نفسه، ص، 295.

5- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص، 155.

2-3- الفراغ الروحي بين الماضي و الحاضر:

إنّ الضوء الذي تعكسه مرآة ماضي التاريخ الإغريقي الروماني على مستقبل الحضارة المسيحية الغربية، هو ألمع شعاع تقع عليه عيون الغرب[1]. والدليل على ذلك أنّ مسار الحضارة المنقضية هذه هو ذاته مسار الحضارة الغربية الحالية، إذ «**في القرن الأخير قبل الميلاد كان العالم الإغريقي الروماني تتقاذفه الثورات والحروب... وكان يغلي كالمرجل بالضجيج وأعمال العنف كما يغلي عالمنا الغربي المحموم اليوم**»[2].

مع أنّه كانت هناك محاولات عديدة لوضع سياسة بناءة، إلا أنّ تلك المحاولات قد خلقت فراغا روحيا كبيرا، و لم تؤدي الدور الذي كانت تهدف له.

إنّ هذا الفراغ الروحي هو سؤال الأسئلة في العالم الإغريقي الروماني في القرن الثاني الميلادي، وهو ذاته سؤال اليوم.

فكيف يثبت توينبي ذلك ؟ بمعنى أنّه بانتهاج الحضارة الغربية المسيحية اليوم نفس المنهج الذي اتّبعته أمها الحضارة الإغريقية الرومانية، فهل سيكون لها بالتالي نفس المستقبل ؟.

يرى توينبي أنّ أولئك المبشّرين بالديانات الشرقية أيام الحضارة الإغريقية الرومانية، هم أول من عمد إلى سد هذا الفراغ الروحي.

يقول: «**لقد اختلس مبشّروا الديانات الغريبة يد دور المبادأة من أيدي اليونان والرومان، بحيث أنّ تلك الأيدي القاسية لم تشعر بشيء يلمسها وحتى تلك اللحظة لم ينتبهوا للخطر**»[3]. أي خطر تغلغل الديانات الشرقية ومنها المسيحية في صميم المجتمع الروماني.

ومعنى ذلك، أنّ أولئك الحكام والقادة، لم ينتبهوا لهذا الخطر الآتي من الشرق، لأنّه لا يقوم على تحدّ سياسي، أو اقتصادي، أو حربي خاصة. وإنما هذا التحدّي المضاد كان تحدّيا دينيا. فلم ينتبه له في البداية العالم الإغريقي الروماني لأنّه ببساطة كان يعيش فراغا روحيا كبيرا، فلم يتوقّع أن يأتيه الخطر من هذه الناحية.

ويرى توينبي أنّ أسرار نجاح هذا التحدّي الديني ثلاث:

- أولها، أنّ هذه الديانات الجديدة قد انتهزت فرصة أنّ الناس قد ضاقوا ضرعا من التصادم بين ثقافات ذلك الزمان والحروب المريرة الناتجة عن ذلك التصادم اللامنتهي. والسبب في ذلك كما يقول توينبي: «**إنّه ما من ثقافة بشرية واحدة بقادرة أن تبرر زعمها الخدّاع بأنها التعويذة الروحية، ذلك أنّ العقول التي زالت عنها الغشاوة والقلوب التي صدمت في أمانيها، مستعدة الآن لقبول بشارة تسمو فوق هذه الادعاءات الثقافية**

1- آرنولد توينبي؛ العالم والغرب، ص، 84.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- المصدر نفسه؛ ص، 86.

القاحلة»[1]. بهذا تكون هذه الديانات الشرقية الداخلة، قد خلقت في أذهان الناس تصوّرا جديدا عن الحياة في المجتمع، يمكن أن يكون فيه الكل واحدا في "يسوع المسيح" مثلا أو أن يكون واحدا في "ميترا" إله الفرس، إلى غير ذلك.

يتمثّل إذا هذا السر الأول من أسرار نجاح الديانات الشرقية في تحقيق مثل أعلى للأخوة الإنسانية.

- وأما السر الثاني، فيتمثّل في أنّ هذه المجتمعات الجديدة، فتحت الباب لكل المخلوقات البشرية بلا تفرقة و جمعتها في شراكة مخلصة مع كائن أسمى منها. فتعلّم الناس بموجب هذا أنّ الطبيعة البشرية بدون نعمة الله وحدها لا تكفي. ونقش هذا عميقا على قلوب أجيال شهدت مأساة زمن الاضطراب الذي أعقبته سخرية سلام مقيم. ويقصد توينبي بذلك، سلام الدولة العالمية الزائف الذي كان أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة.

- وثالث هذه الأسرار أنّ العالم القديم قد وجد عبادة آلهة بشرية، عبادة ناقصة ويشوبها الكثير من الغموض وعدم الراحة المطلوبة[2].

ويذكر توينبي أنّ القدّيس "أوغسطين"، قد نظر إلى "الاسكندر الأكبر" على أنّه الجندي المؤلّه، قاطع من قطّاع الطرق. لو قام بما قام من توسّعات مع شريكين له أو ثلاث لا مع جيش جبار كذلك الذي ساقه معه إلى آسيا. وأيضا، جندي البوليس المؤلّه، في شكل "أغسطس" الذي صفّى شركائه من قطّاع الطرق. يقول توينبي: **«ولكن عندما يطلب منا أن نسجّل شكرنا بعبادتنا لهذا القاطع للطريق، المصلح بصفته إلها... ولكن قلوبنا مع ذلك تشعر بالجوع على إله نستطيع أن نعبده بالروح وبالحق»**[3].

ومغزى ذلك أنّ الديانات الشرقية، أتت لتحل محل هؤلاء البشر المؤلّهين الذين لم ينجح تألههم القوي هذا من منع شعوب كبيرة من تشرّب العقائد الشرقية الوافدة عليها.

ومن التاريخ أمثلة كثيرة عن روّاد الفراغ الروحي من أباطرة وقوّاد عظام، يقول توينبي في محاولة لإثبات أنّ الحضارة المسيحية الغربية تمر الآن بنفس هذه المرحلة: **«إنّ غزاة العالم الأول هؤلاء مثلهم مثلنا نحن المقابلين الغربيين لهم في الوقت الحاضر، كانوا قد أطرحوا دين أجدادهم جانبا»**[4].

بمعنى أنّ العالم المسيحي الغربي الحالي، مسيحي بالاسم فقط، لأنّه قد تخلى عن تلك المسيحية الأولى التي ألّفت بين القلوب في تلك الرقعة من العالم القديم.

فالأسلوب العلماني الممارس أثناء هذه الحقبة الطويلة من التاريخ، قد جنّد فيه الدهن ليؤدي واجب القلب بالعمل على إيجاد فلسفات تحل محلّ الدين ولكن هذه الفلسفات كما يؤكّد توينبي، لم تأتي بالحل بل قد ربطت النفس بالعجلة المؤلمة للقانون الطبيعي، ويتخذ من اعتراف الإمبراطور الفيلسوف "ماركوس

1- المصدر السابق؛ ص، 87.
2- المصدر نفسه؛ ص ص، 87- 88.
3- المصدر نفسه؛ ص، 88.
4- المصدر نفسه؛ ص، 89.

أورليوس" دليلا على ذلك، يقول الإمبراطور: «**إلى أعلى وإلى أسفل وإلى الأمام ثم إلى الخلف، وحركة دائرة مستمرة. هذه هي حركة الكون الرتيبة المملّة التي لا معنى لها. فالإنسان ذو الذكاء المتوسط متى بلغ الأربعين من العمر، سيكون قد خبر كل شيء كان وكائن وسيكون**»[1].

ويوضّح توينبي من موقفه أكثر حين يضيف: «**في الواقع كانت تلك الأقلية المخدوعة والمسيطرة من اليونان والرومان تقاسي من الجوع الروحي نفسه مثل أغلبية البشرية المعاصرة**»[2]. وهذا اعتراف كامل وواضح على افتقاد العالم المسيحي الغربي اليوم للدفء الروحي.

فبعد أن قهر الإغريق والرومان العالم قديما بقوة الترسانة الحربية، أخذ هذا العالم قاهريه سبايا بتحويلهم إلى ديانات، ميزتها أنها دعت كل النفوس البشرية بدون أية تفرقة بين الحاكمين أو بين الرعية. أو بين الإغريق والشرقيين والبرابرة، إنّ في هذا انتصارا للدين قديما. لكن العالم الحالي نهج نفس منهج هذا العالم القديم باعتماده هو الآخر على الترسانة الحربية القوية إضافة إلى الثقافة المغرية، ولكن أفوله لا يتّضح بعد، إذ: «**ليس في مقدورنا أن نقرر هذا بما أننا لا نستطيع التكهّن بالمستقبل، ولكن يمكننا فقط أن نرى أنّ ما حدث مرة في أحد أحداث التاريخ يجب على الأقل أن يكون أحد الاحتمالات التي تكمن في المستقبل**»[3]. فموقف الحضارة الغربية الراهن، رهيب بحق[4].

إنّ أسلوب الحضارة عند توينبي هو تعبير عن ديانتها، يقول: «**أوافق كل الموافقة على أنّ الدين كان مصدر الحيوية التي أدّت إلى وجود الحضارات وحافظ على وجودها**»[5].

ومعنى هذا أنّ للدين دورا فائقا في عملية الحضارة. ويواصل توينبي شرح أهمية الدين في تأكيده بأنّ الإيمان الديني كان هو القوة الروحية التي أنجحت كل المنجزات الحضارية، ورغم الآفات التي كانت تستبد بالحضارة من ظلم اجتماعي وغطرسة سياسية وحروب عنيفة... إلا أنّ الدين كان هو العامل الأساسي الذي مكّن المجتمعات المتحضّرة من التماسك والحفاظ على كيان الحضارة القائمة.

وتحقّق ذلك عندما أجاب هذا الدين على الأجوبة التي تبعث على الرضا الروحي في الأمور الغامضة المتعلّقة بسر الكون مثلا ودور الإنسان فيه. وكذلك بإعطاء الناس قواعد سلوك عملية للتعايش في هذا الكون.

يقول أنّه: «**في كل مرة فقد الناس إيمانهم بدينهم خضعت حضارتهم للتفكّك الاجتماعي الداخلي، والهجوم العسكري الأجنبي. والحضارة التي سقطت نتيجة فقدان الدين قد استبدلت بها بعدئذ**

1- المصدر السابق؛ ص، 90.
2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.
3- المصدر نفسه؛ ص، 91.
4- الحضارة في الميزان؛ ص، 45.
5- التحدّيات الكبرى؛ ص، 367.

حضارة ألهمها دين مختلف»[1].

ويرى "ألبرت اشفيتسر" كذلك مبيّنا قيمة الجانب الروحي في شد أواصر الحضارة، بأنّ إفلاس الفلسفة الأخلاقية المتفائلة راجع إلى التدهور المستمر في قوة المثل العليا العميقة للحضارة[2].

إنّ ديانة الحضارة هي مصدر حيويتها الأول، وإذا فقد الإيمان بهذه الديانة أفضى ذلك بالحضارة إلى السقوط والاستبدال. والذي حدث للحضارة الغربية هو أنّه قبل انتهاء القرن السابع عشر بدأ الدين المسيحي يفقد من المكانة التي حافظ عليها طيلة القرون الوسطى، حيث امتد تراجع المسيحية باطراد وكان ذلك على نطاق واسع يشمل كل فئات المجتمع الغربي ومكوّناته[3].

ويوضّح توينبي أنّ هذا التغير أو هذا التراجع للمسيحية في هذه الفترة، قد فسّر على أنّه مجرّد حادثة سلبية، لكن في الحقيقة كانت الطبيعة البشرية قد تشرّبت من الفراغ حتى الثمالة. وهذا ما جعل المجتمع يبحث عن بديل للديانة ومن ذلك أنّ الفراغ الذي أوجده تراجع المسيحية سمح بنشوء أديان أخرى هي: الإيمان بحتمية التقدّم عن طريق تطوير العلوم وتطبيقها على التكنولوجيا، والقومية[4].

ومعنى هذا أنّ المجتمع الغربي قد استعاض عن الدين الحقيقي بأيديولوجيات وضعها للوصول إلى أهدافه وتحقيق مراميه في السيطرة على العالم.

وقد حذّر توينبي بالخصوص من القوة التي تحدثها التكنولوجيا، ذلك أنها ممكن أن تستعمل للخير كما يمكن أن تستعمل للشر. وكذلك القومية الغربية الحديثة التي استلهمت من الأعراف والمثل اليونانية والرومانية، يقول أنها: **«قد ورثت دينامية المسيحية وسعارها، وحين ترجمت إلى ممارسة في الثورتين الأمريكية والفرنسية، أثبتت أنها شديدة العدوى. وربما تشكّل القومية المتعصّبة اليوم 90 بالمائة من زهاء 90 بالمائة من الجنس البشري»**[5].

ويبيّن أنّه فيما كانت الأديان القديمة: المسيحية والبوذية والإسلام، تحارب آفات المجتمعات البشرية، وتكافح من أجل السيطرة عليها. فإنّ الأديان الحديثة تنشأ أساسا أو على الأقل تستخدم كوسيلة فعّالة لإطلاق ذلك الجشع الإنساني الرهيب وتمكينه من الحياة الإنسانية.

ولا يخفي توينبي تطلّعه لأن تحكم ديانة جديدة البشر وتكون ديانة المستقبل المنشودة. بما أنّ الأديان الثلاث: المسيحية والبوذية والإسلام، لم تنجح برأيه في حل الأزمات الإنسانية. فيرى أنّه لتأتي هذه الديانة على الحضارة أولا: أن تنظّف المجتمع من كل ألوان: الجشع والحرب والظلم الاجتماعي والبيئة الصناعية، و

1- المصدر السابق؛ ص ص، 367- 368.

2- ألبرت اشفيتسر؛ فلسفة الحضارة، طبعة 1997، ص، 332.

3- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 371.

4- المصدر نفسه؛ ص، 373.

5- المصدر نفسه؛ ص ص، 375- 376.

كل الأيديولوجيات التي تحول دون تحقيق ذلك. ولكنه لا يعطي وصفا لهذه الديانة الجديدة ويكتفي بالقول بأنها : «**قد تكون نسخة جديدة من إحدى الديانات القديمة**»[1]. السالفة الذكر.

كما ينحو إلى ضرورة توطيد الحضارة المسيحية الغربية لعلاقتها بالحضارات الأخرى، عندما يقول بأنّ أهم اتصالات المسيحيين هي اتصالاتهم مع الله، ولكن يجب عليهم أن يتّصلوا ويتواصلوا أولا مع غيرهم من الكائنات البشرية، الذين هم عيال الله[2]. ذلك الكائن المستقل عن الإرادة البشرية والذي لا تحركه الحاجات والعواطف البشرية ولا يساويه إلا نفسه[3].

وفي الواقع أنّ الغرب ليس أقل تعرّضا للخطر من الحضارات المنقضية، كحضارة الأزتك والانكا والسومريين... وهذا ما يجعله يبحث اليوم- بشيء من القلق- في حوادث وذكريات الماضي علّه يجد فيها درسا يستطيع حلّ رموزه[4].

فالمهمّة الدينية هي أهم المهام التي يجب على الحضارة المسيحية الغربية القيام بها، وأخطرها جميعا. وإنّ فشل التجارب التي سبقت هذه المحاولة، لا يستلزم بالضرورة فشل التجارب اللاحقة وذلك إذا ما أتيحت لها الفرصة المواتية لتحقّق نجاحاتها. ويكون ذلك عن طريق فضيلة الحكمة التي يمكن اكتسابها بمعاناة الآلام[5].

لأنّه: «**في وسعنا أن نحوّل بجهودنا مجرى التاريخ إلى اتجاه جديد لم يسبق له مثيل. وقد أوتينا هذه الحرية في الاختيار بوصفنا كائنات بشرية، وليس في وسعنا أن نلقي تبعاتنا على الله أو الطبيعة بل يجب أن ننهض بها نحن أنفسنا، لأنّ ذلك لزام علينا**»[6].

وإنّه رغم نجاح الإنسان الباهر في شتّى ميادين الحياة، الفكرية والعلمية... فإنّه قد فشل فشلا ذريعا، من الناحية الروحية. وذلك راجع إلى أهمية الجانب الروحي الفائقة في الحياة الإنسانية بالنسبة إلى رفاهيته في كل الميادين، حتى المادية منها[7].

وبناءا على هذا فالعامل الروحي هو جزء مهم جدا في حياة الإنسان، يرتفع فيه العمل الروحي لأن يكون ذا أهمية وقيمة كبيرتين، إن لم يكن «**العمل الوحيد الذي ستكون له قيمة ظاهرة ودائمة**»[8].

1- المصدر السابق؛ ص، 377.

2- الحضارة في الميزان؛ ص، 202.

3- فيورباخ؛ أصل الدين، دراسة وترجمة: أحمد عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص، 52.

4- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه؛ ص، 37.

5- المصدر نفسه؛ ص، 46 .

6- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

7- المصدر نفسه؛ ص، 207.

8- المصدر نفسه؛ ص، 208.

ويبقي توينبي على تفاؤله ونلمس ذلك في قوله : «**إنّه حيث ما وجدت الحياة، وجد الأمل. وإنّ الإنسان – بعون الله- هو المهيمن على مصيره ولو من بعض الوجوه إلى حدّ ما**»[1].

وإنّ تمسك توينبي بالإيمان بالله، يشبه إلى حد كبير تمسّك القدّيس "أوغسطين" بهذا الإله ذاته في طلب النور والنجاة من الخطر والتفتيش في دواتنا عن هذا الطريق، يقول القدّيس "أوغسطين" : «**طبعت نور وجهك علينا أيها الربّ علامة... ليتهم يرون في داخلهم هذا النور الأزلي**»[2].

ويضيف "وايتهيد" تفاؤله إلى تفاؤل توينبي حين يقول بأنّ الحضارة حتى وإن انقضت، فهي قادرة على أن تحيا من جديد، والدليل على ذلك واضح وبسيط في تاريخ المجتمع الغربي وهو عودة نهوض أوروبا بعد الإصلاح الديني، وتغيّر مذاهب ومفاهيم ونظم حياة كثيرة[3].

وأخيرا فالأمل الذي يتشبّث به توينبي هو التمسّك بالدين وذلك ناجم بوضوح عن روحه المسيحية القوية.

3- المبحث الثالث: توينبي و سقوط الحضارة

استخلص توينبي من دراسته لتاريخ الحضارات الطويل أنّ الحرب **guerre** كانت ولا تزال سببا مهما جدا إن لم تكن السبب المباشر في زوال الحضارة. رغم أنها ليست المؤسسة الوحيدة الكريهة التي عذّبت بها الإنسانية نفسها خلال أجيال طويلة متعاقبة. إنما الرق والعبودية والصراع الطبقي والظلم والتعسّف الاجتماعي... كلّها كانت مصائب أوجدتها الإنسانية لنفسها فتخبطت فيها وأصبحت من مآسيها.

ولكن الحرب تختلف عن هذه المصائب جميعها كونها السبب الأساسي لكل تدهور اجتماعي مادي وروحي على وجه الخصوص فرضه الإنسان على نفسه خلال فقرات تاريخية المختلفة.

والواقع أنّ الحرب لم تتمكّن من الحضارة إلا عندما بدأت المجتمعات المتحضّرة تطمع إلى التوسّع أكثر فأكثر، وذلك باستعباد أكبر قدر من البشر وجعلهم وقودا لها، فتحوّلت القوة العسكرية إلى سرطان ينخر جسد الحضارة.

فكيف يبيّن توينبـــي ذلك ؟

1- المصدر السابق؛ ص، 38.

2- القدّيس أوغسطين؛ اعترافات القدّيس أوغسطين، ترجمة: الخوري يوحنّا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط3، دت، ص، 175.

3- جونسون؛ فلسفة وايتهيد في الحضارة، ص ص، 90- 91.

3-1 التقنية العسكرية و سقوط الحضارة:

يتحدث توينبي كغيره من الباحثين عن التقنية العسكرية كثيرا، غير أنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا، لا يتعلّق بالمقصود بالقوة العسكرية. إنما بالدور الذي تلعبه في حلولها محل الدين وبالتالي تؤدي إلى هز كيان الحضارة والسير بها نحو الأفول، ويرجع ذلك إلى أنّ توينبي يبغض الحرب في بناء الحضارة، فلم يرجع ذلك البغض ؟

يرى "ابن خلدون" أنّ الحروب وكل أنواع المقاتلة، قديمة قدم الزمان ووجود الإنسان، وأساسها انتقام يحل مقام انتقام، وقد «**كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عن أمة ولا جيل، وسبب هذا الانتقام في الأكثر، إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب للّه ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده**»[1]. إنها تزيد حدّة بقدر ما يتعمّق العدوان بين الشعوب حتى تصل إلى المستوى الأخير مستوى القطيعة الدائمة [2].

إنّ القوة العسكرية المتمثّلة في الجيوش التي تقوم بحروب دفاعية أو هجومية كانت ولا تزال أحد الأسباب المباشرة في زوال الحضارات أو قيام أخرى على أنقاض سابقاتها، فالإمبراطورية الرومانية مثلا مجرّد مرحلة في انهيار المدنية التي أعقبت "الإسكندر" [3].

ذلك أنّ عصر الإمبراطورية بالذات شهد أكبر الإنجازات على المستوى العسكري، نظرا للاعتماد على الحملات العسكرية بالدرجة الأولى في دوام التفوّق.

والدليل على ذلك في موقف توينبي، إذ يرى أنّ الحرب منذ القديم وحتى الأزمنة الحديثة —و المعاصرة— تعتبر شرا لا بد منه، كيوم قيامة مثلا أو كوباء خطير. إذ لم يستطع أي من الشعوب الغابرة التي غزاها الفايكنغ vikings مثلا أن ينظر إليها بغير هذا المفهوم.

إذ لا شيء يوضّح توينبي، كان يفرّق الغزوات والهجمات المفاجئة عن هجوم الجراد أو تفشّي وباء قاتل، فنتيجة لهذا رأت مثل تلك الشعوب أنّه من الطبيعي إذا اعتبار شخص مثل شارلمان، مثيرا للإعجاب، فيتوجّب بذلك احترامه وطاعته بما أنّه قادر على حماية شعبه إذا مرت به ظروف مماثلة [4].

وهذا يعني أنّ الدافع للحرب يمكن أن نجد له تبريرا، غير أنّه لا يمكننا بأي حال من الأحوال إغفال حجم الدمار الذي كانت ولا تزال تسبّبه حتى يومنا الحاضر.

1- عبد الرحمان ابن خلدون؛ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص ص، 283-284.

2- عبد الله العروي؛ ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص، 88.

3-ر. ج. كولننجوود؛ فكرة التاريخ، ترجمة: محمّد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، مصر، دط، 1961، ص، 294.

4- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 23.

فقد كان ولا يزال الناس يحترمون المحارب، ويعطون له مكانة مهمّة في المجتمع لا بل في الحضارة بأكملها. إذ كانت مهمّة الجندية حتى القرن التاسع عشر، المهنة المبجّلة عن سائر المهن، بما أنها المهنة الوحيدة التي يمكن للسيّد المحترم الانخراط فيها وندر حياته لها. لذا نعت السيّد المحترم بالفارس Chevalier.[1] لاحتلاله مرتبة مرموقة من الوجهة الإنسانية.

وبما أنّ الخوض في الحرب يتطلّب درجة من التطوّر العسكري، فلا بد للحضارة من التقدّم أولا في هذا المجال حتى تستطيع الدخول في هذا النوع من المجابهات – الحرب– أمكننا أن نقول: **«أن الحرب قد تكون فعلا ابنة الحضارة، لأنّ إمكانية أي حرب تفترض حدا أدنى من التقنية والتنظيم والثروات»**[2].

إنّ هناك صلة وثيقة بين التقدّم الآلي وبين الحرب، والدليل على ذلك أنّ أكثر الآلات تقدّما وأسبقها في الزمن هي الآلات التي استعملت في الحروب. وإنّ التقدّم التكنولوجي يخطو في خدمة التقنية العسكرية بخطوات أسرع كثيرا من تلك المكرّسة لخدمة السلم العالمي.

وإنّه ما من شك أبدا أنّ اتساع نطاق الحروب الحديثة والمعاصرة، مرتبط ارتباطا واضحا بالتطوّر العلمي والتقدّم الصناعي. ومعنى ذلك أنّ العلاقة بين التقدّم الآلي والناتج عنه تقدّم التقنية العسكرية وبين الحرب ليست بعلاقة عارضة، بل إنها تمتد لأصول الظاهرتين وجذورهما بالتحديد[3].

وما يسميه توينبي التقنية العسكرية، يسميه "عبد الله العروي" بالتكتكة والسطرجة(*) فالأولى استعمال الجيوش في الميدان والثانية استعمال نتائج المعارك والإفادة منها [4].

لكن الحرب كبقية الشرور لا تبدو في البداية غير محتملة، إذ تقوم باستدراج الإنسان إلى الدرجة التي لا يمكن له فيها فيما بعد العودة إلى الوراء[5].

وإن قال البعض بمشروعيتها، إلا أنهم اشترطوا لذلك أن لا تتجاوز حدود الرحمة [6]، لذلك لا يتبيّن خطرها في البداية، فرغم قسوتها إلا أنها بدت ضرورية [7]، باعتبارها تجربة يمكن للإنسان استخلاص الدروس منها لفائدة الإنسانية.

1- المصدر السابق؛ الصفحة نفسها.

2- المصدر نفسه؛ ص، 08.

3- فؤاد زكريا؛ الإنسان والحضارة، ص، 157.

(*) من تكتيك و إستراتيجية Tactique et stratégie.

4- عبد الله العروي؛ المرجع السابق، ص، 96.

5- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

6- صلاح مصطفى الفوال؛ سوسيولوجيا الحضارات القديمة، ص، 292.

7- DANIELOU (Jean) et MARROU (HENRI), Nouvelle Histoire de l'Eglise, Des Origines à Saint Grégoire le Grand, p. 367.

وفي الحقيقة لم تظهر الحرب أشداقها الخفية، إلا عندما استعمل الإنسان أخيه الإنسان كوقود للحرب. بهذا تصبح الحرب سرطانا ينخر جسد الجميع سواء أكانوا من ضحاياها أم من المدبّرين والمخططين لقيامها [1].

ويتجلى لنا هذا بوضوح، عندما بدأت المجتمعات المتحضّرة تطمح أكثر فأكثر للتوسّع الذي ليس له نهاية – وإن انتهت الأرض– عن طريق العسكرية وهو ما يشير إليه توينبي بقوله: «**قد يكون بالإمكان تعريف العسكرية بأنها ممارسة الحرب من أجل الحرب في الوقت الذي كفّت فيه الحرب عن أن تكون ضرورة اجتماعية وعن أن تعتبر كذلك**»[2].

فقد تعب التاريخ الإنساني مما استنفدته الحروب التي لا أول ولا آخر لها، وإن كان انتشار القدرات العسكرية جاء نتيجة للتطوّر الاقتصادي والاجتماعي الكوني، بما أننا نلحظ اليوم الانتشار السريع للأسلحة على أنواعها. إذ من شأن هذه العمليات أن لا تتوقف نهائيا وتظل في الاستمرار.

فالغرب المسيحي يؤكّد "هنتنغتون"، سوف يكون هو الوحيد القادر على أن يتدخّل عسكريا في أي منطقة من العالم تقريبا. بما أنّ الولايات المتحدة الأمريكية فقط هي التي تستحوذ على القوة الجوية القادرة على استهداف أي جزء على الأرض،«**فهذه هي العناصر الرئيسية للوضع العسكري للولايات المتحدة كقوة كونية وللغرب كحضارة مسيطرة في العالم**»[3].

إنّ هذا المثال يبيّن لنا بوضوح نموذجا عصريا عن قوة عسكرية جبارة تقود حروب العصر كيفما شاءت. ويرجع توينبي خلفية هذا كلّه بذكره لموقف القائلين بالدور الإيجابي التي تلعبه الحرب في بناء الحضارة والذي غذى فكرة ضرورة استمرارها. حيث يستند إلى ما قدمه "موسوليني" Mussolini **(1883-1945)** في تعريفه للحرب في إحدى مواد الإنسكلوبيديا إيطاليانا Encyclopédia Italiana، يقول: «**إنّ الحرب وحدها هي التي تفجّر طاقات البشرية وترفعها إلى آخر حد وهي التي تكلل بالغار الشعوب التي تمتلك فضيلة مواجهتها وجها لوجه**»[4].

1- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، **08**.

2- المصدر نفسه؛ ص، **24**.

3- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي، ص، **298**.

4- نقلا عن آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، **27**.

ومعنى هذا أنّ الحرب هي الدعامة الرئيسية، التي يجب أن تقوم عليها الحضارة لا بل هي العامل الرئيسي لدوامها. ففكرة المجال الحيوي والإحساس بالتفوّق العرقي ورهان القوة، معايير حملت شعارها الفاشية Fascisme (*)وبرها.

وهي ذاتها المعايير التي يستند إليها الغرب في الاستعمار، إذ تعد الصورة الواضحة والصريحة لما تخفيه الدول الغربية الاستعمارية. وسيبقى التاريخ شاهدا على أنّ العنصرية النازية (*)(*) مثلا ليست بدعة ألمانية إنما ظاهرة غربية بامتياز[1]. مع هذا فإنّ توينبي يرى أنّ هذا الزعم في الحقيقة، عبارة عن وهم لأناس متعطشين للفضائل التي تأتيهم عن طريق الفضائل العسكرية، «**لأنهم محرومون من أي غذاء روحي آخر، كالطفل الضال الذي حرم الغذاء الإنساني فملأ بطنه عن طيب خاطر بالأوساخ التي تقتات بها الخنازير**»[2]. وقبل أن نتحدث عن الحرب في الحاضر فلنرى كيف حلّل توينبي ظاهرة القوة العسكرية في الحضارات القديمة.

(*) الفاشية **Fascisme**: أو الفاشستية سياسة الحزب الفاشستي الإيطالي، وتعني "حزمة" **Fascio** المقاتلين، قد أسسها موسوليني. وهدف الفاشستيين الأوّل هو تحقيق عظمة الدولة. فلا شيء خارج سلطتها المطلقة، تسخّر الرعية وتدّعي العمل لصالح كل فرد فيها. ولا تقول بالحرية المطلقة بل تقول بحرية الفرد في الدولة أي عندما تكون الدولة حرة يكون كل مواطن فيها حرا. و هذا هو أصل خلافها مع النظم الديمقراطية المدافعة عن الحرية الشخصية. وما الحرية الشخصية في نظر الفاشستيين إلا تسخير الدولة لمصلحة الفرد، فالفاشستية إذا هي الطريق الكفيل بتحقيق عظمة الدولة، بينما الديمقراطية والنظم البرلمانية تعرقل أعمال الدولة و تعيق تقدّمها و نموّها، وكل نظام مغاير للفاشستية لا يهيئ أمة نشيطة مستعدّة للكفاح والتضحية. وما الدولة إلا الرئيس أو "الدوتشي"، طاعته واجبه لأنها الطاعة للدولة، وبما أنّه معصوم عن الخطأ كانت الطاعة له عمياء لا واجبة فقط. لذلك جعل شعار الفاشستي: آمن- أطع- كافح. ومن نقطة الانطلاق هذه استبدّ الحزب الفاشستي بسياسة إيطاليا. لمعلومات أكثر راجع لبيب عبد الستار، أحداث القرن العشرين، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط3، **1979**، ص ص، **61-62**.

1- إدريس هاني؛ حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، ص ص، **124-125**.

(*)(*) النازية **Nazisme**: كان لهتلر أفكار محددة وبرنامج عمل. فقد ركّز على نقطتين أساسيتين: العنصرية والوطنية. أما قوله بالعنصرية فلم يكن مستحدثا بل سبقه إليه كثيرون منذ القرن التاسع عشر (من مثل **GOBNEAU** و **VACHER DE LAPOUGE** و **Houston Stewart CHAMBERLAIN**، غير أنّ الروح النازية التي زرعها هتلر عبر ألمانيا أتاحت للمفكر بروك **BRUCK** أن يبلور في كتابه "الرايخ الثالث" كل الصفات العرقية الجرمانية، مستوحيا من عباقرة ألمانيين أمثال هيجل وفيشت **FICHTE** ونيتشه وما ركّزوا عليه من سعي للتفوّق. وصادف ذلك هوسا لدى الألمانيين أفاد منه غوبلز (المسؤول عن التوجيه) في توجيه الرأي العام الألماني. وفي عقيدة النازيين أنّ العرق الأبيض هو الأسمى، وأسمى ما في فروعه العنصر الآري، فلا يتوفّر الدم الآري النقي إلا في الإنسان الجرماني. أما الشعور الوطني فقد أثاره هتلر عندما راح يضرب على وتر الهزيمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى، يتهجّم على معاهدة "فرساي" وينسب إليها أمر إذلال الألمانيين بعد أن كانت لهم أمجادهم الغابرة، ثم ينتقل إلى إثارة التقاليد الماضية ومهاجمة الديمقراطية، والنظام البرلماني الحر، والشيوعية وحرب الطبقات لأنها بدعة يهودية قال بها يهودي (ماركس) ولم يقف هتلر عند هذا الحد، بل تنكّر للمبادئ الإنسانية أيضا عندما شجّع على القتل والجشع واحتقار الناس، مستسيغا كل الوسائل للوصول إلى هدفه. أنظر لبيب عبد الستار، المرجع نفسه، ص ص، **69-70**.

2- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ففي تحليله للنزعة الحربية الأشورية مثلا، رأى أنّ آشور Assour(*) هو مثال الرجل القوي المسلح، ولكن قوة تسليحه هي الوسيلة الوحيدة لحمايته من أي خطر خارجي. وبالتالي فهو يشعر بالأمان طالما أنّه متمتّع بهذه القوة. لكن بمجرّد ظهور من هو أقوى منه فإنّ هذا الأمان يتحوّل إلى خوف ودمار، مثال ذلك في الواقع هو تدمير آلة الحرب الآشورية... مما أدى إلى زوال الدولة الآشورية وزوال شعبها بين عامي 614 و610 قبل الميلاد. وبهذا انمحت تلك المجموعة العريقة التي يبلغ عمرها أكثر من ألفي عام. والتي لعبت دورا هاما حاسما في جنوب غرب آسيا طيلة قرون من الزمان [1].

وما حدث للأشوريين حدث كذلك للمقدونيين macédoniens الذين **«اجتاحوا الإمبراطورية الفارسية وأبعدوا حدودهم حتى وصلوا إلى الهند في السنين الإحدى عشر التي تلت اجتياز الإسكندر لبحر إيجه، ثم كيف وجّهوا السلاح بعد قليل إلى صدور بعضهم بعضا، خلال الأربعين سنة التي مرّت بعد موت الإسكندر عام 323، وانكسار ليزماك Lysimaque في Coroupédian عام 281 ق.م، وذلك بعنف لا يماثله إلا عنف في إنشاء إمبراطوريتهم أيام الإسكندر الكبير»**[2].

وهو ما نجده لدى بقية الشعوب والأمم التي اهتمّت بالقوة العسكرية قبل كل شيء(*). ومثلما هو الحال بالنسبة للشعوب القديمة هو كذلك بالنسبة للشعوب الحالية، فالمعسكر الشيوعي كان سبب انهياره قوته العسكرية **«وجنسنا اليوم قد أصبح مرة أخرى مهددا بالفناء، ولكن الخطر لا يأتي هذه المرة من أية قوة غير بشرية وإنما من الإنسان ذاته... فالإنسان أخطر حيوان عاش على هذا الكوكب»**[3]. مثال ذلك التخوّف العالمي الرهيب من الحرب الذرية التي من شأنها أن تنسف كل شيء [4].

وهذا تأكيد على أنّ الحرب ليست أكثر من سرطان، مهما أطال البقاء عند صاحبه فسيؤدي حتما إلى وفاته، وكذلك الأمر بالنسبة للحضارة، فبقدر ما يبدو لنا أنّ الحرب تساهم في بنائها فإنها في النهاية تقودها إلى الانهيار في اللحظة التي تسقط فيها كل مقوّمات البناء الأخرى. فالدول الغير غربية، تحاول اليوم تفادي ما حصل عبر التاريخ باستخلاص الدروس والعبر لمواجهة خطر الغرب المسيحي والحضارة التي تولي جانبا مهمّا للعسكرية، رغم قيامها على العلم و التكنولوجيا.

(*) إله الحرب في الحضارة السومرية.

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 65.

2- المصدر نفسه؛ ص، 88.

(*) انظر الفصل الخامس من كتاب حرب وحضارة، ففيه أمثلة أخرى كثيرة عن خسارة القوة العسكرية.

3- آرنولد توينبي؛ من الشرق والغرب، ص، 51.

4- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 193.

إنّ هذه الدول اليوم تنظر بوضوح لنتائج حرب الخليج وترى أنّه لا بد أن تعتمد على أسلحة الدمار الشامل ووسائل استخدامها فلا حرب مع الغرب إلا بعد أن تتمكن من اكتساب هذه التكنولوجية، وهو الحال بالنسبة لكوريا الشمالية والهند، وإنّ أخطأ "صدّام حسين" (**1937-2007**) في إقحام بلاده في هذه الحرب. فالأسلحة النووية في الوقت الحاضر، تعزّز من سياسة القوة وأكثر من ذلك تثبت ميلا نحو انقسام النظام العالمي، وهكذا أصبح دورها بالنسبة للغرب في عـــالم ما بعد الحرب الباردة عكس ما كان عليه أثناءها[1].

يقول "هنتنغتون":«**إنّه في عالم ما بعد الحرب الباردة فإنّ الولايات المتحدة لم تجار القوة العسكرية التقليدية وأعداؤها المحتملون هم الذين قد يحصلون على الأسلحة النووية**»[2].

وعلّ كل هذا يعود إلى حلول الحرب محل الدين في المجتمع الغربي بصورة خاصة، واستبدالها بالقوة العسكرية بما أنّه لا حديث إلا عن ما وصل إليه هذا المجال من التقدّم.

فالعقيدة الأمريكية تكيل بمكيالين، وتصنّف العالم بحسب الأحلاف وليس اعتمادا على منطق النظم والقيم والأخلاق والمعاني الإنسانية المنشودة [3]. فالحرب في الحقيقة لم تعد حربا بذاتها فهي تخضع لسلطة أكبر من سلطتها، تستخدمها كوسيلة لتحقيق هدف معيّن وتلك السلطة هي السياسة التي تتحكّم في شكل وهدف ووسائل النشاط الحربي[4]. فالمحلّلون العسكريون عبر العالم، قاموا بوضع صورة متخيلة لدرجات العنف البشري، ابتدءوها بأعمال وأشكال الحرب المحدودة إلى الحروب الأوسع التي تتضمّن قدرات عسكرية كبيرة، وصولا إلى الحرب النووية. أمّا عن الإرهاب، قضية العصر، فهو معروف تاريخيا بأنّه سلاح الضعيف، إلا أنّه شكل من أشكال الحرب، فبمقدور قلّة من الإرهابيين أن تحدث عنفا وتدميرا شاملين[5]. وقد أحدثت ذلك فعلا منذ الهجمات في الحادي عشر من سبتمبر 2001. ذلك أنّ "بن لادن" قد حدّد الجبهات التي سيتعامل معها وهي الأعداء والأصدقاء، فالخارطة المتحكّمة في العالم في نظره هي العدو الأمريكي والصهيوني. وعلى العالم المسلم إن كان مسلما حقا أن يواجه التحالف بين الصليبية العالمية واليهود لذا وجب قتالهم في نظره في أي مكان فوق الأرض لأنها حرب مقدّسة [6].

غير أنّ "إدريس هاني" يرى أنّ تاريخ أمريكا هو تاريخ الإرهاب، مستدلا على ذلك بقول "لنعوم تشومسكي" Noam Chomsky(**1928-**): «**لقد قمنا نحن الأمريكيين، منذ حوالي مائتي سنة بطرد أو تصفية مواطنين أهالي البلاد أي ملايين الأشخاص وغزو نصف المكسيك. وخرّبنا مناطق في الكراييب**

1- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي، ص ص، 298- 299.

2- المرجع نفسه؛ ص، 299.

3- فرنسيس فوكوياما؛ نهاية التاريخ والرجل الأخير، ترجمة: حسين الشيخ، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص، 32.

4- عبد الله العروي؛ ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص، 88.

5- صموئيل هنتنغتون؛ المرجع نفسه، ص، 300.

6- عبد الهادي عبد الرحمان؛ عرش المقدّس: الدين في الثقافة والثقافة في الدين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، مايو 2000، ص، 79.

وأمريكا الوسطى واجتياح هايتي والفيليبين... وبعد الحرب العالمية الثانية، زدنا من سيطرتنا على العالم بالكيفية التي يعرفها الجميع. لكن دائما كنا نحن الذين نقتل (بفتح النون) تقريبا. وكانت الحرب تجري خارج ترابنا الوطني»[1]. وليس هذا فحسب إذ يعترف تشومسكي اعترافا صريحا بضلوع أمريكا في صناعة الإرهاب وفي تشكيل المنظمات الإرهابية ودعمها وفي اعتماد زبانية الاستبداد والطغيان في العالم وتسليطهم على شعوبهم[2] بما أنها في رأيه قد استباحت المجتمع المدني في العراق ومازالت تخرّبه[3].

وعلى ضوء هذا التحليل نستطيع أن نقول أنّ الدين لا الثروات والغنائم هي الدافع للحرب. وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد دافعت عن تدخّلها في العراق بحجة القضاء على أسلحة الدمار الشامل وإن كان العالم يرى أنها فعلت ذلك بغية الاستيلاء على أكبر آبار النفط في العالم. إلا أننا نرى أنّ هذه الحرب دافعها ديني، هو القضاء على الدين الإسلامي في حدّ ذاته أو إحداث بؤرة صراع في وسط العالم الإسلامي من شأنها خلخلة كيان الدين الإسلامي وهز أسسه بالتحريض على الصراعات الطائفية. وكذلك من أجل محاولة محو جزء من التاريخ الحضاري العالمي وهو حضارة بلاد الرافدين، أعرق حضارات الإنسانية. فالباعث إذا على الحرب هو دافع حضاري ديني، وإلا فهناك مناطق كثيرة غنية في العالم، لكن الإسلام هو الذي يشكّل أكبر الأخطار على الحضارة المسيحية الغربية لذا وجب تحيّن الفرصة للقضاء عليه في عقر داره.

ويرى "فؤاد زكريا" أنّ التطوّر التكنولوجي الغربي بأنظمته الصناعية خاصة، ليس هو السبب الحقيقي في التدهور الحضاري الذي تسبّبت فيه الحروب المتلاحقة، إنما يعود الخطر الأكبر إلى نوع العلاقات الاجتماعية التي تشوب هذا المجال. فلو نظّمت هذه العلاقات تنظيما عادلا لأصبح في مقدور المواطن الغربي أولا ومن ثمّ العالمي لا أن يحفظ حضارته من الانهيار فحسب، بل في أن يتدرّج بها في درجات الرقي **«ويبلغ آفاقا لم يكن يطوف بذهنه أنه سيبلغها في يوم من الأيام»**[4].

ونتساءل بعد كل هذا مع "إتين جلسون" Etienne Henri Gilson **(1884-1978)** عن مكان الحب المسيحي المنشود في الحضارة المسيحية الغربية الحالية، وعطفه على الشعوب المقهورة... ودوره في توقيف أو على الأقل التنقيص من شدّة الصراعات الإنسانية المؤدية إلى الحرب والاقتتال. فالمرء، حسب المعطيات الواقعية، لا يستطيع أن يسعى إلا وراء سعادته الشخصية، فلا شيء يرضيه ويكفيه، فمن يملك ضيعة واسعة مثلا لا يقتنع بذلك الحد بل يسعى إلى ضم ضياع أخرى جديدة إليها وهكذا...فكل لذة بشرية مرغوبة ولكنها ليست بكافية أبدا[5].

1- نقلا عن إدريس هاني؛ حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، ص، 123.

2- نعوم تشومسكي؛ 11- 9 الحادي عشر من أيلول: الإرهاب والإرهاب المضاد، ترجمة: ريم منصور الأطرش، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2003، ص، 11.

3- المرجع نفسه؛ ص، 107.

4- فؤاد زكريا؛ الإنسان والحضارة، ص، 159.

5- اتين جلسون؛ روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مصر، ط3، 1996، ص، 336.

لكن لا يغلق توينبي باب التفاؤل والأمل في أن تسهم الحرب ولو بجزء يسير في بناء الحضارة وهو ما يتضّح في قوله: «**إنّ الحيوانات لا تقوم بالحرب ولكن البشر يقومون بها، وسيعكف عنها أحفادنا عندما يصلون إلى مرتبة الرجل المتفوّق Surhomme كما يدعو غوتة ونيتشه... لقد خلقت الحرب التي عوّدنا عليها التاريخ ذات يوم ومرّت في طور الشباب وهي الآن تشير نحو الشيخوخة**»[1].

فإذا روّض العقل الرغبات والميول الإنسانية، حصل الإنسان على الفطنة وتمكّن من تطهير نفسه من كل معارضة للقانون الأخلاقي وأصبح بموجب ذلك حكيما [2].

ولكن الدعوة إلى الإسلام تصادف عقبة فعلية في طريقها عندما تجد الدول الداعية للسلم العالمي اليوم تحت رحمة الرغبة المدّمرة للدول التي تستثيرها النزعات العسكرية [3].

ونخلص إلى أنّ تفاؤل توينبي يبقى قائما، ولكن ليس إلا بعدما يجتاز الإنسان حقبا أخرى من التجارب الإنسانية ليصل إلى ما يسمى بالسلام العالمي، ولكننا انطلاقا من المعطيات الحالية نستطيع أن نجزم أنّ ذلك لن يحدث إلا في آخر الزمان.

1- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، **31**.

2- حسن حنفي؛ تطوّر الفكر الديني الغربي في الأسس والتطبيقات، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**1**، **2004**، ص، **191**.

3- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، **09**.

3-2- الحرب في الحضارة المسيحية الغربية:

بعدما تحدث توينبي عن الدور الذي تلعبه القوة العسكرية والحرب عموما في زوال الحضارة وتدهور بخاصة الجانب الروحي منها، يتحدث بخاصة عن نوعين من هذه الحروب هما: الحروب الدينية والحروب القومية.

فهل هذان النوعان من الحروب يلعبان نفس الدور الذي تلعبه الحرب بشكل عام وبالتالي يسهمان في إسقاط الحضارة بدلا من بناءها. أم أنّ الأمر على خلاف ذلك، وبالتالي تستثنى الحروب الدينية والقومية بخاصة من الأدوار السلبية للحرب ؟

إذا عدنا لكتابات توينبي، نجده يتصدّى للإجابة عن هذا التساؤل خاصة في كتابه **حرب وحضارة** الذي يتحدث فيه عن الحروب وصانعيها.

فتاريخ الإنسانية مصدر هام لعرض تلك الحقب المريرة التي لعبت فيها الحروب الدينية والقومية أدوارا حاسمة من حيث فائدتها أو تخريبها لهياكل الحضارة.

وتاريخ الحضارة المسيحية الغربية على وجه التحديد يوضّح لنا أنّ هذا النوع من الحروب ونقصد به الدينية، قد تدرّج من حيث القوة ولا تشكّل الحروب المعاصرة إلا مرحلة متقدّمة منه.

فالحروب الدينية، هي حروب اتخذت من الدين شار لإخفاء ما انطوت عليه من مطامع وأغراض[1].

يرى توينبي أنّ التاريخ الحربي للحضارة الغربية في العصر الحالي هو عبارة عن مجموعة حروب متتابعة ومتقطّعة تختلف عن بعضها البعض باختلاف أهدافها ومراميها، يقول: **«إنّ أولى هذه الحركات كانت الحروب الدينية التي بدأت في القرن السادس عشر ولم تنته إلا في القرن السابع عشر أما الثانية، فقد بدأت مع الحروب القومية في القرن الثامن عشر ولا تزال مستمرة حتى أيامنا هذه»**[2].

والواقع أنّ الحروب الدينية (الصليبية) هي أخطر المغامرات التي أقدم عليها المحاربون المسيحيون، باحتلالها مكانة مهمّة في تاريخ العصور الوسطى. وبما أنّ مراكز الحضارة قد كانت تشّع من العالم الإسلامي وبيزنطة Byzance خاصة، في حين كانت أوروبا تحت سيطرة النظام الإقطاعي. فقد كان من نتيجة هبوب ريح الحروب الصليبية Croisades(*)في القرن الرابع عشر أن اختفى في أوروبا ما سبق لها وأن اشتهرت به

1- ستيفن رنسيمان؛ تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الأول: الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1967، ص، 05.

2- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، 14.

(*)سلسلة حملات مسيحية من أجل السيطرة على الأراضي المقدّسة، وامتدت عبر ثماني مراحل منذ سنة 1095م حتى سنة 1270م.

بداية الحركة الصليبية من سيطرة الروح الدينية والتفكير في الحياة الأخروية وسيطرت عليها العلمانية والدنيوية، لتنصرف بذلك إلى دراسة القانون والفلسفة [1].

إذ بدأ في القرن العاشر ازدياد نشاط حركة الحج pèlerinage للأماكن المقدّسة و لم يلبث هذا النشاط أن تحوّل إلى حرب مقدّسة Guerre Sainte. في ذلك الوقت كانت البابوية Papauté تحرص على نبد الحروب الداخلية بين أمراء الإقطاع لتوجيهها ضدّ من يعرفون بغير المسيحيين. فدعت إلى تحوّل القتال إلى أرض الشرق، بغية انتزاع الأرض المقدّسة من أيدي المسلمين.

وكذلك لأنّ النظام الإقطاعي في حدّ ذاته نظام يدعو في أساسه إلى التوسّع وفرض السيطرة وقتال كل من يعترض هذين الهدفين، لذا حرصت الكنيسة على تشجيع الفرسان الأوروبيين على قتال المسلمين، حتى يشبع بذلك الفارس نزعته الحربية وفي نفس الوقت ينال الخلاص ويتطهّر من الذنوب. غير أنّ نجاح الصليبيين في أول الأمر يعود أساسا إلى ما اتّبعه قادتهم من أساليب الغدر والخيانة، وتوظيف العملاء من سكان البلاد وكذلك إلى ما قاموا به من معارك طاحنة ومذابح مفجعة ضدّ سكان البلاد التي كانوا يستولون عليها رغم ما بدلوه لهم من الأمان [2].

فقد سيطرت هذه الحروب على التاريخ الغربي مدة من الزمن، ويوضّح توينبي أنّ الفترة الفاصلة بين الحروب الدينية ونظيرتها القومية العنيفة، «**عبارة عن سلسلة من حروب معتدلة أشعلت نيرانها مطامع الملوك**» [3]، ويورد لنا مثالا عن ذلك في أنّ بداية هذه الحروب في أوروبا كان عام 1648م بعد انتهاء حرب الثلاثين عاما **(1618-1648)** في ألمانيا.

والغرض من عرض توينبي لمسار هذه الحروب المعتدلة التي لا تمتد كثيرا لا في المكان ولا في الزمان وبالتالي فهي حروب محدودة، بعكس الحروب الدينية أو القومية المدّمرتين.

يوضّح لنا أنّ هذه الحقبة التاريخية هي بمثابة عصر الاضطرابات الذي يسبق انهيار الحضارة، إذ يقول: **لا نستطيع أن نرى في هذا الإخراج إلا فصلين تشكّل الحروب الدينية أولهما، والحروب القومية ثانيهما، وبين هذين الفصلين قامت سلسلة من الحروب المسيطرة، أفليست هذه إذن إشارة مميّزة لعصر من الاضطرابات الذي يسبق انهيار المجتمع ؟**» [4].

بهذا تكون حروب هاذين القرنين أكثر وحشية وعنفا من كل الحروب التي سبقتها في جميع الميادين، والتي جاءت بعد اكتشاف البارود وسيادته وتوسيع استعماله في مختلف أنحاء المعمورة [5].

1- ستيفن رنسيمان؛ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

2- المرجع نفسه؛ ص ص، 6-7.

3- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

4- المصدر نفسه؛ ص، 15.

5- المصدر نفسه؛ ص، 17.

ومع أنّ جيوش الحروب الدينية لم تتعدّى في حجمها الجيوش الإقطاعية التي سبقتها، لكنّا كانت أعنف منها ويرجع ذلك إلى أنها«**لم تعد تنظر إلى العدو كخصم عسكري بل تنظر إليه كوحش من المعسكر الآخر**»[1].

وهذا ما يعكس بوضوح طابعها العنيف، البالغ التدمير، إذ «**كان العنف الفظيع الذي طبعت به هذه الأحوال جميعها الحروب الغربية في القرن السادس عشر والسابع عشر**»[2].

وكأنّ غرض توينبي من إيراد هذا التفصيل، هو تبيان أنّ الحرب ذات الطابع الديني لها أثر فظيع في هز كيان الحضارة لا بل وإدخالها في بوتقة من الصراعات اللامتناهية والتي تؤثر حتما على مسارها في الارتقاء لتنحو بها إلى التدهور والانهيار.

فقد كانت هناك حربان عالميتان «**كانت الحرب في كل منهما والحرب في حد ذاتها سفاكّة ومدمّرة على شكل لم يعرف من قبل، لقد كان ثمة سفك دماء في تركيا وفي ألمانيا وفي الهند، ووقع عرب فلسطين ضحايا. وأصاب التبتيين والأكثرية الإفريقية الوطنية في جنوب إفريقيا المحن، ولا تزال واحدة من الحروب الدينية قائمة في أيرلندا بوحشية**»[3].

ولا يتوقف توينبي عند هذا الحد بل يوضّح ذلك بالمثل بالنسبة للحروب القومية كذلك، إذ يقول بأنها«**كانت أكثر هولا من الحروب الدينية لأنّ مرمى هذه الحروب أو ذريعتها، أقل سموا وأكثر مادية**»[4].

والظاهر من هذا أنّ الاختلاف بينهما كان على مستوى الرسالة التي تحملها كلتاهما، ولعلّ رسالة الحروب القومية الغربية انطلاقا من موقف توينبي أكثر دناءة من نظيرتها الحروب الدينية.

إذ يرى أنّ هذه الدورة الأخيرة من الحروب الطاحنة والتي شهد بدايتها القرن الثامن عشر والتي لا يزال القرن العشرون يدفع ثمنها، «**قد أوصلت العنف إلى أبعد حد بعد أن عظّمت قوة الخصوم وكبّرت الإمكانات التي تسخّر لتسيير آلة الحرب نتيجة للتصنّع والموارد الطبيعية الهائلة التي تموّن المعارك في عالمنا الغربي**»[5].إنّ هذا الموقف المؤكّد على وحشية هذه الحروب دليل آخر برأينا على ما ينتظر هذه الحضارة المسيحية الغربية.

1- المصدر السابق؛ ص، 18.

2- المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

3- تاريخ البشرية؛ الجزء الثاني، ص، 254.

4- حرب وحضارة؛ ص، 16.

5- المصدر نفسه؛ ص، 18.

ودليل ذلك، ما ألحق بألمانيا مثلا في العصر الحديث من دمار وانهيار تجلّى في ما قام به "هتلر" في حق هذا الجزء من العالم الغربي، فقد أقام "هتلر" ادعاؤه بشرعية أعماله العسكرية على الوعد بالتمكّن من العلم والخوض فيه إلى أبعد الحدود، لكن بدلا من تحقّق ذلك انتشر الخراب في ألمانيا وأوروبا بأكملها [1].

فهذه الدورات من الحروب الدامية قد وصلت الآن، يقول توينبي: **«إلى الحد الذي يمكن من تدمير الإنسانية جمعاء، إننا الآن واقفون تحت تأثير شياطين أكثر خطرا بآلاف المرات من الشياطين الذين كانوا يتلبسون أجدادنا في القرنيين السادس عشر والسابع عشر»** [2]. فالآلة الحربية التي فتكت بالصرب مثلا وإن التقت مع مصلحة الشعب المسلم في يوغسلافيا سابقا قصد التحرر من إبادة "ميلوزوفتش" Milosevic **(1941-2006)** هي ذاتها التي تبطش اليوم بالشعب العراقي المسلم [3].

ومنه نستطيع أن نقول أنّ الحروب الدينية قد خلّفت آثار تدميرية، إلا أنّ الحروب القومية التي خلفتها اختلفت عنها في شيء واحد فحسب ألا وهو زيادة عمق الدمار الذي ألحق بالحضارة الغربية. وإذا كانت هذه الحروب كلّها تتّصف بصفات معيّنة، **«فإنّ الحروب المقبلة، النووية ــ تتّصف بصفة جديدة تماما... إنها ليست دواء منعشا... وإنما السم القاتل الذي يقضي على المرض حقا ولكن بالقضاء على المريض ذاته»** [4].

ومع أنّ السلام أصبح ضرورة لا بد منها لاستمرار الحضارة الإنسانية بأكملها وليست الحضارة الغربية فقط [5]، فإنّ توينبي يتحدث بلهجة تشاؤمية عندما يقول: **«إننا لا نستطيع التأكيد بثقة على أنّ خرابنا أمر واقع لا محالة، ولكننا في القوت ذاته لا نرى ما يثبت لنا العكس... إنّ هذا الشك الغامض يشكّل تحديا لا يمكننا التهرّب من مواجهته ويتوقف على مواجهتنا له مصيرنا»** [6].

فإيمانه بدور الدين المميّز في إنقاذ الحضارة يظهر جليا في دعاءه، يقول: **«نرجو من الله... أن يمّن علينا بخلاصه إذا ما طلبناه مرة جديدة، برنة ندم وأسف وإيمان»** [7].

ففي هذا دعوة واضحة لعدم جعل الحرب هي دين الحضارة المسيحية الغربية لتمسّكها الشديد بمصير هذه الحضارة. وما عرض توينبي لموضوع الحرب إلا محاولة منه لتبيان النتائج الوخيمة لاستبدال المسيحية الحقيقية بالنزعة العسكرية الحربية وجعلها صفة الحضارة الغربية المميّزة. إنّ للمسيحية دور هام في مصير هذه الحضارة، لكن هذا الدور متوقف على توظيف هذا الإنسان الغربي لها. فالحروب الدينية والقومية والحرب دين الحضارة الغربية الحالي، لم تبني هذه الحضارة بقدر ما عملت ولا تزال تعمل على تهديمها.

1- إدريس هاني؛ المرجع السابق، ص، **123**.
2- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص ص، **18-19**.
3- إدريس هاني؛ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
4- فؤاد زكريا؛ المرجع السابق، ص، **158**.
5- المرجع نفسه؛ الصفحة نفسها.
6- آرنولد توينبي؛ حرب وحضارة، ص، **19**.
7- المصدر نفسه؛ ص، **20**.

3-3- سكـــرة النصـــر:

إنّ أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه جيش قوي أو دولة مسيطرة والمقصود من ذلك تقنية عسكرية متقدّمة، هو أن تعيش في حالة نرجسية فتنام على أمجادها وتستغرق في الإيمان بعظمة وخلود انتصاراتها، إذا لم يتبيّن لها في ذلك الحين أي قوة أخرى مجابهة.

فكيف يبيّن توينبـــي ذلك ؟

فقد تركزّت جهود الأبطال عبر التاريخ حول اكتساب المجد والطموح وإرضاء العقيدة... غير أنهم لم يقاتلوا من أجل رؤية نصرهم القريب أو من أجل أنّ طريقهم إلى تخليص مجتمعهم محدود وواضح، إنما كانوا يصنعون تلك الأمجاد لتخلد خلود الأوديسة Odyssée والإلياذة Iliade [1].

ضلّت هذه الأمجاد الموضوعة عبر حقب طويلة من التاريخ البشري مادة زخمة تتغذّى منها الشعوب التي تسعى لأن تؤمن بأنّ انتصارات أمجادها أبدية.

يوضّح توينبي هذا الأمر ويقول: «**إنّ أحد أكثر الأشكال التي تعلق بمأساة التطرّف والقسوة والكارثة شمولا هو شكل سكرة النصر**»[2]. أي الإيمان الزائف بدوام نصرها.

ولعلّ المحفز الأوّل لمثل هذا الشعور في نظر توينبي هو الاعتقاد بأنّ إلحاق الهزيمة بخصم قوي والاستهانة ليس في إزالته من المعركة فحسب بل من الوجود أيضا، ينتج عنه إيمان قوي بأنّه لم يعد هناك أي قوة حاضرة تستطيع المواجهة والتحدّي ليس في تلك الرقعة من الأرض فحسب بل في العالم بأسره.

ومثال هذه الخديعة الشعورية في تاريخ الحضارة الرومانية على سبيل المثال. فإنّ أولى ردود الفعل عند الجيل الذي عاش تلك المغامرة المدهشة، هو تصوّره بأنّ تلك القوة المادية لا الروحية التي تمكّنت من بسط نفوذها على جزء مهم من العالم وتحقيقها لنصر تاريخي لن تقام من جديد. ومعنى ذلك في نظرهم أنها تشكّل مفتاحا لكل الحلول الإنسانية[3]، فبروز بطل مثل "هانيبال" Hannibal (*)(**247 - 182ق.م**) محاولا الردّ على اجتياح الرومان لبلاده جعلهم يهبّون لتلقينه درسا تاريخيا، هو أنّه لا توجد قوة يمكن أن تهدّد أمن روما. فمن هذا المنطلق كان الرومان يردّون على أعدائهم.

لكن تماديهم في هذا الشعور، جعل الثمن الذي دفعوه في الأخير مكلّفا جدا وهو زوال الإمبراطورية بأكملها من على وجه التاريخ. إنّ هذا الدرس هو الذي ضلّ التاريخ يعيده من جيل إلى جيل. فالمنتصرون الرومانيون كما يرى توينبي:«**لم يستطيعوا أن يفهموا أنّ هذه الحالة تشكّل الدليل على الانكسار الأخلاقي**

1- مالك ابن نبي؛ شروط النهضة، ص، 19.

2- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، 117.

3- المصدر نفسه؛ ص، 119.

(*) هانيبال Hannibal : القائد البربري العظيم الذي شنّ حملة عسكرية على روما، انطلاقا من اسبانيا وعبر جبال الآلب، يوم كان مجرّد التفكير في مواجهة روما ضربا من الجنون. وكان ذلك سنة 218 قبل الميلاد.

الذي استطاع مهزوم الحرب هنيبعل أن يصيبهم به، إنهم لم ينتبهوا إلى أنّ العالم الذي انتصروا عليه كان أطلالا وأنّ جمهوريتهم الرومانية المظفرة المنتصرة كانت مثخّنة بالجراح أكثر من كل الدول التي تألفت منها»[1].

إنّ تمثيل توينبي هذا يفنّد لنا كيف أنّ أكبر الإمبراطوريات في العالم القديم قد وقعت في هذا الخطأ، وإن كان خطأ على مستوى العامل النفسي أكثر من ما هو على مستوى العامل المادي، أي أنّ المادة ليست المتسببة في الخسارة، إنما الشعور المبالغ فيه أو الزائد عن حده بالاعتزاز بالنصر المحقّق. ويضيف توينبي: **«لقد كانت أكبر المآسي، هي المأساة التي سببوها لأنفسهم»**[2].

ومعنى هذا، أنّ هذا الاعتقاد المضلل هو الذي أودى بالطبقة الرومانية الحاكمة إلى الهلاك بعد فتح العالم اليوناني والاستيلاء على ما أنجزته الحضارة اليونانية، وكان أيضا سبب خراب الأيبيريين(*) بعد سيطرتهم على العالم الجديد في ما وراء البحار في بداية الأزمنة الحديثة من التاريخ الغربي. وهو ذاته سبب نكوص الهيمنة البريطانية في كل من البنغال وكندا[3]. البريطانيون الذين كانوا عند كل يحسّون نصر بأنّ شمس مجدهم في أوجّها ويزعمون أنّها لن تبرح مكانها [4].

وغرض توينبي من إيراد هذه الأمثلة هو الإثبات:

بأنّ الإمبراطوريات المتتالية في العصور اللاحقة لعصر الإمبراطورية الرومانية المظفّرة لم تستفد من ذلك الدرس القاسي الذي لقّنته سكرة النصر **griserie de la victoire** لمثل تلك الدول العالمية القديمة.

ولا يتوقف توينبي عند هذا الحد، بل يثبت أيضا بأنّ تطوّر التسليح الدفاعي يخلق ميلا لا يقاوم لتسليح مستمر ولكنه يؤدي دائما إلى عواقب وخيمة.

ودليله على ذلك في قصة سيدنا داوود عليه السلام مع "جالوت" Goliath، إذ أنّ هذه القصة تعطي درسا قيّما للأجيال القادمة حول سير المنافسة الإنسانية في ميدان التسليح، فقد برهن التاريخ بأنّ الجندي المكسو بالدروع"كجالوت" أو "هكتور" Hector طروادة Troie لم يمت نتيجة لمقلاع داوود أو قوس "فيلوكتاث" Philoctète بل نتيجة اعتقاده الزائف بأنّه القوة التي لا تقهر[5].

«فالفشل المتتابع لسلاح الحارس يثبت أنّ الفكر ينتصر حتى في مستويات التطوّر الدنيا على المادة الصرفة، إنّ هذا النوع من الانتصارات هو الذي يثبته مثال الإنسان في أعلى مستوى»[6].

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

2- المصدر نفسه؛ الصفة نفسها.

(*) الاسبان والبرتغال.

3- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، 123.

4- الحضارة في الميزان، ص، 25.

5- TOYNBEE (Arnold), L'Histoire, p. 189.

6- آرنولد توينبي؛ الحضارة في الميزان، ص، 127.

فالمصائر المشؤومة للكتائب الإسبرطية(*) والمقدونية(*)(*) والفارسية(*)(*)(*) وجيش الخليفة البغدادي **(1258م)** دليل واضح على ذلك. ففي هذا الجيش بالتحديد نلاحظ كيف تغلّب الفارس المغولي من طراز داوود عليه السلام، أي بسيط التسلح على الفارس البغدادي من طراز "جالوت" ولكن ليس من الجانب المادي فحسب إنما كذلك من الجانب المعنوي، وهو المهم أكثر حسب توينبي[1]. إذ اعتقدت جيوش المسلمين أنّه لا قاهر لها بعد أن بلغت بالحضارة الإسلامية أوجّها، فهذا الاعتقاد هو الغالب الحقيقي لفرسان الخليفة البغدادي.

ويواصل توينبي بأنّ الأمر نفسه قد حدث لجيوش المغول mongols فقد أصيبت هي الأخرى بسكرة النصر ذاتها عندما تبيّن لها أنّ بإمكانها سحق مماليك سوريا ومصر كما فعلت مع جيش بغداد. فقد اعتقدت بأنّ هزيمتها لهذا الجيش دائمة ومعمّمة في القريب العاجل على حلفائه، لكن تجهيزات هؤلاء، يبيّن توينبي: «**لم تكن أحسن أو أسوأ من تجهيزات الفرسان العباسيين المسلمين الذين هزموا شر هزيمة قبل سنوات قليلة في معركة نهر بشير، ولكنهم كانوا في تكتيكهم أمناء لاسمهم ونظامهم، وكانوا خاضعين لنظام كان سببا في الانتصار الذي أحرزوه على الرامي المغولي**»[2]. فسراب الخلود بدوام النصر من بسط نفوذ وسيطرة تامة هو السبب الحقيقي في زوال ذلك النصر ذاته، عاجلا أم آجلا. وفي هذا قراءة واضحة لمستقبل الحضارة الغربية المسيحية أو بالأحرى لمستقبل التقنية العسكرية الغربية الحالية. إذ بإمكان الكرّة نفسها أن تعود وتمس التفوّق العسكري الغربي المهيمن على العالم حاليا، وإن بدأت معالم تزلزله تظهر مع تفاقم أزمات الحضارة الغربية مع العالم وتعدّد محاولات ضربها. فالأسلحة النووية تهدّد الغرب بشكل واضح، مثال ذلك الصين وروسيا وكوريا الشمالية وباكستان والهند. تعمل حاليا هذه الدول كلّها على توسيع مدى صواريخها ومن المحتمل جدا أن تصبح قادرة عل تهديد الغرب[3] تهديدا مباشرا، إضافة إلى الملف الإيراني النووي الحالي والزوبعة التي أقامها حول عملية تخصيب اليورانيوم. فـ«**التـــأليه هو سبب البلاء، لا أية صفة من جوهر الشيء**»[4]. هذا التأليه الذي

(*) إلغاؤها بضربة واحدة عام **338** قبل الميلاد، بنشوء التشكيل المقدوني.

(*)(*) الهزيمة النهائية عام **168** قبل الميلاد في معركة بيدنا على يد آله الحرب الرومانية.

(*)(*)(*) الهزيمة النهائية عام **168** قبل الميلاد في معركة بيدنا على يد آله الحرب الرومانية.

1- آرنولد توينبي؛ المصدر السابق، ص، **139**.

2- المصدر نفسه؛ ص، **140**.

3- صموئيل هنتنغتون؛ صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي، ص، **300**.

4- آرنولد توينبي؛ المصدر نفسه، ص، **141**.

نلحظه اليوم في تمجيد الحضارة الغربية لانتصاراتها، وهو السبب الذي دفعنا للجزم بأنها ستلاقي نفس المصير أي مصير الحضارة الرومانية بعد اعتمادها على التأليه ذاته.

ومجمل القول أنّ النصر لا يجب أن يصل إلى درجة السكرة، وإلا فقد وقّع شهادة وفاته والهزيمة هي بمثابة نصر أولي ينبغي الاعتبار منه وإلا تحوّل إلى هزيمة أبدية كما هو حال الحضارات والقوى العسكرية السالفة الذكر والتي يتكفل التاريخ الإنساني بعرض نهاياتها المريرة. إنّ النصر الذي يعقبه استخفاف في نظر توينبي، ينتهي بهزيمة ساحقة، وهذا ما لا يخدم الحضارة. فتاريخ الإنسانية يعرض لنا عهودا طويلة لم يخل منها قرن من الزمان، بدأت بقتل "قابيل" لأخاه "هابيل" ومن ثمّ فإنّ صراع الحضارات لبعضها البعض هو السائد اليوم، والدليل على ذلك اختلاف هذه الحضارات[1].

- **تعقيـــب:**

في الإجابة عن السؤال الأساسي في هذا الفصل والذي يتضمن موقف توينبي الخالص من قضية دور الدين المسيحي في بناء الحضارة المسيحية الغربية.

رأينا كيف قام التبشير في الديانة المسيحية بنشرها خارج حدود حضارتها المسيحية الغربية، وكيف نجح بوصفه عاملا معزّزا من قوة السيطرة وبسالة النفوذ من التوغّل بعيدا في داخل الحضارات الأخرى: المسيحية الشرقية والحضارة العربية الإسلامية والحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى. وكيف حافظ على الصورة السطحية للتبشير رغم احتوائه على أهداف ومطامع غربية تبعد عن الرسالة الروحية بعدا كبيرا مما أسفر عن رفض المسيحية في بعض المناطق من العالم من ذلك الشرق الأقصى. إلا أنّه مكّن الحضارة الغربية من الإحاطة بالقارات الخمس وحمل المثل والقيم الغربية إلى أبعد نقطة على الأرض، ولكن هذا لا يعني أنّ رجالات الفكر في هذه الحضارات غافلون عن مثل هذه التوغّلات الخطيرة من طرف ممثلي الديانة المسيحية بغية التبشير بدينهم من ذلك الموقف الصريح والواضح ل"مولود بلقاسم نايت بلقاسم" في الجزائر الذي قال: « **قلنا لهم مرارا وتكرارا اعتنوا بأبنائكم ... واتركوا أبنائنا لنا، وانّه عمل نستطيع أن نقول أنّه مشترك عندما تحافظون على أبنائكم في إطار الكتب المنزّلة، فهو كسب لنا وربح في نظرنا**»[2]. وقد أراد توينبي كذلك تبيين القيمة والمكانة الكبيرتين التي من شأن التسامح والتعصّب الديني المسيحي أن يوظّفاها لتقوية الحضارة الغربية، ورغم أنّ كليهما قد سعى من أجل تحقيق هذا الهدف سعيا كبيرا وتمكّنا فعلا من فعل الشيء الكثير إلا أنّ احتوائهما كما التبشير على أهداف أخرى حال دون اكتمال الصورة الجميلة للمسيحية التي أرادا أن يرسماها للعالم. مع الاعتراف أنهما دفعا الحضارة الغربية إلى الأمام رغم الإساءة للرسالة المسيحية في حد ذاتها.

1- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر؛ في فلسفة الحضارة (اليونانية-الإسلامية-العربية)، ص، 19.

2- مولود بلقاسم نايت بلقاسم؛ إنيّة وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، دط، 1975.

ويعترف توينبي بأنّ دين الحضارة الغربية الحالي هو القومية وذلك لحلولها محل الديانة المسيحية الحقيقية، فالمجتمعات الغربية استعاضت عن عبادة الله بعبادة نظام أو معتقد قومي وتمكّنت هذه القوة الروحية من إعلاء كلمة الحضارة المسيحية الغربية. والحقيقة أنّ الدين المسيحي مغلّف بغطاء القومية قد أسهم بفاعلية لا نظير لها في إخضاع شعوب العالم للقومية الغربية الحديثة على غرار الدين الإسلامي حيث يرى "باقر الصدر" أنّ القرآن الكريم لم يطرح نفسه بديلا عن قدرة الإنسان الخلاّقة وعن مواهبه وقابلياته، فالقرآن الكريم قد طرح نفسه طاقة روحية موجّهة للإنسان، معجزة لطاقاته، محرّكة له في المسار الصحيح، الشيء الذي لم تفعله المسيحية كدين للحضارة الغربية[1].

ويبغض توينبي الحرب ويضعها مع القومية في منزلة واحدة لأنها وببساطة دين الحضارة الحالي، كذلك عملت الحروب الدينية كما الحروب القومية على الاستماتة في مجابهة كل القوى التي من شأنها الوقوف في وجه توسّع الحضارة المسيحية الغربية الذي لم يعد له حدود بتدخّله الصارخ في الشؤون الداخلية لمجتمعات عديدة. وإنّ التقديس الحالي للقوة العسكرية مكّن الحضارة المسيحية الغربية من التحكم بمصير كامل المجتمعات في العالم وإن لم تصرّح بذلك، إلا أنّ تواجدها في كل مكان بتقنياتها العسكرية المتفوّقة خاصة، المستعدة لمواجهة أي قوى أخرى، وإن كانت تبدي القلق اليوم بشأن هذه القوى التي تسعى للبروز إلا أنّ الدرس الأمريكي في العراق كفيل بأن يعطينا نظرة مستقبلية عن المواجهات التي من الممكن أن تحدث في المستقبل. وبما أنّ الحضارة الغربية مختلفة عن المجتمعات الأخرى، فقد ولّد هذا الاختلاف صدامات عديدة مع شعوب هذه الحضارات في العالم. ولكنها تخفي في داخلها قوة كبيرة ذات أبعاد عديدة كالصرح الثقافي والسياسي والاقتصادي الذي عملت La Respublica Christiana عبر القرون الوسطى الطويلة على تمتين قواعده وأساساته حتى يحمي الحضارة المسيحية الغربية من أي صدامات من الممكن أن تواجهها في طريقها نحو العالمية. لكن ومع كل هذا الحضور المسيحي وإن تعددت غطاءا ته من قومية أو نزعات عسكرية أو تمويه بالتسامح، إلا أنّ العالم الغربي يعيش في نظر توينبي في فراغ روحي كبير والسبب في ذلك من دون شك هو تحويل الدين المسيحي عن رسالته الحقيقية وتوظيفه بقوة في وضع قواعد لسيادة عالمية بالقوة. و من قراءتنا لتوينبي يمكننا أن نقول أنّ المسيحية الحالية هي صورة ثالثة عن المسيحية الأولى التي أتى بها السيّد المسيح عليه السلام والثانية التي حوّلها القدّيس بولس والثالثة التي تحضر بقوة اليوم في المجتمع الغربي وإن لا يبدو ذلك واضحا بشكل كبير. ومظاهرها هي العناصر التي عالجها توينبي والتي كان موضوعيا في حكمه عليها بشكل كبير. لقد بنت هذه المسيحية الثالثة الحضارة المسيحية الغربية الحالية وإن كانت قد اعتمدت على صورتها الثانية التي وضعها القدّيس بولس ومع أنّ هذا البناء يحتوي على مواطن كثيرة من الزيف إلا أنّه ما يزال مستمرا وإلا لماذا يتنبّأ المفكرون الغربيون في مجملهم بأفول الغرب المسيحي لو لم يلمسوا هذا الزيف فعلا وبصورة موضوعية.

1- www .ahlolbayt.net/books/mogtama/b.tm(07-12-2007)

خاتمـــــــــة

وبعد هذا العرض الشامل لدور الدين المسيحي في بناء الحضارة المسيحية الغربية والمكانة التي يحتلها في المجتمع الغربي وإن اتخذ أوجها عدّة، نوجز ما توصلنا إليه من هذه المعالجة.

لكن قبل ذلك نوضّح أولا الغاية التي دفعتنا لاستقصاء كنه البعد الحضاري الديني لدى توينبي، وهي محاولة تحديد الدور الذي يلعبه الدين في عملية بناء الحضارة، وبالضبط الدين المسيحي في الحضارة المسيحية الغربية والوقوف على أهم العوامل التي دفعت عجلة هذه الحضارة وتحليلها واستخلاص النتائج منها.

فإزاء فضائع الحرب العالمية الأولى بدأ مفكروا الغرب في توجيه النقد لحضارتهم، ذلك أنهم لاحظوا عن قرب نواتجها الطبيعية التي جعلت هدفها الأساسي الكسب المادي على حساب ما هو روحاني. وهو ما جعل موضوعنا يبحث عن تفسير فلسفي لمشكلة الحضارة الغربية وبخاصة في ضوء التقدّم التكنولوجي الباهر.

ويتميّز توينبي بمنهجه التاريخي الذي استطاع من خلاله أن يدمج في عرضه قدرا هائلا من المادة المعرفية الواقعية الدقيقة المستمدة من واقع التراث الإنساني ومن واقع المجتمعات التي خصّ حضاراتها بالبحث والتحليل.

وإنّه لا ضرر إن قدّم توينبي بعض التفسيرات التي لا تتوافق مع طبيعة بعض المجتمعات أو بعض المواقف التي من الممكن جدا أن يعترض عليها المتخصصون، فهذا أمر وارد بالنسبة لكل باحث وخاصة بالنسبة لمؤرخ فيلسوف يرسم صورة على هذا القدر من الشمول للتاريخ العالمي.

وبما أنّه ينتمي لنموذج المؤرخ الفيلسوف أكثر منه للمؤرخ الباحث المدقّق في التفاصيل، فهذا لا يعني أنّه لم يكن مؤرخا حقيقيا وباحثا واقعيا دقيقا في تناول مواضيع بحثه. إنما معناه أنّه كان على استعداد كبير للتركيز أكثر على المغزى الفلسفي في كل دراسة بدلا من الإمعان في الوصف التاريخي وإن كان على قدر كبير من الدقة.

وهكذا نستطيع أن نضفي على بحثه صفات المؤرخ الفيلسوف أكثر من صفات المؤرخ المتخصص والذي يتميّز أكثر بحجم التفاصيل المعروضة في دراسته، وذلك راجع لأنّ هذا النوع من المؤرخين متوافر على قدر كبير في حقول البحث عبر العالم، غير أنّ النوع الأول فأصحابه هم من القلّة النادرة التي تتوفر لها من البصيرة النافذة ما يمكنها من القيام بعمليات تحقيق وتوحيد شاملة تضم كل تفاصيل الدراسات والبحوث التفصيلية التي توصّل إلى انجازها المؤرخون من النوع الأول.

ولا يختص البحث التاريخي بهذه الصفة لوحده إنما تختص به كل العلوم على اختلاف أنواعها: إذ يقف على تقصّي حقائقها الباحث المتخصص المحقق بالبراهين والأدلة العلمية، الذي يسعى جاهدا لإلقاء الضوء على كل ناحية من نواحي البحث الذي يخصه بالدراسة.

وتضم أيضا صاحب النظرية الشاملة الذي في وسع بصيرته الامتداد إلى أوسع الآفاق، فيقف بذلك على كل الجزئيات في عملية واحدة جامعة مانعة.

والنوعان إذا من المؤرخين لازمان معا لتقدّم المعرفة الإنسانية وبذلك العلوم البشرية كلها، إلا أنّ فضل الأول منهما في اجتهاده أما فضل الثاني فهو في عبقريته التي من الممكن أن لا تتكرر وهذه هي المنزلة التي ينتمي إليها توينبي، ذلك أنّه جمع في منهجه بين العرض التاريخي الدقيق والتحليل الفلسفي الممنهج.

ففي الفصل الأول من هذه الدراسة توصلنا إلى أنّ العامل الحقيقي المتحكم في قيام الحضارات وارتقاءها ومن ثم سقوطها واندثارها هو عملية التحدّي والاستجابة، فإن نجحت استجابة الحضارة لتحدّي معين، ضمنت بقائها لا بل وتدرّجها في مختلف درجات الارتقاء وأما إن عزفت عن هذه الاستجابة الناجحة فإنّ مآلها كان التدهور والانهيار، والتاريخ الإنساني شاهد على أمثلة كثيرة من هذه الحضارات.

صحيح أنّ نمط الميلاد والازدهار ومن ثم الفناء قد سرى في واقع الحضارات الماضية لكن هذا لا يعني بالضرورة أنّ الحضارات الخمس الباقية: الحضارة المسيحية الغربية والحضارة المسيحية الشرقية والحضارة العربية الإسلامية والحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى، ستخضع بدورها لهذا النمط.

إذ من الممكن أن يظهر عامل ما يتولى عملية الإنقاذ هذه وقد أثبت توينبي أنّه الدين.

وأما عن الفصل الثاني من دراستنا فقد أوردنا فيه كيفية نشوء الأديان العالمية من رحم الدول العالمية، وبما أنّ موضوعنا يتناول الحضارة المسيحية الغربية فقد بحثنا في فلسفة توينبي عن كيفية انبثاق الدين المسيحي من رحم الدولة العالمية المزامنة لظهوره وهي الإمبراطورية الرومانية، حيث لا حظنا أنّه استفاد وبدرجة كبيرة من شساعة الإمبراطورية وضمّها لشعوب وقبائل عديدة مما ساعده على الانتشار أكثر فأكثر.

كذلك استفادته من تنظيم الإمبراطورية المحكم من شبكة طرق ومواصلات ووحدة اللغة والشرائع مما يسّر مهمة انتشار الدين لا واكتسابه قوة ونفوذا استمدهما من قوة ونفوذ الإمبراطورية الرومانية التي نما في كنفها.

وعمدنا في الفصل الثالث وهو الفصل التطبيقي من هذه المذكّرة إلى تحليل موقف توينبي الخاص بقيام هذا الدين العالمي المنبثق عن الدولة العالمية في بناء أحد أكبر الحضارات القائمة اليوم إن لم نقل أكبرها على الإطلاق، وهي الحضارة المسيحية الغربية، نظرا لحضورها القوي على مستوى العالم بأسره وذلك في كل المجالات فضلا عن تحكّمها بالتكنولوجيا العالمية وإن زاحمتها الحضارات الأربع الأخرى.

ونخلص بذلك مع توينبي إلى نتيجة مفادها أنّ القوة الحالية التي أفرزتها ميكانيكية الصناعة الغربية كانت ولا تزال لها انعكاسات مأساوية على الحضارة الغربية، وما كان لذلك من تولّد إحساس غربي بالأفول déclin de l'occident دفع المفكرين الغربيين ومن بينهم توينبي إلى البحث عن رؤى بديلة في محاولة لتوجيه المجتمع إلى الطريق الذي لا يؤدي بحضارته إلى الانحدار، ويتمثّل هذا الحل في التمسّك بالطاقة الروحية الكامنة في داخل الإنسان وهي الدين. فأزمة الحضارة المسيحية الغربية التي دارت حولها فلسفة توينبي إذا هي التخلّي عن الدين الحقيقي أي المسيحية الحقيقية والاستعاضة عنه بأديان أخرى من وضع الإنسان الغربي.

إنّ المسيحية التي بنت الحضارة المسيحية الغربية طوال القرون التي قضت هي وجه آخر للمسيحية الأولى يتخذ من القوة العسكرية والقومية... مظاهرا له، وهذا يعني أنّ المسيحية التي قامت على مجهودات كنيستها الجبارة الحضارة الغربية، هي مسيحية زائفة ومنه فالبناء الذي قامت به بناء زائف، وهذا ما يفسّر جهود المفكرين الغربيين المضنية في محاولة لإيجاد حل ما لتفادي الأفول.

وأحد هذه الحلول المقترحة هو العودة للدين وإضفاء الصفة الروحية على الحضارة، لأنّ الصفة المادية التي هي وليدة الثورة الصناعية الغربية خاصة قد تمكنت منها بقدر يدعو للقلق.

إنّ الحل الكبير الذي يقترحه توينبي هو أولا:

- تحقيق جسم سياسي على سعة الكرة الأرضية من شأنه توحيد كل السياسات وبالتالي تفادي اصطدامها وتناحرها الحالي من هنا فصاعدا. ويكون له من القوة أن يحتوي جميع الدول حتى يحس المواطن في كنف الحضارة بالدفء في تعاملاته الإنسانية بدلا من النزوع إلى الحرب، في دولة- العالم.

- ونظام اقتصادي يكون بمثابة حل عملي وسط بين المشروعات الحرة والمشروعات الاشتراكية، يمكّن بالتالي الشعوب المقهورة من نيل حصّتها من الغداء على سبيل المثال.

- وإحياء القيم الروحية للإنسان، ويتمثّل هذا الحل الأخير وهو أهم الحلول جميعا في التمسّك بالدين، العامل الحقيقي الذي تسبب غيابه في اندثار واحد وعشرين حضارة ظهرت في الوجود ولم يبقى منها إلا التي كان الدين الأساس الذي قامت عليه.

وبما أنّ للإنسان روح، فعليه أن يوجّه هذه الروح في خدمة العلاقات الإنسانية التي سيطرت عليها ميكانيكية الصناعة الغربية بصفته أعقل المخلوقات التي وجدت على الأم- الأرض، والتي يتميّز عنها في أنّ له روحا وهذا يعني أنّه على اتصال دائم مع حقيقة روحية أعلى من هذه الأرض.

فهرس الآيـــات

1-1- فهـرس الآيــــات

- القـــرآن الكـــريم:

الرقـــم التسلسلي	الســـورة	الآيـــــــــــــة	رقم الآيـــة	الصفحة
1	البقرة	"وآتي المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب"	177	60
		"لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي"	256	168
2	آل عمران	"الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان"	2- 3- 4	93
		"ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون"	112	83
3	النساء	"وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتبّاع الظن وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما"	157- 158	85
		"يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه"	171	58
4	المائدة	"لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم"	72	100
		"لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة"	73	99
		"وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني و تبرئ الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني"	110	107
		"وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيدا ما دامت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم"	116- 117- 118	84
		"ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم"	117	88
5	يونس	"فإن كنت في شك ممّا أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربّك فلا تكونن من الممترين"	94	84
6	الحجر	"إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون"	09	90
7	النور	الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر"	02	58
8	العنكبوت	"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون"	46	83
9	الروم	"فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"	30	58
		"ذلك الدين القيّم"	30	57
10	الزمر	"فاعبد الله مخلصا له الدين"	02	58
		"ألا لله الدين الخالص"	03	57
11	الصّف	"هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق"	09	57
12	الغاشية	"فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمصيطر"	21- 22	168

13	الإخلاص	"قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفؤا أحد"	1- 2- 3- 4	58

- الحـــديث النبـــوي الشريـــف:

الرقم التسلسلي	الحـــــــــــــــديـــث	الراوي	الصفحة
1	"لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى"	البخاري	24

- آيـــات الكتـــاب المقـــدّس:

الرقـــم التسلسلي	اسم السفـــر	الإصحاح	الآيـــــــــة	رقم الآيـــة	الصفحة
1	تكوين	1	"فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم، وباركهم الله و قال لهم أثمروا وأكثروا وأملئوا الأرض وأخضعوها و تسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدّب على الأرض"	28-27	07
		3	"وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرّية... فقالت للمرأة أحقّا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحيّة من ثمر الجنة نأكل وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه... فقالت الحيّة للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر"	5-1	28
			"فقال الرّب الإله للحيّة لأنّك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم... وقال لآدم... ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك... بعرق وجهك تأكل خبزا، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنّك تراب وإلى تراب تعود"	19-14	29
2	خروج	21	"إذا اشتريت عبدا عبرانيا، فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا مجّانا"	02	59
3	أيّوب	1	"كان رجل في أرض عوص اسمه أيّوب، وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما، يتّقي الله ويحيد عن الشر... فقال الرّب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيّوب... فأجاب الشيطان الرّب وقال: هل مجانا يتّقي أيّوب الله، أليس أنّك سيّجت حوله وحول بيته وحول كل ماله من كل ناحية... ولكن أبسط يدك الآن، ومسّ كلّ ماله فإنّه في وجهك يجدّف"	11 -1	29
4	إنجيل متّى	5	"لمّا رأى الجموع، صعد إلى الجبل، فلمّا جلس تقدّم إليه تلاميذه، ففتح فاه وعلّمهم قائلا:طوبى للمساكين بالروح، لأنّ لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانـــى لأنّهم يتعـــزون. طوبى للو دعاء، لأنّهم يرثـــون الأرض. طوبى للجياع و العطاش إلى البّر، لأنّهم يُشبعون. طوبى للرحماء، لأنّهم يُرحمون. طوبى للأتقياء القلب، لأنّهم يُعاينون الله. طوبى لصانعي السلام، لأنّهم أبناء الله يُدعون. طوبى للمطرودين من أجل البّر، لأنّ لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من	12 -1	91

		أجلي كاذبين. افرحوا و تهللوا، لأنّ أجركم عظيم في السماوات. فإنّهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم"			
		"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل فاني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل"	17 - 18	82
		"وكان يسوع يطوف المدن كلّها والقرى، يعلّم في مجامعها، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف بالشعب"	35	107
		"ولا يجعلون خمرا جديدة في زقاق عتيقة لئلا تنشق الزقاق فالخمر تنصب والزقاق تتلف"		
		"وأنا أقول لك أيضا، أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات، وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولا في السماوات"	18 - 19	97
		"وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات"	19	132
		"إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعالى اتبعني"	21	123
		"يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات"	23	123
		"ها نحن قد تركنا كل شيء، وتبعناك "	27	124
		"من ترك بيوتا، أو إخوة أو أخوات، أو أبا أو أما، أو امرأة أو أولادا، أو حقولا من أجلي، يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية"	29	123
		"ولمّا كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به، ودفعوه إلى بيلاطس البنطي الوالي"	1	86
5	إنجيل مرقس	"إنّ أوّل كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل، الرّب إلهنا ربّ واحد، و تحب الرّب إلهك، من كل قلبك، و من كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك"	29 - 30	82
6	إنجيل لوقا	"فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلّلك، فلذلك أيضا القدّوس المولود منك يدعى ابن الله"	35	58
		"أمّا أعدائي، أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدّامي"	37	129
7	إنجيل يوحنّا	"هو ذا حمل الله الذي يرفع خطيّة العالم"	29	87
8	أعمال الرسل	"وكانت عجائب وآيات كثيرة تُجرى على أيدي الرسل، وجميع الذين آمنوا كانوا معا وكان عندهم كل شيء مشتركا"	43 - 44	146
		"وحدث في ذلك اليوم، اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتت الجميع في كور اليهودية، والسامرة، ما عدا الرسل... وأمّا شاول فكان يسطو على الكنيسة، وهو يدخل البيوت، ويجرّ رجالا ونساءا، ويسلّمهم إلى السجن"	1 - 3	95

		"هذا هو موسى، الذي قال لبني إسرائيل، نبيا مثلي سيقيم لكم الرّب، إلهكم من إخوتكم، له تسمعون، هذا هو الذي كان في الكنيسة في البرّية مع الملاك الذي كان يكلّمه في جبل سيناء، ومع آبائنا"	7	38 -37	94
		وأخرجوه خارج المدينة ورجموه... فكانوا يرجمون استفانوس وهو يدعو ويقول: أيها الرّب يسوع، اقبل روحي. ثم جثا على ركبتيه وصرخ بصوت عظيم: يا ربّ لا تقم لهم هذه الخطية. واذ قال هذا رقد.	7	59-58- 60	95
		وكان شاول راضيا بقتله	8	60	95
9	الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس	"إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبّة، فقد صرت نحاسا يطن أو صنجا يرن، وإن كان لي كلّ الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبّة فلست شيئا، وإن أطعمت كلّ أموالي وإن سلّمت جسدي حتى أحترق ولكن ليس لي محبّة، فلا أنتفع شيئا"	13	3 -2 -1	123
		"المحبّة تتأنى وترفق، المحبّة لا تحسد، المحبّة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبّح و لا تطلب ما لنفسها. ولا تحتّد ولا تظن السوء ولا تفرح بالحق. و تحتمل كل شيء وتصدّق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء. المحبّة لا تسقط أبدا"		8 -7 -6 -5 -4	123
10	الرسالة الأولى إلى أهل غلاطية	"فإنّه مكتوب أنّه كان لإبراهيم ابنان، واحد من الجارية و الآخر من الحرة... إذا أيها الإخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد الحرة"	4	31 -22	60
11	الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي	"إن تحرصوا على أن تكونوا هادئين وتمارسوا أموركم الخاصة وتشتغلوا بأيديكم"	4	11	69
12	الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي	"ولا أكلنا خبزا مجّانا من أحد، بل كنّا نشتغل بتعب وكدّ، ليلا ونهارا، لكي لا نثقل على أحد منكم، ليس أنّ لا سلطان لنا بل لكي نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثّلوا بنا"	3	9 -8	144
		"إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا"		10	143
		"لأنّنا نسمع أنّ قوما يسلكون بينكم بلا ترتيب، لا يشتغلون شيئا بل هم فضوليون"		11	145
13	رسالة بطرس الرسول الأولى	"وأمّا أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكي، أمة مقدّسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب، الذين قبلا لم تكونوا شعبا، وأمّا الآن فأنتم شعب الله، الذين كنتم غير مرحومين، وأمّا الآن فمرحومون"	2	10 -9	94
		"فاخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرّب"		13	94
		"لهذا دعيتـــم، فإنّ المسيح أيضا تألّم لأجلنا، تاركا لنا مثالا، لكي تتّبعوا خطواته... لأنّكم كنتم كخراف ضالة، لكنّكم رجعتم الآن إلى راعي نفوسكم وأسقفها"		25 -21	94
14	رسالة يوحنّا الرسول لأولى	"أيّها الأولاد، لا يضلّكم أحد، من يفعل البر فهو بار، كما أنّ ذاك بار- أي المسيح- ومن يفعل الخطيّة، فهو من إبليـــس، لأنّ إبليسا من البدء يخطـــئ"	3	8 -7	97

فهرس

المصـــادر و المراجـــع

- قائمة المصـــادر و المراجـــع:

- أولا - المصـــادر:

1- بالعربيـــة:

1- القـــرآن الكـــريم

2- الحديـــث النبـــوي الشريـــف، صحيح البخاري.

3- الكتـــاب المقـــدّس

4- آرنولد توينبي، الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين محمود الشريف، دار إحياء الكتب العربية، حلب، سوريا، دط، دت.

5- _ _ ، العالم والغرب من الفكر السياسي والاشتراكي، ترجمة: روفائيل جرجس، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدّة، دط، دت.

6- _ _ ، فلسطين جريمة .. ودفاع، ترجمة: عمر الديراوي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، حزيران 1961.

7- _ _ ، تاريخ الحضارة الهلينية، ترجمة: رمزي جرجس، المكتبة الأنجلو مصرية، مصر، ط1، 1963.

8- _ _ ، من الشرق والغرب، محاضرات، ترجمة: فؤاد زكريا، الدار القومية للطباعة و النشر، دط، 1964.

9- _ _ ، حرب وحضارة، ترجمة: غياث حجار، منشورات دار الاتحاد، بيروت، لبنان، دط، 1973.

10- _ _ ، الوحـــدة العربية آتية ! من النيل إلى النيجر، ترجمة: عمر الديراوي أبو حجلة، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1979.

11- _ _ ، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، ترجمة : نقولا زيادة، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1986.

12- آرنولد توينبي ودايساكو إكيدا، التحدّيات الكبرى: الحياة والدين والدولة – حوار، ترجمة: محمود متقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، دط، 1999.

2- بالفرنسيـــة:

13- **TOYNBEE (Arnold), Afrique arabe, Afrique noire,** Traduit de l'anglais par Yves THOROLA, Paris, Sindbad, **1972.**

14- _ _ **, L'Histoire,** Traduit de l'anglais par Jacques POTIN et autres, Paris-Bruxelles, Elsevier Séquoia, **1975.**

- ثـــانيا – المراجـــع:

1- بالعربيـــة:

1- اتين جلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مصر، ط3، 1996.

2- إحسان محمّد الحسن، علم الاجتماع الديني: دراسة تحليلية حول العلاقة المتفاعلة بين المؤسسة الدينية والمجتمع، دار وائل للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2005.

3- أحمـــد عبد الرحيم السايح، بحوث في مقارنة الأديان: الدين- نشأته- الحاجة إليه،دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدوحة، قطر، ط1، 1991.

4- أحمـــد عبد الغفار عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، الجزء الثالث: المسيحية والمسيح، مكّة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1981.

5- أحمـــد محـــمود صـــبحي، في فلسفة التاريخ، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1996.

6- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة (اليونانية- الإسلامية- الغربية)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، دت.

7- إدريـــس هـــاني، حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002.

8- إدوارد كـــار، ما هو التاريخ ؟، ترجمة: ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980.

9- إرنـــست كاسيرر، **مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان**، ترجمة: إحسان عباس، دار الأندلس، بيروت، لبنان، دط، **1971**.

10- **إسماعيل زروخـــي، الدولة في الفكر العربي الحديث**، دراسة فكرية فلسفية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط**1**، **1999**.

11- **اشبنغلر اوزفالد، تدهور الحضارة الغربية**، الجزء الثاني، ترجمة: أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، دت.

12- **آلبان. ج. ويدجري، التاريخ وكيف يفسّرونه من كونفوشيوس إلى توينبي**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، **1972**.

13- **ألـــبرت اشـــفيتسر، فلسفة الحضارة**، ترجمة : عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط**3**، **1983**. وطبعة **1997**.

14- **الســـيّد البـــاز العـــريني، تاريخ أوروبا العصور الوسطى**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، **1968**.

15- **الشهرستـــاني، الملل والنحل**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة **2005**.

16- **العـــميد الركـــن طـــه الهـــاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، **1963**.

17- **القدّيـــس أوغسطـــين، اعترافات القدّيس أوغسطين**، ترجمة: الخوري يوحنّا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط**3**، دت.

18- **آمـــنة تـــشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط**1**، **1989**.

19- إميـــل برهييه، **تاريخ الفلسفة: العصر الوسيط والنهضة**، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط**2**، **يناير 1988**.

20- **باسكال بليـــز، خواطر**، مجموعة الروائع الإنسانية، ترجمة: ادوار البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، لبنان، دط، **1972**.

21- **بـــطرس بـــطرس غـــالي و محمـــود خـــيري عيـــسى، المدخل في علم السياسة**، المكتبة الأنجلو مصرية، دط، **1976**.

22- **تـــشارلز فـــرانكل، أزمة الإنسان الحديث**، ترجمة: نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، مطابع سيما، بيروت، لبنان، دط، **1959**.

23- **ج. ج. كولستون، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة**، مكتبة التاريخ الوسيط، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط**5**، **1983**.

24- **جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي**، ترجمة: منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**1**، **1993**.

25- **جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة**: محمّد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**1**، **1985**.

26- **جفـــري بـــارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط**2**، **1996**.

27- **جـــورج حـــنا، الحقيقة الحضارية**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط**1**، **1958**.

28- **جـــورج ســـباين، تطوّر الفكر السياسي**، الجزء الثاني، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر، ط**2**، **1954**.

29- **جـــوزيف كـــاير، حكمة الأديان الحيّة**، ترجمة: المحامي حسين الكيلاني، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، **1964**.

30- **جوزيـــف هورس، قيمة التاريخ: دراسة فلسفية**، ترجمة: الشيخ نسيب وهبة الخازن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، **1964**.

31- **جـــونسون، فلسفة وايتهيد في الحضارة**، ترجمة: عبد الرحمان ياغي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، **1965**.

32- **جون كولر، الفكر الشرقي القديم، عالم المعرفة**، ترجمة: كامل يوسف حسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد **199**، تموز **1995**.

33- **جـــون لـــوك، رسالة في التسامح**، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط**1**، **1988**.

34- **حسن حنفي، تطوّر الفكر الديني الغربي في الأسس والتطبيقات**، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**1**، **2004**.

35- **حـــسن علـــي مـــصطفى، نشأة الدين بين التصوّر الإنساني والتصوّر الإسلامي: دراسة في علم الاجتماع الديني**، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط**1**، **1991**.

36- **حسن محمّد الكـــحلاني، فلسفة التقدّم: دراسة في اتّجاهات التقدّم والقوى الفاعلة في التاريخ**، مكتبة مدبولي، مصر، دط، **2003**.

37- **ر. ج. كولنجـــوود، فكرة التاريخ**، ترجمة: محمّد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، مصر، دط، **1961**.

38- **رشـــتون كـــولمبورن، أصل المجتمعات المتحضّرة**، ترجمة: لمعي المطيعي، دد، دط ، دت.

39- **روجيـــه غـــارودي، في سبيل حوار الحضارات**، ترجمة: عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط**3**، **1986**.

40- **زينـــب الخضـــيري، لاهوت التاريخ عند القدّيس أوغسطين**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط**1**، **1992**.

41- **سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة**، سلسلة روائع الفكر الإنساني، ترجمة: السيّد يعقوب بدر، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

42- **سبنـــوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة**، ترجمة: حسن حنفي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط**3**، **1981**.

43- **ستيفـــن رنســـيمان، تاريخ الحروب الصليبية**، الجزء الأول: الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**1**، **1967**.

44- **سعيـــد عبد الفتاح عاشور، حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، **1972**.

45- **سفيان ابن الشيخ الحسين، بين الدين والفلسفة والعلم هل هناك تعارض ؟**، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، الجزائر، دط، دت.

46- **سليمـــان مظهـــر، قصّة الديانات**، مكتبة مدبولي، مصر، دط، **2002**.

47- **سمـــير أمـــين و برهـــان غليـــون، حوار الدولة والدين**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط**1**، **1996**.

48- **شـــارل جـــينيبير، المسيحية نشأتها وتطوّرها**، ترجمة:عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط**3**، دت.

49- **شكيـــب أرســـلان، مختارات نقدية**، دار الكلمة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**2**، **1983**.

50- **صالح عوض، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر من سنة 1830 إلى سنة 1962: دراسة تحليلية**، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر، ط**2**، **1992**.

51- **صـــبحي محـــمّد قنـــوص، دراسات حضرية...مدخل نظري**، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط**1**، **1994**.

52- **صـــلاح مـــصطفى الفـــوال، سوسيولوجيا الحضارات القديمة**، دار الفكر العربي، ط**1**، **1982**.

53- **صموئيل هـــنتنغتون، صدام الحضارات ... إعادة صنع النظام العالمي**، ترجمة: طلعت الشايب، شركة سطور، مصر، ط**2**، **1999**.

54- **عـــبد الـــرحمان ابـــن خـــلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**1**، **2004**.

55- **عـــبد الـــرحمان بـــدوي، فلسفة العصور الوسطى**، دار القلم، بيروت، لبنان، ط**3**، **1979**.

56- **عـــبد اللّـــه دراز، الدين: بحوث ممهّدة لدراسة تاريخ الأديان**، دار القلم، الكويت، دط، **1980**.

57- **عـــبد اللّـــه العـــروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط**6**، **2002**.

58- **عـــبد الغـــني عبـــود، المسيح والمسيحية والإسلام**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط**1**، **يناير 1974**.

59- **عـــبد المجيد عبد الملك، الإنسان والحضارة...جدلية المادة والوعي**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، لبنان، ط**1**، **2003**.

60- **عـــبد الهادي عبد الرحمن، عرش المقدّس: الدين في الثقافة والثقافة في الدين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط**1**، **مايو 2000**.

61- **عصام الديـــن محمّـــد علـــي، وقفة بين أصحاب الديانات وأنصار المذاهب**، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، **1990**.

62- **علـــي عـــبد المـــعطي محـــمّد، مقدّمات في الفلسفة**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، **1985**.

63- _ _ ، **الفكر السياسي الغربي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، **1993**.

64- **عمـــار بوحـــوش، تطوّر النظريات والأنظمة السياسية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط**2**، **1984**.

65- **فـــؤاد زكريـــا، الإنسان والحضارة**، دار مصر للطباعة، مصر، ط**1**، **1991**.

66- **فـــراس الســـواح، الوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهود واليهودية واله العهد القديم ومقدّمة في المسيحية الغنوصية**، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سوريا، دمشق، ط**1**، **2004**.

67- **فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والرجل الأخير**، ترجمة: حسين الشيخ، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط**1**، **1993**.

68- **فريدة غـــيوة حـــيرش، تأمّلات في القضايا الإنسانية المعاصرة والراهنة**، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، دط، **2004**.

69- **فضل اللّه محمّد إسماعيل و عبد الرحمن خليفة، الإيديولوجية وفلسفة الحضارة**، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، مصر، ط**1**، **2005**.

70- **فيلسيان شـــالي، موجز تاريخ الأديان**، ترجمة:حافظ الجمالي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط**1**، **1991**.

71- **فيورباخ، أصل الدين**، دراسة وترجمة: أحمد عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط**2**، **2005**.

72- **قسطنطين زريـــق، في معركة الحضارة**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط**1**، **1974**.

73- **كولن ولســـون، سقوط الحضارة**، ترجمة: أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط**4**، **1987**.

74- **لبيب عـــبد الســـتّار، الحضارات**، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط**5**، **كانون الثاني 1974**.

75- _ _ ، **أحداث القرن العشرين**، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط**3**، **1979**.

76- **لويـس غـارديه وجـورج قنـواتي**، **فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام**، الجزء الثالث، ترجمة: صبحي الصالح والأب فريد جبر، ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط**2**، **يناير 1983**.

77- **مالك ابـن نـبي**، **شروط النهضة**، **سلسلة مشكلات الحضارة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين وآخرون، مكتبة دار العروبة، القاهرة، مصر، ط**2**، **1961**.

78- _ _ ، **ميلاد مجتمع**، **سلسلة مشكلات الحضارة**، الجزء الأول: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، مطبعة الجهاد، ط**1**، **1962**.

79- _ _ ، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد العظيم علي، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، **1971**.

80- **ماهر عبد القادر محمّد وحربي عباس عطيتو**، **دراسات في فلسفة العصور الوسطى**، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، **2005**.

81- **محـمّد أبـو زهـرة**، **محاضرات في النصرانية**، الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، **1989**.

82- **محـمّد أحمـد الحـاج**، **النصرانية من التوحيد إلى التثليث**، دار القلم، دمشق، سوريا، ط**1**، **1992**.

83- **محـمّد البـهي**، **الدين والحضارة الإنسانية**، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ط**2**، **1974**.

84- **محـمّد العـبده**، **البداوة والحضارة**، **نصوص من مقدّمة ابن خلدون**، الكتاب التاسع، المنتدى الإسلامي، لندن، ط**1**، **1993**.

85- **محـمّد سـيّد أحمـد المـسير**، **المدخل لدراسة الأديـان**، دار الطباعة- المحمّدية، القاهرة، مصر، ط**1**، **1994**.

86- **محـمّد عـبد المنـعم نـور**، **الحضارة والتحضّر**، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر، ط**1**، **1970**.

87- **محـمّد عـزيز نـظمي سـالم**، **جدلية التاريخ والحضارة**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دط، **1996**.

88- **مـصطفى النشـار**، **فلاسفة أيقظوا العالم**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، **1988**.

89- **مـصطفى شـاهين**، **النصرانية: تاريخا وعقيدة.. وتبا ومذاهب**، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، دط، **1992**.

90- **مـنع خـوري**، **التاريخ الحضاري عند آرنولد توينبي**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، دت.

91- **مـوسى معـيرش**، **الديني والسياسي في اليهودية والإسلام بين المقدّس والمدّنس**، مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط**1**، **2007**.

92- _ _ ، **النظام السياسي في اليهودية والإسلام بين النظرية والتطبيق**، مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط**1**، **2007**.

93- **مولود بلقاسم نايت بلقاسم**، **إنيّة وأصالة**، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، دط، **1975**.

94- **ميرسيا الياد**، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، الجزء الثاني، ترجمة: عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا، ط**1**، **1987**.

95- **نعـوم تشومسكـي**، **11- 9 الحادي عشر من أيلول: الإرهاب والإرهاب المضاد**، ترجمة: ريم منصور الأطرش، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط**1**، **2003**.

96- **هنـري كوربان وآخرون**، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة: نصير مروة وحسن قبيسي، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، دط، **2004**.

97- **هـيجل**، **أصول فلسفة الحق**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، دط، **1996**.

98- _ _ ، **موسوعة العلوم الفلسفية**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، دط، دت.

99- **ول ديورانت**، **قصّة الحضارة**، ترجمة: محمّد بدران، **الجزء الأول**، **المجلّد الرابع** ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، دط ،**1956**.

100- _ _ ، **قصّة الحضارة**، ترجمة: محمّد بدران، الجزء الثالث، المجلّد الثالث، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، مصر، دط ،**1956**.

101- **يـوحنّا الآسيـوي**، **تاريخ الكنيسة**، **الكتاب الثالث**، الأجزاء الثالث والخامس والسادس، ترجمة: صلاح عبد العزيز محجوب إدريس، المجلس الأعلى للثقافة، دط، **2000**.

102- **يـوسف الحـوراني**، **الإنسان والحضارة**، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط**2**، **1973**.

103- **يـوسف كـرم**، **تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط**، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت.

104- **نـادية محمـود مـصطفى و عـلا أبـو زيـد**، **خطابات عربية وغربية في حوار الحضارات**، سلسلة محاضرات حول الحضارات 2 دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط**1**، **2004**.

105- **نـاصر بـن عـبد اللّـه القـفاري و نـاصر بـن عـبد الكـريم العـقل**، **الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة**، سلسلة دروس في العقيدة، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط**1**، **1992**.

106- **نـور الديـن حاطـوم**، **تاريخ العصر الوسيط في أوروبا**، دار الفكر، دمشق، سوريا، دط، **1982**.

107- _ _ ، **تاريخ الحركات القومية: يقظة القوميات الأوروبية**، الجزء الثاني، الحرية والقومية، دار الفكر الحديث، لبنان، ط**1**، **1996**.

2- بالفرنسيـــة:

1- ARQUILLIERE (H. X), Histoire de l'Eglise, Paris, Ecole, **1 septembre 1941.**

2- CHRISTOPHE (Paul), L'Eglise dans l'Histoire des Hommes, Du Quinzième Siècle à Nos Jours, France, Droguet- Ardant**, 1983.**

3- DANIELOU (Jean) et MARROU (Henri), Nouvelle Histoire de l'Eglise, Des Origines à Saint Grégoire le Grand, Paris, Seuil**, 1963.**

4- DOLEY (Tim) et autres, Guide Illustré de l'Histoire du Christianisme, Traduit de l'anglais par : Editions du Centurion**,** Paris, **1982.**

5- LOEW (Jaques) et MESLIN (Michel), Histoire de l'Eglise par Elle-même, France, Fayard**, 1978.**

6- MACHIAVEL (Nicolas), Le Prince, Traduit de l'italien par Jean Vincent PERIES, Algérie, Talantikit, **2004.**

7- SAINT AUGUSTIN, La Cité de Dieu, Traduit du latin par l'Abbé Gabriel VIDAL, Maison AUBANEL Père, Avignon**, 1930.**

8- WEBER (Max), L'Ethique Protestante et l'Esprit du Capitalisme, Paris, Librairie Plon, **1967.**

- ثـــالثا – المعاجـــم و القواميـــس:

1- بالعربيـــة:

1- ابـــن منظـــور، لسان العرب، المجلّد الثاني، دار صادر، بيروت، لبنان، ط**1**، **1997**.

2- الفـــيروز آبـــادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط**6**، **1998**.

3- حســـين علـــي حمـــد، قاموس المذاهب والأديان، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط**1**، **1998**.

4- عـــبد المنـــعم الحـــفني، المعجم الشامل- المصطلحات الفلسفية–، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط**3**، **2000**.

2- بالفرنسيـــة:

1- Le Petit LAROUSSE Illustré, Paris, LAROUSSE, **2007.**

- رابعـــا – الموسوعـــات:

1- بالعربيـــة:

1- القـــاضي الفـــاضل عـــبد النـــبي بـــن عـــبد الرســـول الأحمـــد نكـــري، موسوعة مصطلحات جامع العلوم الملّقب بدستور العلماء، تقديم: رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط**1**، **1997**.

2- أندريـــه لالانـــد، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلّد الأول A-G، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط**2**، **2001**.

3- أندريـــه لالانـــد، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلّد الثالث R-Z ، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط**2**، **2001**.

4- بـــيتر كـــونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط**1**، **1999**.

5- جميـــل مـــدبك، موسوعة الأديان في العالم: المسيحية، Edito Creps ، بيروت، لبنان، دط، **2000**.

6- _ _ ، **موسوعة الأديان في العالم: الكنائس الشرقية الأرثوذكسية والكاثوليكية**،Edito Creps، بيروت، لبنان، دط،**2001**.

7- **سميـح دغـيم، موسوعة مصطلحات العلوم الاجتماعية والسياسية في الفكر العربي الإسلامي**، سلسلة موسوعة المصطلحات العربية والإسلامية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط**1**، **2000**.

8- **عبـد الوهّـاب الكيـالي وآخرون، موسوعة السياسة**، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط**2**، **1991**.

9- **كميـل الحـاج، الموسوعة الميسّرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي**، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط**1**، **2000**.

10- **م. روزنتـال، و ب. يوديـن، الموسوعة الفلسفية**، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط**5**، **1985**.

11- **مهـدي حسين البـصري، موسوعـة الأديان: التوحيد، الخلق، القيم**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، ط**1**، **2001**.

12- **نهـى نجـار، موسوعة الأديان السماوية والوضعية: الديانة المسيحية**، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط**1**، **1995**.

- خامسـا - المجـلاّت:

1- بالعربيـة:

1	العنوان	الثقـافـة: من أجل أمن ثقافي عربي.
	العدد	76
	التاريخ	أغسطس 1983.
	المؤسسة	مجلّة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر.
	المؤلّف	أبو عمران الشيخ: *"شارل دي فوكو في تامنراست"*
2	العنوان	العـربـي، مجلّـة ثقـافية مصـوّرة.
	العدد	487
	التاريخ	يونيو1999.
	المؤسسة	وزارة الإعلام، الكويت.
	المؤلّف	سليمان مظهر: *"انتحار نيرون"*
3	العنوان	العـربـي، مجلّـة ثقـافية مصـوّرة.
	العدد	583
	التاريخ	يونيو2007.
	المؤسسة	وزارة الإعلام، الكويت.
	المؤلّف	سليمان إبراهيم العسكري: *"أربعون عاما على هزيمة يونيو!"*

2- بالفرنسيـة:

1	**Titre**	**CAHIERS EVANGILE, A la Naissance de la Parole Chrétienne, Tradition et Ecritures au Deuxième Siècle. Document autour de la Bible.**
	Numéro	**77**
	Date	**Septembre 1991.**
	Editeur	**Paris, Cerf.**
	Ecrivain	**/**

- سادسـا - مواقع الانترنت:

1- **www. Assoc.Wanadoo.fr**
2- **www .ahlolbayt.net/books/mogtama/b.tm(07-12-2007)**

فهـــرس الموضوعات

1– 3- فهـــــرس الموضوعـات

مقدمـــة 02
- الفصل الأول: الحضـــارة عنـــد توينـــبي 06
مـــدخل 07
1- المبحـــث الأول: مفهوم الحضارة 08
1-1- لغة و اصطلاحا 09
1-2- مفهوم الحضارة عند آرنولد توينبي 15
2- المبحـــث الثاني: ميلاد و ارتقاء الحضارات 20
2-1- عوامل نشوء الحضارات 21
2-2- طبيعة الارتقاء الحضاري 35
3- المبحـــث الثالث: انهيار و تحلل الحضارات 41
3-1- انهيار الحضارات 42
3-2- طبيعة و مظاهر التحلل الحضاري 47
- تعقيـــب 53
- الفصل الثاني: الديـــن و الدولـــة عند توينـــبي 54
مدخـــل 55
1- المبحـــث الأول: مفهوم الدين 56
1-1- لغة و اصطلاحا 57
1-2- الأديان العليا عند آرنولد توينبي 64
2- المبحـــث الثاني: مفهوم الدولة 71
2-1- لغة و اصطلاحا 72
2-2- الدول العالمية عند آرنولد توينبي 76
3- المبحـــث الثالث: دور الدول العالمية في تبلور الأديان العليا 81
3-1- المسيحية و مذاهبها 82
3-2- المسيحية و الإمبراطورية الرومانية 104
- تعقيـــب 112
- الفصل الثالث: المسيحيـــة و الحضـــارة عنـــد توينـــبي 113
مـــدخل 114
1- المبحـــث الأول: المسيحية و بناء الحضارة الغربية 115
1-1- التبشير المسيحي في الغرب 116
1-2- دور الكنيسة في ارتقاء الحضارة الغربية 122
1-3- المسيحية و الحضارات الأخرى 150
2- المبحـــث الثاني: توينبي و مستقبل المسيحية 163
2-1- التسامح و التعصّب الديني عند توينبي 164
2-2- المسيحية و فكرة القومية 170
2-3- الفراغ الروحي بين الماضي و الحاضر 178
3- المبحـــث الثالث: توينـــبي و سقوط الحضارة 183
3-1- التقنية العسكرية و سقوط الحضارة 184
3-2- الحرب في الحضارة الغربية 192
3-3- سكرة النصر 196

- تعقيـــب..... 199
خاتمـــة 200
1-1-فهـــرس الآيـــات 205
1-2-فهـــرس المصادر والمراجع 210
1-3-فهـــرس الموضوعـــات 217

ملخّص البحث

إن تفسير حركة التاريخ والاتجاه الذي يتخذه الرقي الإنساني والحضاري قد اتخذ صورا ونظريات متعددة، ويعدّ آرنولد توينبي من الفلاسفة الغربيين الكبار الذين اهتموا بدور الدين في بناء الحضارة بشكل عام وفي المسيحية بصورة خاصة وهو ما دفعني لاختيار هذا الأنموذج الفلسفي بغية الكشف عن الكيفية التي ناقش بها توينبي موقفه المتميّز المتمثّل في دور الدين الأساسي في عملية الحضارة ومنه كيف يكون للدين المسيحي الدور الفعّل في الحضارة المسيحية الغربية ؟ وهو ما دفعني إلى أن أقسّم بحثي الذي يدور حول هذا الموضوع إلى ثلاث فصول.

حيث حرصت في الفصل الأول على تبيان أنّ العامل الأساسي الذي يرتكز عليه قيام الحضارات وارتقائها ومن ثمّ سقوطها واندثارها هو عملية التحدّي والاستجابة من خلال عرض عام لمسار الحضارة وفقا لتوينبي.

وأما عن الفصل الثاني فقد بيّنت فيه ماهي الأديان العليا والدول العالمية التي يتحدث عنها توينبي وكنموذج عن ذلك الكيفية التي انبثق وانشر بها الدين المسيحي باعتباره أحد الأديان العليا من رحم الدولة العالمية، الإمبراطورية الرومانية.

وأما عن الفصل الثالث فقد حاولت فيه تحليل موقف توينبي بصفة إجمالية حول دور الدين المسيحي في انهيار الحضارة المسيحية الغربية من خلال الأثر السلبي الذي خلّفته ميكانيكية الصناعة العربية وما نتج عن ذلك من تولّد إحساس غربي بأفول الحضارة لمسيحية الغربية.

وقد توصلت إلى النتائج التالية:

- إن المسيحية التي بنت الحضارة المسيحية الغربية الحالية هي وجه آخر للمسيحية الأولى يتخذ من القوة العسكرية والقومية مظاهرا له ومنه فلا بد من العودة إلى الدين ومحاولة إضفاء الصفة الروحية على الحضارة.
- تحقيق جسم سياسي على سعة الكرة الأرضية بإمكانه توحيد كل السياسات وباحتوائه لجميع الدول يحس المواطن بالدفئ في تعاملاته الإنسانية بدلا من التروع إلى الحروب.
- تحقيق نظام اقتصادي يكون بمثابة حل عملي وسط بين المشروعات الحرّة والمشروعات الاشتراكية.
- غير أنّ أهم الحلول جميعا يضل التمسّك بالدين لأنّه العامل الحقيقي الذي تسبّب في اندثار واحد وعشرين حضارة ظهرت إلى الوجود و لم يتبقى منها إلا من أعطت للدين منزلة هامة.

Résumé de la recherche

La détermination de l'évolution de l'histoire et les résultats qui engendrent pour le progrès et l'émancipation de l'humanité entière en a pris plusieurs aspects. Arnold TOYNBEE (1889-1975) est l'un des plus féconds penseurs contemporains qui ont fait de l'histoire l'objet de leurs profondes spéculations.

TOYNBEE s'est intéressé au rôle de la religion dans l'évolution de la civilisation d'une façon générale et dans le christianisme en particulier, et de ce fait est-ce le rôle du christianisme dans la vie européenne a été déterminant ?

Pour bien présenter ma recherche je l'ai divisé en trois chapitres :

Dans le premier chapitre, j'ai étudié l'évolution de la civilisation humaine selon TOYNBEE.

Le deuxième chapitre, je l'ai consacré aux rôles des Eglises et Etats Universelles et en particulier le rôle qu'a connu au temps des empires romains la religion chrétienne.

Dans le troisième et le dernier chapitre de la recherche, j'ai éclairé le coté matérialiste et l'éloignement du monde occidental de l'esprit religieux.

Résultats :

- Le christianisme actuel et très éloigné des paroles pures et sincère du Christ.

- Le voeux de TOYNBEE est la création d'une société prospère.

- Des vingt et une civilisations qu'a connues la terre, il ne reste que cinq principales civilisations dont leurs peuples ont pu instaurer leur religion dans leur mode de vie.

تقرير البحث

تعدّ فلسفة التاريخ من أهم المباحث الفلسفية حديثة العهد في الفكر الفلسفي، فلم تتضح كعلم مستقل إلا في القرن السابع عشر، ثم تحددت معالمها في القرن الثامن عشر الذي شهد العديد من فلاسفة التاريخ، أمثال (فيكو ومونتسكيو وفولتير وكوندورسيه وغيرهم)، وبلغ الاهتمام بالدراسات التاريخية ذروته في القرن التاسع عشر، حتى ليمكن أن نطلق عليه اسم "عصر التاريخ"، على يد أعلام هذا القرن أمثال هيجل وكونت وماركس. وترجع أهمية فلسفة التاريخ إلى حيوية موضوعها، إذ تتناول بالدراسة حركة المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب انهيارها وسقوطها في مرحلة معيّنة من تاريخها بما في ذلك مشكلة القوانين التي تحكم حركة التاريخ وتطوره بين المؤكدين والمعارضين لها.

وإن التاريخ الإنساني هو تاريخ الحضارات، ومن المستحيل أن نفكر بتاريخ الإنسانية بأي معنى آخر، والقصة ممتدة عبر أجيال من الحضارة، منذ السومرية القديمة إلى الفرعونية إلى اليونانية إلى الرومانية إلى العربية الإسلامية، وعبر تجليات مثالية لحضارات أخرى كالحضارة الهندية واليابانية والصينية. والنتيجة أنّ فكرة نشوء وارتقاء ومن ثمّ أفول الحضارة كان يتم دراستها من طرف مؤرخين وعلماء اجتماع وفلاسفة للتاريخ من أمثال: ابن خلدون فيكو وديورانت وجيبون واشبنغلر واشفيتسر وآرنولد توينبي.

ومع الاعتراف بقيمة هذه الدراسات فإنّ المكتبة العربية كانت وما تزال في أشدّ الحاجة إلى بحوث متخصصة في هذا المجال، ففهم أسباب انهيار الدول والحضارات يقدّم الإجابة للتساؤل المقابل... كيف تنشأ أو كيف تقوم الحضارة ؟ أي كيف يمكن لها أن تتجنّب مصير الانهيار والموت والفناء ؟ بالضبط بنفس معنى أن نفهم أسباب المرض ومعرفة أعراضه، هو ضرورة أساسية لمعرفة العلاج ووصفه للمريض.

ويعتبر آرنولد توينبي Arnold Joseph TOYNBEE (1889- 1975) أحدث وأهم مؤرخ بحث في مسألة الحضارات بشكل مفصّل وشامل ومن الفلاسفة الغربيين الكبار الذين اهتموا بعامل الدين في عملية الحضارة بشكل عام وفي المسيحية بصورة خاصة.

وبهذا حاول هذا البحث أن يقدّم صورة شاملة عن دور الدين في بناء الحضارة عند توينبي، معتمدا في المقام الأول على نصوصه نفسها.

وتتلخص أهمية موضوعنا في الرؤية الفلسفية الجديدة لدى توينبي والتي تتمحور حول بعد جديد لدراسة التاريخ هو البعد الحضاري الديني الذي ينفرد به عن البعد المثافيزيقي لدى هيجل والاقتصادي لدى ماركس والبيولوجي لدى اشبنغلر.

وبما أنّه وراء كل عمل دافع، فقد دفعتني لاختيار هذا الأنموذج الفلسفي دوافع عديدة منها الذاتية ومنها الموضوعية.

أما الذاتية فتتمثل في أنّ هذا المؤرخ البريطاني الكبير من أكبر من قدّموا إسهاما في دراسة هذه القضية... قضية أفول الحضارة وإبداء رأيه الموضوعي عن دور المسيحية في بناء الحضارة الغربية بايجابياته وسلبياته.

كذلك اتصاله المبكر بالحضارة العربية الإسلامية والتي كان اهتمامه بها كبيرا جدّا وعنايته بها عظيمة على غرار فلاسفة غربيين آخرين، تجلّت خاصة في اهتمامه بدراسة تاريخ تركيا وكان من ثمار هذا الاهتمام دراسته القيّمة عن تركيا وعن أحوال الشرق الأوسط والعالم العربي في العشرينات من هذا العصر. وكان من مظاهر اهتمامه باللغة العربية أنّه قام بتعلّمها، وقام بدراسة عميقة لبعض المؤلّفات العربية ككتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ومقدّمة ابن خلدون.

أيضا دفاع توينبي طوال حياته عن حق الشعب الفلسطيني في وطنه فلسطين العربية، وبقي إلى آخر حياته يؤمن بأنّ العرب سينتصرون على العدوان الصهيوني مهما طال الزمن.

وعدّ توينبي الحضارة العربية الإسلامية إحدى الحضارات الخمس العالمية الكبرى التي قال بدوامها، والتي ظهرت منذ القديم وظلّت قائمة حتى العصر الحاضر وقد وضع للحضارة العربية الإسلامية إطارا جديدا وحدّد مكانتها ضمن الحضارات العالمية أعاد بذلك تقويم دورها ومكانتها في التاريخ العالمي.

وأما عن الأسباب الموضوعية، فهذا الموضوع جدير بالدراسة لأنّه يجمع في آن واحد بين فلسفة واحد من أبرز المفكرين في فلسفة التاريخ في الفكر المعاصر خاصة في مجال دراسة الحضارات، وبين الفلسفة الوسيطة، المسيحية منها. بعرض موقفه عن مساهمة الدين المسيحي في بناء الحضارة المسيحية الغربية.

وتدور إشكالية البحث حول علاقة الدين ببناء الحضارة ؟ وهل للدين المسيحي دور في قيام الحضارة المسيحية الغربية عند توينبي ؟ وفيما تتمثل أزمة الحضارة المسيحية الغربية التي دارت حولها فلسفة توينبي في التاريخ ؟

والمنهج المتّبع في هذا البحث هو المنهج التحليلي النقدي، حيث تمّ عرض ترجمة النصوص عرضا أمينا مع الحرص على ترتيب وتنسيق ما وجد محتاجاً إلى الترتيب والتنسيق.

وكغيرنا من الباحثين قد واجهتنا العديد من الصعوبات أهمها: غياب ترجمات عربية دقيقة لدراسة في التاريخ Study of History لآرنولد توينبي وهي موسوعة ضخمة تتألّف من اثني عشر مجلّدا، أنفق صاحبها في تأليفها واحدا وأربعين عاما، مع أنّها واحدة من أشهر الدراسات الأوروبية المتخصصة بنظرية التاريخ. والتي حاولنا تجاوزها بالعودة إلى الترجمة الفرنسية المختصرة essai d'interprétation:L'Histoire، التي وحدها مكّنتنا من الخوض في هذا الموضوع، فضلا عن بعض المصادر التي تمكنّا من تصوير ولو جزء منها لنذرها كالحضارة في الميزان والتحدّيات الكبرى.

وبالعودة لأقسام هذا البحث نجدها ثلاثة فصول مترابطة يؤدي كل منها إلى الآخر.

حيث عرضنا في الفصل الأول، الفصل التمهيدي من هده المذكرة، مفهوم الحضارة ومسارها وفق توينبي على ضوء نظرية التحدّي والاستجابة. حيث طبّق توينبي هذه النظرية على نشوء الحضارات، إذ يرى أنّ الحضارات تقوم وتصعد استجابة لتحديات محدّدة سواء كانت هذه التحديات مادية أو اجتماعية. وفي تحليله أن الحضارة عندما تصل إلى مرحلة تعجز فيها عن الاستجابة للتحديات التي تجابهها، فإنها تدخل في مرحلة الانهيار.

لكن ما الذي يجعل حضارة ما تعجز عن الاستجابة للتحديات التي تجابهها ؟ في رأي توينبي إن السبب الأساسي لهذا العجز هو عندما تفقد الحضارة قوتها الأخلاقية والقيمية والروحية، أي عندما تشهد انهيارا قيميا وأخلاقيا ودينيا. ومفاد تحليله أن هذا الانهيار القيمي والأخلاقي والديني يقود إلى الجمود، وإلى العجز عن الابتكار والتجديد والإبداع، ومن ثمّ العجز عن مواجهة التحديات. حين يحدث هذا، تشهد الأمة أو الحضارة موت القدرة الروحية والأخلاقية والتوقف عن الإبداع والتجديد ومجابهة التحديات. وتوينبي بناء على نظريته هذه، يقسم مراحل تطور الحضارات إلى أربع مراحل: أولا- مرحلة الميلاد والنشأة. ثانيا- مرحلة الازدهار والارتقاء. ثالثا- مرحلة الأفول الحضاري. ورابعا وأخيرا – مرحلة التحلل.

إذن جوهر نظرية توينبي يقوم على أن الأمم والحضارات تموت أساسا بسبب عوامل داخلية. وأهم هذه العوامل الداخلية انهيار القيم والقوة الأخلاقية.

وتناول الفصل الثاني من هذه الدراسة، علاقة الدول العالمية بالأديان العليا. Etats et Eglises Universelles

فالدول العالمية هي الدولة التي تحقق السلام للبشرية، وتنبعث هذه الدولة العالمية بعد انهيار الحضارة لا قبلها وتتولى تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعي، وتبعث الدولة العالمية عن الأقلية المسيطرة الحاكمة وتعتبر محاولة للم الشعث للمجتمع إبان التحلل. فالدين هو الحلقة المتينة التي تربط الحضارة القديمة بالحضارة الجديدة، ذلك أنّه يؤمّن للمجتمع منفذا آخر للنجاة. وبما أنّه ظهر في عصر الاضطرابات الذي يلي انهيار الحضارة وهي مرحلة من الفوضى تسبق الزوال التام، فإنه يستمرّ في التواجد في إطار الدولة العالمية، الدولة التي تقوم على أنقاض الحضارة لتوهم المجتمع أنّ حضارته لا تزال قائمة وأيضا قوية ويتم ذلك بتعظيم العمل العسكري.

غير أنّ هذا السلام الزائف الذي توفّره هذه الدول العالمية لمواطنيها سرعان ما يزول لتدخل الحضارة في المرحلة النهائية وهي مرحلة التحلل التام. ولكنها بزوالها تترك المجال فسيحا لنمو الأديان العليا أكثر فأكثر، فتستميت من أجل البقاء وتنقض بالتالي أفراد المجتمع من الفناء، باستمالة الأفراد للدخول فيها واعتناق مبادئها، فتكبر وتتعاظم في الوقت الذي تنحو فيه الدولة العالمية إلى الزوال نتيجة لاعتمادها الرئيسي على القوة العسكرية.

وكنموذج عن ذلك انبثاق الديانة المسيحية من رحم إحدى أكبر الدول العالمية التي شهدها التاريخ الإنساني: الإمبراطورية الرومانيةempire romain إذ تلعب الأديان دور الأرحام الحاضنة لنشوء وتولّد الحضارة.

وأفرد الفصل الثالث وهو الفصل التطبيقي من هذه المذكرة، إلى تحليل موقف توينبي حول حضور الديانة المسيحية في الحضارة الغربية فأهم ما تعرّض إليه توينبي بالبحث والتحليل هو تبيين القيمة والمكانة الكبيرتين التي من شأن التسامح والتعصّب الديني المسيحي أن يوظّفاها لتقوية الحضارة الغربية فرغم أنّ كليهما قد سعى من أجل تحقيق هذا الهدف سعيا كبيرا وتمكّنا فعلا من فعل الشيء الكثير إلا أنّ احتوائهما كما التبشير على أهداف متخفيّة حال دون اكتمال الصورة الجميلة للمسيحية التي أريد لها أن ترسم للعالم. فقد دفعا بالفعل الحضارة المسيحية الغربية إلى الأمام رغم الإساءة للرسالة المسيحية في حد ذاتها.

ويبيّن كذلك توينبي، أنّ دين الحضارة المسيحية الغربية الحالي هو القومية، وذلك لحلولها محل الديانة المسيحية الحقيقية، فالمجتمعات المسيحية الغربية قد استعاضت عن عبادة الله بعبادة نظام أو معتقد قومي وتمكّنت هذه القوة الروحية من إعلاء كلمة الحضارة المسيحية الغربية. والحقيقة أنّ الدين المسيحي مغلّف بغطاء القومية قد أسهم بشكل كبير في إخضاع شعوب العالم للقومية الغربية الحديثة.

وإنّ التقديس الحالي للقوة العسكرية مكّن الحضارة المسيحية الغربية من التحكّم بمصير مجتمعات عديدة في العالم بتواجدها في كل مكان بتقنياتها العسكرية المتفوّقة خاصة والمستعدة لمواجهة أي قوى أخرى.

وبما أنّ الحضارة الغربية مختلفة عن المجتمعات الأخرى، فقد ولّد هذا الاختلاف صدامات عديدة مع شعوب هذه الحضارات في العالم. ولكنها تخفي في داخلها قوة كبيرة ذات أبعاد عديدة كالصرح الثقافي والسياسي والاقتصادي الذي عملت La Respublica Christiana عبر القرون الوسطى الطويلة على تمتين قواعده وأساساته حتى يحمي الحضارة المسيحية الغربية من أي صدامات من الممكن أن تواجهها في طريقها نحو العالمية.

وأيضا ظهور الثورة الصناعية ثم الثورة التكنولوجية حتى انفصل الإنسان عن مبادئ الأديان انفصالا تاما، فارتدّت الإنسانية إلى الوراء وتدهورت الحضارة. وذلك لأنّ الثورة التكنولوجية ركزّت على الاتجاه المادي في التقدّم دون أن تعير الجانب الروحي أي التفات، وكان التقدّم المادي غاية في السرعة إلى حد لم يستطع الإنسان استيعابه واحتواءه، فأصبح الإنسان غريبا على ذاته وعلى أحداث مجتمعه، واستشرى داء هذه المعضلة وظل سائرا على نفس المنوال مما أدى إلى ضياع ذاتية الإنسان وإنسانيته، وهما أسمى أمرين لثبات ونهوض الحضارة. وأصيبت البشرية من جراء ذالك في بفراغ روحي لم تعهده من قبل.

والسبب في ذلك في نظر توينبي هو تحويل الدين المسيحي عن رسالته الحقيقية وتوظيفه بقوة في وضع قواعد لسيادة عالمية غربية مسيحية بالقوة. فالمسيحية كانت أمام ضغط هائل من قبل حضارة الإغريق المتطورة لغةً وفناً وفلسفةً، مما جعل القائمين على نشرها يعملون على إفراغها من محتواها التوحيدي مقابل تحدّي الديانات المحلية بجنوب وشرق أوروبا، إلى جانب أهداف خاصة بالقديس بولس الذي اعتنق المسيحية وترك ديانته الأصلية اليهودية، كما ترك أسمه الأصلي شاؤول، بيد أنه ركب واختار وتقبَّل عقائد الثالوث المحلي في بلاد الرومان واليونان محولاً هذا

الثالوث إلى ثالوث مسيحي مقدّس، قرَّب المسيحية للوثنية وخرج بها عن أصلها التوحيدي نحـــو ديانات أوروبا الوثنية.

وهذا يعني أنّ هذه المسيحية الحالية هي صورة ثالثة عن المسيحية الأولى التي أتى بها السيّد المسيح عليه السلام والثانية التي حوّلها القدّيس بولس والثالثة التي تحضر بقوة اليوم في المجتمع الغربي. ومظاهرها هي العناصر التي عالجها توينبي والتي كان موضوعيا في حكمه عليها بشكل كبير. لقد بنت هذه المسيحية الثالثة الحضارة المسيحية الغربية الحالية وإن كانت قد اعتمدت على صورتها الثانية التي وضعها القدّيس بولس ومع أنّ هذا البناء يحتوي على مواطن كثيرة من الزيف إلا أنّه ما يزال مستمرا وإلا لماذا يتنبّأ المفكرون الغربيون في مجملهم بأفول الغرب المسيحي لو لم يلمسوا هذا الزيف فعلا وبصورة موضوعية.

وأخيراً تتبلور الرؤية الكلية للبحث في خاتمة قدمنا فيها تقييماً للأفكار الأساسية العامة في فلسفة توينبي التاريخية، وهي الأفكار التي وردت في ثنايا البحث.

وهي أنّ العيش معا كعائلة واحدة هو المستقبل الوحيد للبشرية، بعد أن أزالت التكنولوجيا الغربية المسافات، وإن البديل الوحيد لعدم فناء الجنس البشري هو الانصهار الاجتماعي الشامل الكامل لكل القبائل والشعوب والحضارات والأديان عند الإنسان. لكن هل سيتم الانتقال من هذا الانقسام الحالي للسلطة السياسية سلميا أم سيتم بحدوث كارثة ؟ فإذا تم بكارثة، فهل تكون شاملة تستعصى على العلاج، أو تكون مجرّد كارثة جزئية تخلّف وراءها عناصر تحقّق على مدى الأيام البرء والشفاء بعد معاناة مرحلة من الألم والشقاء.

ويرى توينبي في مجال وحدة الأديان أنّ تاريخ الدين يقوم على الوحدة والارتقاء... فإما أن تزيح العقائد الدينية بعضها بعضا من الوجود حتى لايبقى منها واحدة ... وإما أن يجد الجنس البشري خلاصة في شكل من أشكال الوحدة الدينية، لكنه لا يخبرنا عن هذا الشكل الجديد أو أي من الأديان الحالية سيتخذ الزعامة.

ولعل المبرر المعقول لبقاء الحضارة الغربية المسيحية الحديثة - على ضوء النظرة التي نعرضها هنا للتاريخ - أنها قد تحقّق للمسيحية وشقيقاتها صنيعا، هو أن تقدّم لها المكان الذي تلتقي فيه على صعيد عالمي، فتعيد إليها وحدة قيمتها ومعتقداتها الغائبة، وتطرح خلافاتها للنقاش لتتمكن من مواجهة تحدي انبعاث وثنية فاسدة تقوم على عبادة الإنسان لذاته، ومع أن آرنولد توينبي يحلم بجسم سياسي على سعة الكرة، فإنه يرى أن وحدة الجنس البشري لن تتم إلا على أساس الدين،

إذ يرى أنّ الحضارة المسيحية الغربية قد بلغت مؤخرا في المجالين الاقتصادي والتكنولوجي مكانة عالمية الطابع دون أن تدرك نجاحا مشابها في المجالين السياسي والثقافي وخاصة الروحي. بل أصبح توحيد العالم السياسي أمرا مشكوكا فيه، بعد ما كابد العالم من تجربة مدمرة خلال حربين عالميتين دون أن يتعرّض لتلك الضربة القاضية المألوفة التي ما برحت الثمن التقليدي للوحدة العالمية في تواريخ الحضارات.

لكن اتبّاع هذه الوسيلة الفظة لن يحقق على أية حال وحدة الجنس البشري، إنّ الوحدة المرتجاة لن تتم إلا نتيجة عرضية لعمل يستند على الإيمان بوحدانية الله، وعلى النظر إلى المجتمع الأرضي الموحّد على أنّه جزء من ملكوت الله.

وشكرا لكم.